

نفحات الرحمة

من نبي الرحمة

ومعجزة القرآن الكريم

عثمان نوري طوپباش

دار الأرقم



إسطنبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

اسم الكتاب باللغة التركية: Rahmet Esintleri ve Kur'ân Mûcizesi

الترجمة للعربية: زيد التركماني.

مراجعة وتصحيح وتدقيق: إياد عمار/ حمدي قاسم أوغلي

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٩٣٢٧

Language: Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



- Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
  Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
  Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

نفحات الرحمة

من نبيِّ الرحمة
ومعجزة القرآن الكريم

عثمان نوري طوبَّاش



مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي أكرمنا نحن- عباده الضعفاء العاجزين- بطمأنينة الإيمان وسعادته وسكينته.

والصلاة والسلام على أشرف مخلوقاته الذي به ختمَ أنبياءه وأخرجَ المؤمنين من ظلام الجهل والكفر والخسران، ليشرِّفهم بنور العلم والإيمان والعرفان.

أما بعد، فإننا لم نشرع لعرض مقتطفات من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم العطِرة في حدود سطور هذا الكتاب إلا لنقدِّم للأفئدة التي تعاني من الضيق والتعب والعجز وقلة الحيلة، إشراقاتٍ من روحانيته عليه الصلاة والسلام في هذه الأيام التي صار أكثر الناس فيها ينقادون للأمور المادية ويحيون تحت نير الرغبات النفسانية. ولعلنا بذلك نحظى بنصيبٍ من فضائل هذا النبي الكريم الذي «يصليِّ ويسلِّم» عليه رب العالمين مع ملائكته أجمعين، والذي كان ينقاد إليه الشجر ويُسلِّم عليه الحجر.

ومن أسرار «المحبة» التي هي علة وجود الكون أن يكون حال المُحِبِّ كحال المحبوب. وما ينتج عن المحبة يكون على حسب شأن المحبوب مهما كانت طاقة المُحبُّ وقدرته.



إن البشرَ كلهم محتاجون لشفاعة حبيب الله عليه الصلاة والسلام. وإنه لمِنَ المحال أن يُدرِك الإنسان قَدْرَه عليه الصلاة والسلام إدراكًا كاملًا بهذه الكلمات التي يفهمها عقله. فعندما يكون الحديث عنه عليه الصلاة والسلام تجفُّ الأقلام وينفد المِداد وتتبعثر الحروف. وعندما تقف الألسنة- كل الألسنة- عاجزةً عجزًا مطلقًا عن تصوير سيرته الحسنة، فإن الكلمات وإن انعكست من أفئدتنا على ألسنتنا فإنها ليست إلا غيضًا من فيض. ومع ذلك كله، فإن كل شيء أو سلوك يذكِّر به، يبقى تجليًا وإلهامًا وبارقةً لا يماثل غيره. وما تجليات قدرة الله تعالى في هذا الكون البديع إلا لمعة وومضة من نوره عليه الصلاة والسلام.

ولقد سعينا في هذا الكتاب الذي نضعه بين أيديكم إلى عرض لمحات من حياة سيدنا ومرشدنا وهادينا إلى النجاة محمد عليه الصلاة والسلام، وبعضٍ من معجزات القرآن الكريم التي ستنير القلوب حتى اليوم الموعود، وتُثبِت أنه الكتاب الحق من عند بارئ الخلق. والقرآن الكريم الذي ينير القلوب المؤمنة بالحكمة والحقائق ويحث على التفكر والتدبر إنما هو معجزة إلهية تُجبِر العلوم كلها بما تحويها من اكتشافات على تأييدها وتصديقها حتى قيام الساعة. وقد ذكرنا في هذا الكتاب بعضًا من الحِكم التي أشارت إليها الآيات الكريمة على ضوء الاكتشافات الأخيرة في عصرنا.



وهنا لا بد من أن نتوجه بالشكر للأستاذ د. مراد كايا وطلابنا الذين كانوا عونًا وسندًا لنا في تأليف هذا الكتاب، وندعو الله سبحانه وتعالى أن تكون جهودهم الخالصة صدقة جارية في ميزان أعمالهم!

قرَّاءنا الأعزَّاء

إن معجزاء الأنبياء السابقين والأصول التي جاؤوا بها لأممهم لم يبقَ منها إلا القليل في أيامنا هذه. أما معجزة القرآن فمعجزةٌ ستدوم حتى قيام الساعة لُطفًا استثنائيًّا لأمَّة رسول الله ﷺ الميمونة.

ويُذكِّرنا هذا الكرم الإلهي بأهمية عبوديتنا لله تعالى وبعِظَم النعمة التي ننعم بها.

وإننا ندعو الله تعالى- باحترامنا للقرآن الكريم وتقديسه- أن يجعل هذه الأمانة العظيمة ربيع قلوبنا التي هي منبع أحاسيسنا، وبلسمًا لأرواحنا، ووسيلةً للنجاة في الدنيا والآخرة!

والبذرة- مهما كان نوعها- لا تنمو ولا تكبر إلا إن وُضِعَت في التربة الصالحة. وإن لم يكن أثرُ «نفحات الرحمة» التي هبَّت من قلوبنا بقدر إدراكنا لحقائق النبوة أثرًا قويًّا، فذلك لهفوةٍ أو عيب فينا.

غير أننا ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل صفحات هذا الكتاب، الذي كتبناه ليكون وسيلةً لمحبة رسول الله ﷺ، براعمَ هداية لقلوبنا ومنبعًا للفيوضات والروحانيات، وإن لم يخلُ من عيوب وأخطاء.



وما أعظم سعادة المؤمنين! فأفئدتهم المليئة بالمحبة معلقةٌ بالله ورسوله، وتلكم المحبة عندهم أسمى من كل محبة دنيوية!

فلنعزِّز من رابطتنا به عليه الصلاة والسلام ونرسخها بالصلاة والسلام عليه! فإننا محتاجون إلى توسله وشفاعته في يوم عصيب قمطرير...

اللهم أكرمنا بروحانيات نبينا ﷺ الهادي إلى الصراط المستقيم واجعلها كنفحات تحيي أفئدتنا! واجعل محبتك ومحبة نبيِّك في قلوبنا إلى أبد الآبدين! ولا تحرمنا من شفاعة رسولك العظمى يا أرحم الراحمين!

آمين!

عثمان نوري طوبَّاش

كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧

إسطنبول-أُسكُدار



نبيُّ الرحمة
وحياتُه المُثلى



قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)



مولد سيد الكونَين محمد ﷺ

الصلاة والسلام على سيد الكونَين **محمد المصطفى**...

الصلاة والسلام على رسول الثقلَين **محمد المصطفى**...

الصلاة والسلام على إمام الحرمَين **محمد المصطفى**...

الصلاة والسلام على جدِّ الحسنَين **محمد المصطفى**...

اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلِّم.



لقد عمَّت رحمة الله تعالى الكونَ كله وشملت أرجاءَه، وكان أكملُ أثر من آثار هذه الرحمة الربَّانية ذلك المخلوق الإنسان؛ الإنسانُ الذي أعلَى ربُّ العالمين مقامَه بين مخلوقاته، ووضعَ فيه صفات تؤهله لذلك المقام السامي والشرف الرفيع.

فمن هذه الصفات العقل والإدراك والفهم، غير أن هذه الصفات أو الألطاف الإلهية لا تؤهل وحدها الإنسان ليفهم الحقائق السامية واليقينيات الكونية فهمًا تامًّا كما أراد الخالق سبحانه وتعالى. لذلك أنعمَ الله ﷻ على الناس- إلى جانب نعمه الأخرى- بنعمة كبرى؛ ألا وهي نعمة «إرسال الأنبياءِ والرسل» فكانوا خير عون وسند للناس في طريق «الوصول إلى مرضاة الله». وأتمَّ عونه لهم



بـ «**النور المحمدي**» المخلوق أولًا، والمُرسَل إلى البشر آخرًا، المتجلي في هذه الدنيا بنبيِّ آخر الزمان، وخاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين.

لقد شرَّف خيرُ الخلق سيدنا محمد ﷺ هذه الدنيا قبل طلوع شمس يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول الموافق للعشرين من نيسان عام ٥٧١ للميلاد.

إن نوره ﷺ-بلا ريب- أول مخلوق، والمخلوقات كلها تشرفت وأُكرمت بذلك النور المحمدي.

وقد تنزَّلت رحمات الله جلَّ في علاه على هذا الكون يوم وُلِد نبينا الكريم ﷺ. فلم يكن يوما كسائر الأيام؛ إذ الأحوال تبدَّلت، والنفوس طابت، والمشاعر ترقَّت، والأفئدة بالفيوضات والبركات امتلأت. و الأرض تغيرت؛ فقد تكسَّرت الأصنام، وغاضت بحيرة ساوة[١]، وتصدع إيوان كسرى، وخمدت نار فارس[٢].

فكانت تلك التجليات في الزمان والمكان أولى بركات ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم.

---

١ ساوة: بحيرة تقع جنوب غربي طهران على مسافة ١٢٥ كيلومتر منها، بين همدان وقُم . وبُنيَت فوقها مدينة ساوة بعد أن جفَّ ماؤها .

٢ انظر: ابن كثير، البداية، جـ٢، ص٢٧١ .

وتذكر لنا المراجع أن من مرضعات رسول الله ﷺ ثويبة الأسلمية التي كانت جارية عمه أبي لهب ألدِّ أعدائه.

فلمَّا بَشَّرت ثويبةُ أبا لهب بولادة ابن أخيه أعتقها فرحًا بمولد ابن أخيه، فكان سروره هذا كافيًا لتخفيف العذاب عنه كل يوم اثنين.

إذ لما مات أبو لهب رآه بعضُ أهله بِشرِّ خيبة. فقال له: «ماذا لقيت؟» فقال أبو لهب: «لم ألقَ بعدكم خيرًا، غير أني سُقيتُ في هذه بعَتَاقتي ثويبة» وأشار إلى النُّقْرَة[3] التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وذكر السهيلي وغيره: إن الرائي له هو أخوه العباس. وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر، وفيه أن أبا لهب قال للعباس: «إنه ليُخفَّف عليَّ في مثل يوم الاثنين».[4]

وقال ابن الجزري:

«فإذا كان هذا أبو لهب الكافر، الذي نزل القرآن بذمِّه جُوزِي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمته عليهالصلاة والسلام الذي يُسَرُّ بمولده، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ، لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم.

---

٣ النُّقَرَة: الحفرة الصغيرة.

٤ ابن كثير، البداية، جـ٢، ص٢٧٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ١، ص١٠٨.



ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السّلام، ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.

ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام» .[٥]

فعلى المؤمنين المحبِّين لنبيهم الكريم في شهر ولادته ﷺ أن يحيوا قلوبهم بحضور الصُحَب والمجالس المعنوية، وأن يفتحوا موائدهم لأمة الإسلام حبًّا لنبيهم الكريم كي يستفيدوا من روحانية هذا الشهر المبارك، وأن يُدخِلوا السرور في القلوب الحزينة المُغتمَّة، وذلك بفعل الخيرات، وإعطاء الصدقات، والإحسان للفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين، وتلاوة القرآن عليهم واستماعه منهم.

تُوفي عبد الله أبو النبي قبل ولادته ﷺ بشهرين بعد أن مرِضَ في المدينة وهو راجع من رحلته التجارية إلى الشام.

وبقي هذا الرضيع المبارك مع مرضعته حليمة السعدية في البادية حتى بلغ الرابعة من عمره، فقد كان من عادة العرب آنذاك إرسال أولادهم إلى البادية، إذ كانت معروفة بطيب هوائها و وصفاء جوها وعذوبة مائها وسلامة لغتها.

---

٥ القسطلاني، المواهب اللدنية، جـ١، ص٨٩-٩٠ .

ولمَّا بلغَ نور الوجود ﷺ السادسةَ من عمره، أخذته أمه آمنة مع حاضنته أم أيمن إلى يثرب «المدينة المنورة» لزيارة قبر أبيه عبد الله. فمرضت السيدة آمنة في سفرها، وتوفيَّت في الأبواء بين مكة والمدينة ودُفِنت هنالك فصار النبي ﷺ يتيم الأمِّ والأب.

يقول الشاعر معبِّرًا عن هذي الحال:

يا راقدًا بالأبواء طابَ ثراك،

فأجمل وردة تفتحت في بستانك...

ثم رجع مع حاضنته أم أيمن إلى مكة، ليعيش في رعاية جده. ولما بلغ النبي ﷺ الثامنة من عمره تُوفيَّ جدُّه عبد المطلب. فتولى أمرَه عمُّه أبو طالب، وحمَاه من كل مكروه حتى كبر وتزوج وأُوحِيَ إليه. غير أنَّ أبا طالب ما لبث أن توفي لما بدأ نبينا عليه الصلاة والسلام بمهمة الرسالة، وكان آنذاك في أشد الأوقات حاجةً للحماية من المشركين. فلم يبقَ له عون ولانصير سوى الله تعالى الذي كان سنده وحاميه ومؤدِّبه.

وإن أمعنَّا النظر في حياته ﷺ، سنجد أن الحكمة من وراء حاجته إلى نصرة البشر في أصعب أوقاته أن يكون أسوةً للناس في الأحوال والظروف كلها.

لقد كانت طفولة النبي اليتيمة وشبابه الذي اتصف فيه بالنزاهة وحسن الأخلاق يبشِّران بمستقبل نبي عظيم يُقيم أمة عظيمة.





زواجه

لما بلغ نور الوجود ﷺ الخامسةَ والعشرين من عمره، تزوج من السيدة خديجة رضي الله عنها وكانت من خيرِنساء قريش وأشرفهن.. ولما تزوجها رسول الله كانت أرملة لها أولاد وتكبره بخمس عشرة سنة، غير أن ذلك كله لم يكن عائقًا دون أن يعيش النبي ﷺ معها حياة سعيدة مطمئنة تكون قدوة للبشرية. فكانت هذه السيدة الشريفة سندًا للنبي ﷺ بمالها وروحها.

وقد ساندت رضي الله عنها النبي ﷺ لمَّا رجع من الغار فأخبرها الخبر، وقال لها: «**لقد خشيت على نفسي**»

فقالت رضي الله عنها: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[٦]، وتكسِب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم».[٧] فكانت أول من صدَّقه وأعانه وآمن به.

ولم ينسَ النبي ﷺ مساندتهاورقَّتها وعطفها ورفقها البتة، بل بقي يذكرها دائمًا؛ إذ لمَّا كان يذبح ﷺ شاةً، يرسل جزءًا منها إلى أقارب السيدة خديجة[٨].

---

٦ الكَلُّ: العاجز، أي تعينه إعانة كاملة حتى وكأنك تحمله .

٧ البخاري، بدء الوحي، ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢؛ ابن سعد، جـ١، ص١٩٥ .

٨ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٢٠؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٧٤-٧٦ .

وقد دام زواج سيدنا محمد ﷺ بسيدتنا خديجة ﵂ أربعة وعشرين عامًا، وكان النبي ﷺ آنذاك في قمة الشباب والنشاط. أما زيجاته بعد وفاة السيدة خديجة فقد كان لأهداف دينية أو غايات سياسية، إذ كانت أكثر زوجاته عجائز وأرامل. ولم يتزوج نبينا ﷺ بِكرًا إلا سيدتنا عائشة ﵂، لتكون المسائل الفقهية الخاصة بالنساء واضحة ثابتة.

فقد أدركت السيدة عائشة ﵂ بذكائها وفراستها المسائلَ الشرعية الخاصة بالنساء إدراكًا كاملًا، وعاشت بعد وفاة رسول الله ﷺ حياة مديدة ترشد نساء المسلمين بما تعلمته من رسول الله ﷺ، فكانت من أصح مصادر الأحكام الفقهية المتعلقة بالنساء. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة في قوله:

«خذوا ثلث دينكم من بيت عائشة»[٩]

وحكمة أخرى من حِكَم زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة ﵂ إنما هي رغبةُ سيدنا أبي بكر ﵁ في توثيق صلته بالنبي ﷺ الذي بدأ في غار ثور عندما كان ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾[١٠] وذلك برباط المصاهرة.

ولا يمكن أن يَعرِفَ قيمةَ زواج النبي بزوجاته وما فيه من مقاصد سامية وحِكم دقيقة إلا أهل الإيمان والعرفان.

---

٩ الديلمي، الفردوس، جـ٢، ١٦٥/ ٢٨٢٨ .

١٠ انظر: التوبة: ٤٠ .



ولو كان زواج النبي لشهوةٍ فحسب كما يدَّعي أصحاب النفوس المريضة والغايات الخبيثة، لما تزوج رسول الله ﷺ بزوجته الأولى التي كانت أرملة ذات أولاد، ولما عاش معها خمسة عشر عامًا من أعوام شبابه.

لكنَّ ذوي التفكير السطحي- الذين دأبوا على النظر إلى الزواج من منظور الشهوة لا غير- عاجزون أشدَّ العجز عن إدراك مثل هذي الحقائق، وما الأحكام الباطلة التي يطلقها أصحاب الأغراض الدنيئة والأهواء النفسية إلا انعكاس لعالَمهم الحالك الظلام.



غار حراء وبدء الوحي

كان يتصف النبي ﷺ في شبابه بالصدق والأمانة والنزاهة، وكان زواجه بالسيدة خديجة زواجًا ميمونًا، وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره، قدَّر الله تعالى أن يكون غار حراء في مكة مدرسةً يتعبد الله تعالى فيها ويملأ قلبه من الفيوضات والعلوم الربانية.

ففي تلك المدرسة المليئة بالفيوضات والروحانيات تعلَّم العلوم الفانية والباقية. ولمَّا بلغ الأربعين من عمره المبارك جاءه الأمر الإلهي أن: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [11]، فكان ذلك شهادةً له بالنبوة وأهليته للإرشاد وتبليغ الدين.

---

11 العلق: ١.



وكان النبي ﷺ قبل نزول الوحي يرى «الرؤى الصادقة». فصار يأتي إلى غار حراء يتعبد فيه الليالي الكثيرة.

إنَّ عقولنا تعجز عن فهم سِرِّ غار حراء وما وراءه من الحكم والأسرار، فذلك المكان المبارك سيظل مجهولًا للناس إلى أبد الآباد من حيث إنه مكانٌ للإعداد والتحضير. فما دفع النبي ﷺ إلى ذلك المكان- في الظاهر- إنما هو الظلمُ والجور والرذيلة التي انتشرت بين الناس، ورحمتُه التي عمَّت العالَم كله. أما في الحقيقة فقد كان غار حراء مرحلة إعداد لانتقال القرآن- نور الهداية- إلى إدراك البشر بواسطة النبي الكريم ﷺ.

وإن وقفنا عند هذه المرحلة وحاولنا التنقيب عن تفاصيلها، فلن نستطيع أن نجد جوابًا، لأن هذا الأمر يفوق إدراك العقول، وبقاؤه سرًّا بين رب العباد وحبيبه أوجبَ تجليه في غارٍ بعيد عن أبصار الناس وأسماعهم.

إن الإنسان العادي لا يستطيع تحمل الحِمل الثقيل الذي تفرضه مخاطبةُ الوحي، لذلك كانت مرحلة غار حراء مرحلةً ظهرت فيها تلك الطاقة والقدرة الخفية التي منحها اللهُ تعالى الإنسانَ، فكانت كمرحلة تحول الحديد الخام إلى فولاذ صلب بالخصائص الكامنة فيه... لذلك يقف الإدراك عاجزًا عجزًا مطلقًا أمام بلوغ أسرار هذه المرحلة وكشف خفاياها.



وكلُّ من لم ينظر إلى هذا السر بعيون فؤاده وبصيرته، ويؤمن بالوحي الذي نزل في هذا المكان المبارك فسيلحق بقافلة الأشقياء التعساء التي يقودها الجهَّال أمثال أبي جهل وأبي لهب.



الهجرة وغار ثور

بعد أن جاهد النبي ﷺ قومَه في تبليغهم الدين في مكة ثلاث عشرة سنة، ساقتْه إرادةُ الله تعالى إلى غار آخر أثناء هجرته إلى المدينة؛ وهو غار ثور. غير أن هذا الغار لم يكن من أجل التعلم والتفكر في خلق الله جَلَّ جَلَالُهُ كما كان الحال في غار حراء، بل كان مدرسةً معنوية ترقَّى فيها قلب النبي ﷺ وأحاطت به الأسرار الإلهية.

فمكث هنالك ثلاثة أيام بلياليها. غير أنه لم يكن وحيدًا فيها، بل صحبَه أبو بكر الصديق صاحبه وخير الخلق بعد الأنبياء وأرفعهم درجة، فنالَ رضي الله عنه شرفَ صحبة النبي في الغار ثلاثة أيام، وإليه أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، وله قال نور الوجود ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[١٢] معلِّمًا إياه المعية الحقيقية مع الله تعالى. وفي ذلك الزمان والمكان كانت بداية تعليم الذكر الخفي الذي يعدُّ من وسائل اطمئنان القلوب بالله سبحانه وتعالى.

---

١٢ الأنفال: ١٧



أي إن ذلك الغار كان بداية التربية القلبية الأساسية التي تنقل العبد من عالَم الأسرار اللامتناهية إلى الوصال مع الله تعالى، وكان أُولى مراحل تلك الرحلة المعنوية.

وقد كشفَ رسول الله ﷺ أسرار قلبه الذي يعد منبع أنوار أمته أوَّلَ مرة لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه في هذا الغار.

إن الإيمان يستمد طاقته من محبة النبي ﷺ. والدافع الأساسي لكل عملٍ فاضلٍ أو فعلٍ سامٍ إنما هو محبته ﷺ، والطريق الوحيد للوصال مع الحقِّ تعالى يمرُّ من محبته ﷺ، ذلك أن شرط المحبة وقانون العشق محبةُ ما يحبَّه المحبوب؛ ومن المُحال إدراك المحبة الإلهية بعقولنا الضيقة فحسب.

ولا ريب أن العبارات التالية سيكون لها أثر في كل قلب على حسب جوهره وطاقته.

لقد كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يجد لذة مختلفة في كل صحبة مع النبي ﷺ لأنه كان أخص الخواص في أسرار النبوة، وكان يحس بالشوق إلى النبي حتى وهو معه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر»

قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وقال:



«يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟!».[١٣]

فكان قوله هذا دليلًا على تضحيته بنفسه وبكل ما يملك في سبيل رسول الله ﷺ وفنائه فيه، وتُسمَّى هذي الحال في التصوف مقام «الفناء في الرسول». فقد كان رضي الله عنه كثير الإنفاق والبذل في سبيل الله ورسوله، حتى إنه لمَّا حثَّ رسولُ الله ﷺ أصحابه على الصدقة جاء رضي الله عنه بكل ما عنده. ولمَّا سأله رسول الله ﷺ:

«ما أبقيت لأهلك؟»

قال رضي الله عنه بإيمان راسخ لا يلين:

«أبقيت لهم الله ورسوله».[١٤]

وقد قال معاوية بن أبي سفيان في سيدنا أبي بكر رضي الله عنه:

«أما أبو بكر فلم يُرد الدنيا ولم تُرده».[١٥]

لكن لا بد أن نوضِّح هنا أن تصدُّقَ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه بماله كله وعدم منع الرسول ﷺ إياه عن ذلك أمرٌ استثنائي لا ينطبق على أي مسلم، فقد كان سيدنا أبو بكر وأسرته يتحلون بالصبر الجميل ويتوكلون على الله حق التوكل.

والله تعالى وحده كان عونَ هذَين المُسافِرَين الكريمَين

١٣ ابن ماجه، المقدمة، ١١ .

١٤ أبو داود، الزكاة، ٤٠/ ١٦٧٨؛ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٧٥ .

١٥ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص٨١ .

وملجأهما ومأواهما وملاذهما.

ولمَّا قدِم كفار قريش الغارَ، ما رأوا سوى بيت العنكبوت، ويقول الشاعر في ذلك:

لم يكن العنكبوت في الهواء

ولا في البر، ولا في الماء...

ولكن أمام البصائر المُقفلة

التي لا ترى الحق[١٦]

ووصل الصاحبان الكريمان بحماية الله تعالى ورعايته إلى قُبَاء بالقرب من المدينة، وما إن شرَّفا المدينة التي كان أهلها يترقبونهما شوقًا وتلهفًا، حتى اهتزت المدينة فرحًا وطربًا. وصدحت الحناجر بأنشودة «**طلع البدر علينا**» لتلامس كلماتُها الآذان فتطرب بها، وتزرع السعادة والفرح في القلوب. وكان ذلك في الثاني عشر من ربيع الأول، وصار ذلك التاريخ بداية «**التقويم الهجري**» الذي سيؤرِّخ ما يتلوه من أحداث حتى قيام الساعة.

وغدت المدينة المنورة بعد ذلك اليوم مركزًا ينتشر منه الإسلام في أصقاع المعمورة ويرتقي ويعلو كالشجرة الباسقة، وتساقطت أوراق الكفر اليابسة بهذه الهجرة. وصار للمسجد النبوي ومسجد قباء مكانة سامية في قلوب المسلمين، حتى إن كل ناظرٍ إليهما يذكر

١٦ عارف نهاد آسيا، الأدعية، إسطنبول ١٩٧٣، ص١٢٢ .



تلك الهجرة المباركة إلى قيام الساعة.

وقد آخى رسول الله ﷺ بين أنصار المدينة ومهاجري مكة، وقاسَم الأنصارُ المهاجرينَ أموالَهم وبيوتَهم.

غير أن المهاجرين كانوا أهل قناعة وعزيمة، وخير دليل على ذلك قول عبد الرحمن بن عوف- وكان من المهاجرين- للأنصاري الربيع بن سعد الذي أراد أن يقاسمه كل ما يملك:

«بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق».[١٧]

وبذلك تأسست الأخوة في الإسلام التي لن نجد أخوةً مثلها في التضحية والإيثار.

ودخلت المدينةُ المنوَّرة التاريخَ الإسلامي من أوسع أبوابه، وصارت قبلةً للمسلمين يأتونها من كل حدب وصوب، فكل شيء فيها يميزها عن غيرها من المدائن: الأذان، والصيام، والعيد، والزكاة...



١٧ انظر: البخاري، البيوع، ١ .

بدر وأُحُد والخندق

كانت غزوة بدر أولَ معركة بين الإيمان والكفر، وانتهت بانتصار المسلمين. واجتثَّت هذه الغزوة جذور العصبية القبليَّة الجاهلية، إذ قاتلَ في هذه الغزوة أبو بكر ﵁ ولدَه، وأبو عبيدة بن الجراح ﵁ والدَه، وحمزة ﵁ أخاه. وأنزل الله تعالى جيشًا من ملائكته الكرام مُردِفين في ذلك المشهد الرهيب يقاتلون إلى جنب المسلمين، فكان الملائكة الذين شهدوا بدرًا أفضل من غيرهم وأعز شأنًا.(١٨)

وقد أنزل الله تعالى الآية السابعة عشرة من سورة الأنفال بعد هذا النصر العظيم كي لا يقع المسلمون في الكِبر والعُجب إذ قال سبحانه وتعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١٩)



أما غزوة أُحد التي تلت النصر في بدر ففيها استُشهِد سيدنا حمزة ﵁، واستُشهد في تلك الغزوة سبعون صحابيًّا. وكان يُؤتَى بعشرة شهداء ومعهم سيدنا حمزة ﵁ للصلاة عليهم فيُدفن تسعة ويبقى سيدنا حمزة، ثم يُؤتى بتسعة شهداء إلى جنبه فيصلُّون عليهم

١٨ انظر: البخاري، المغازي، ١١ .

١٩ الأنفال: ١٧ .



ثم يدفن التسعة إلا حمزة، فصلى رسول الله ﷺ بذلك على سيد الشهداء عمه مرة تلو مرة.[٢٠]

وكان يوم أُحد الذي تلا النصر في بدر يومًا بدا الحزنُ فيه على وجوه المسلمين الذين كانوا يحيون دين الإسلام مهما تقلَّبت بهم الحياة وتغيرت أحوالهم، فكانوا في قمة التوكل والتسليم والرضا بالقضاء.

وقد استطاع المشركون الاقتراب من رسول الله ﷺ في غزوة أُحُد التي كانت يوم محنة وابتلاء وتمحيص للمؤمنين، ففي ذلك اليوم العصيب كُسِرت رباعية[٢١] الرسول لما رموه بالسهام والحجارة، وشُجَّ في جبينه المبارك الذي ينير العالَم، وسال الدم من وجهه الشريف وشفتَيه المباركتَين اللتَين تبشِّران البشر أجمعين بالرحمة. ودخلت حلقتان من حلق المِغفَر[٢٢] في وجنته ﷺ. ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي حفرها الفاسق أبو عامر ليقع فيها المسلمون، فأخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيد رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا.[٢٣]

---

٢٠ انظر: ابن ماجه، الجنائز، ٢٨ .

٢١ الرباعية: السِّن بين الناب والأسنان الأمامية.

٢٢ المِغفر: زرَدُ يُنسَج من الدُّروع على قدر الرأس، يُلبَس تحت القَلنسوة.

٢٣ انظر: ابن هشام، جـ٣، ص٢٦-٢٧.

يقول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

لما كان يوم أحد ورمي رسول الله عليه الصلاة والسلام في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر، فأقبلت أسعى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإذا أنا برجل قد اعتنقني من خلفي مثل الطير، يريد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فبدرني قائلاً:

أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني، فأنزعه من وجه رسول الله عليه الصلاة والسلام». فتركته. فأخذ أبو عبيدة بثنيته[٢٤] حلقةَ المغفر فنزعها، وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة. ثم نظر إلى الأخرى فناشدني الله لما أن خليت بيني وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام فانتهزها بالثنية الأخرى، فكان أبو عبيدة أثرم الثنايا[٢٥].[٢٦]

وحزن الصحابة الكرام في ذلك اليوم العصيب حزنًا شديدًا، فقد كانت الأحداث مفجعة. فقال الصحابة الكرام:

«يا رسول الله، ادعُ الله عليهم!»

---

٢٤ الثنية: إحدى الأسنان الأربع التي في مقدَّم الفم، اثنتان من فوق واثنتان من تحت.

٢٥ رجل أثرم: أي به ثرم، وهو سقوط الثنية.

٢٦ الواقدي، جـ١ـ ص٢٤٦-٢٤٧؛ ابن سعد، جـ٣، ص٤١٠؛ الحاكم، جـ٣، ٢٩/ ٤٣١٥؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٣، ص٢٦٣.



فقال عليه الصلاة والسلام:

«إن الله تعالى لم يبعثني طعَّانًا ولا لعَّانًا، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[٢٧]

وروي عن عمر ﵁ أنه قال في رثائه النبي ﷺ مبينًا سمو أخلاقه التي لا يدانيها خلق:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوحٌ على قومه فقال:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [٢٨]

ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فلقد وطِئَ ظهرُك، وأُدمِيَ وجهك، وكُسِرَت رباعيتك، فأبيتَ أن تقول إلا خيرًا، فقلتَ:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».[٢٩]

فتلكم الأحداث والأهوال وقعت في ذلك اليوم الذي ابتُلِيَ فيه المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا...

لقد كان الصحابة الكرام يتَّبعون رسول الله ﷺ في بدر دون قيد أو شرط، وكان دافعهم إلى ذلك حب نبيِّهم ودينهم، فكان مما قالوا:

---

٢٧ انظر: البيهقي، شعب، جـ٣، ص٤٥؛ القاضي عياض، الشفا، جـ١، ص١٠٥ [دار الفكر]؛ مسلم، البر، ٨٧؛ الهيثمي، جـ٦، ص١١٧؛ ابن حبان، جـ٣، ٢٥٤/ ٩٧٣.

٢٨ نوح: ٢٦.

٢٩ القاضي عياض، الشفا، جـ١، ص١٠٥-١٠٦.

«إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كل ما جئت به حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامضِ يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضتَّه لخضناه معك، ما بقي منا رجل».[٣٠]

أما في أُحُد فقد كانت الغفلة عن طاعة أوامر رسول الله عليه الصلاة والسلام، والميل قليلًا إلى متاع الدنيا ومغرياتها سببًا كافيًا في تغير نتيجة الحرب وتأخر النصر، فكان ذلك تحذيرًا من الله تعالى للمسلمين وتنبيهًا لهم. وقد كان لأُحُد مكانة عظيمة في قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام لما عاشوا فيها من تجليات عظيمة. وظلَّ عليه الصلاة والسلام يزور أُحُد وشهداءه طوال حياته. وكان يقول:

«إن أُحُدًا جبل يحبنا ونحبه» [٣١]

لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يُحِب أُحُدًا الذي شهد تلك الأحداث العظام واحتضن ترابُه أولئك الشهداء الكرام محبةً عظيمة، فصار مزارًا تزوره أمته من بعده حتى قيام الساعة.



٣٠ مسلم، جهاد، ٨٣؛ الواقدي، جـ١، ص٤٨-٤٩؛ ابن هشام، جـ١، ص٦١٥.

٣١ البخاري، الجهاد، ٧١؛ مسلم، الحج، ٥٠٤.



وأما غزوة الخندق ففيها عَرَضَ للمسلمين صخرة لا تأخذ فيها المعاول أثناء حفر الخندق، فجاء رسول الله عليه الصلاة والسلام فكسرها بثلاث ضربات مبشِّرًا بفتح الشام في الضربة الأولى، وبفتح فارس في الثانية، وبفتح اليمن في الثالثة، وهو ينظر إلى قصور تلك البلاد.[٣٢] فزرعت بشارة إعلاء كلمة الله ﷻ في تلك البلاد الأملَ في القلوب اليائسة بالانتصارات القادمة، وبشَّرت بتبديد نور الحق ظلامَ الباطل في المستقبل القريب، ووعدَت بالهداية التي تشمل العالَم كله.

لقد كانت غزوة الخندق كالبوتقة التي عانى المسلمون فيها من التعب والنَّصَب والجوع والبرد والظلام، ورسول الله عليه الصلاة والسلام آنذاك يبتهل إلى ربه قائلًا:

«**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار**»[٣٣]

مذكِّرًا إياهم بالآخرة، وأن الدنيا وما فيها من مصائب ومشقات لا قيمة لها أمام الحياة السرمدية الآخرة.



٣٢ انظر: أحمد، جـ٤، ص٣٠٣؛ ابن سعد، جـ٤، ص٨٣،٨٤.

٣٣ البخاري، المغازي، ٢٩.



فتح مكة

وبعد الانتصارات المتتابعة للمسلمين وبشارة صلح الحديبية، فَتحت مكة أبوابها لفلذات كبدها فتحًا روحانيًّا فيه العفو والصلح والأمن والهداية. وبلغ المشتاقون إلى مكة مقاصدهم بعدما عاشوا فيها سنوات مليئة بالظلم والجور والمشقات، وانقلب حزن السنين إلى سرور وحبور. وشهد ذلك اليوم أعظم عفو في التاريخ شكرًا على نعمة الله العظيمة، وفيه تشرف كثيرٌ من الظلمة والقتلة الذين قاتلوا المسلمين قبل الفتح بنور الهداية.

أما الأنصار فقد كانوا في ريب من الأمر بعدما فتح رسول الله ﷺ مكة التي ولد فيها، فقال بعضهم لبعض:

«أما الرجل (يعنون الرسول) فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته».

وجاء الوحي بما قاله الأنصار، فاعترفوا بما قالوا، فقال رسول الله ﷺ:

«كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم» [٣٤]

فكان ذلك وفاءً منه عليه الصلاة والسلام للأنصار. ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة.



---

٣٤ مسلم، الجهاد، ٨٤، ٨٦؛ أحمد، جـ٢، ص٥٣٨.



حجة الوداع

لقد اكتمل الدين المبين في حجة الوداع، وتمت مهمة النبي الكريم المبعوث رحمة للعالمين، وكانت الحجة إشارةً إلى قرب وفاة النبي ﷺ.

وفي خطبة ذلك اليوم قال نور الوجود ﷺ لأصحابه:

«**ألا هل بلغت؟**» ثلاثًا،

ثم رفع يديه إلى السماء وقال ثلاثًا:

«**اللهم اشهد**».

وبذلك أدَّى الأمانة المقدسة التي حملها على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، فظلت رحمةً لأمته حتى قيام الساعة.

وهذا النبي الكريم ﷺ الذي لم يتقلَّد سيفًا من قبل، ولم يتعلم فنون القتال، ولم يشارك في حروب الجاهلية إلا مرةً واقتصرت مشاركته حينها على المشاهدة، صار- على رحمته الواسعة التي عمت البشر جميعا- مقاتلًا لا يتأخر عن أشد المعارك وطيسًاوذلك في سبيل إعلاء راية التوحيد وإصلاح المجتمعات. واستطاع فتح الجزيرة كلها في تسع سنين بجيش كان غالبًا أقل عددًا وعدة من جيش الأعداء. وحقَّق فتوحات عظيمة بالمعنويات العالية التي زرعها في أولئك الذين كانوا من قبل غير منظَّمين، وبفنون القتال التي علَّمهم إياها. فاستطاع من جاء بعده أن يهزموا إمبراطوريتَي



الروم والفرس اللتَين كانتا أعظم إمبراطوريتين آنذاك، فتحقق الوعد وما بشَّر به يوم الخندق.

لقد استطاع النبي ﷺ الذي قاد أعظم ثورة في تاريخ البشرية مع وجود الظروف السلبية أن يُخضِع الظالمين ويواسي المظلومين، وكان الأب الحنون لليتامى والمساكين، فزال الغم والهم والكدر من القلوب، فقد كان ﷺ منبع الشفاء ومصدر السلوى والعزاء.

ولولا ولادة رسولُ الله ﷺ الذي جمع الفضائل كلها، لظلَّ البشر يعانون من الظلم والتوحش حتى قيام الساعة، ولصارَ الضعفاء أسرى الأقوياء، ولرجحت كفة الميزان لأهل الشر، ولأمسَت الدنيا في يد الظالمين والمتجبِّرين.



أشدُّ فِراق وأعظم وصال

لقد غزا رسول الله ﷺ تسعا وعشرين غزوة وأرسل واحدًا وتسعين سريَّة. وتجذَّرت شجرة الإسلام بفتح مكة، واكتمل الدين المبين بنزول قوله سبحانه وتعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٣٥)

فآنَ أوان أشد فراق وأعظم وصال.

---

٣٥ المائدة: ٣.

وزار حبيب الله ﷺ مقبرةَ البقيع، واستغفر لأهلها قبل يوم من مرضه،[٣٦] فكأنه بذلك ودَّع الأموات. وبعد أن رجع من البقيع خطب في الصحابة ووصَّاهم وصاياه الأخيرة، ثم قال:

«إن الله خيَّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»[٣٧]

ففطن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ذو القلب الرقيق أنه ﷺ يودِّعهم، فحزن أشد الحزن، وبدأت الدموع تنهمر من عينيه، وقال:

«بأبي أنت وأمي، بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا»[٣٨]

فلم يفطن أحد من القوم إلا هو رضي الله عنه، كيف لا وهو رضي الله عنه مَن ذكره سبحانه وتعالى في قوله:

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾[٣٩]

فلما رأى الصحابة صاحب النبي ﷺ يبكي، قال بعضهم لبعض:

«ما يُبكي هذا الشيخ إن يكن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله!»[٤٠]

---

٣٦ انظر: أحمد، جـ٣، ص٤٨٩.

٣٧ البخاري، الصلاة، ٨٠.

٣٨ أحمد، جـ٣، ص٩١.

٣٩ التوبة: ٤٠.

٤٠ البخاري، الصلاة، ٨٠.

لقد أحسَّ قلبُ سيدنا أبي بكر ﷺ الرقيقُ الوداعَ والفراق، فشرعَ يبكي كالشاكي من البُعد والافتراق.

وقد حزنت السيدة فاطمة ﷺ سيدة نساء الجنة بوفاة أبيها الكريم نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام حزنًا شديدًا، حتى إنها أخذت قبضة من تراب قبره الشريف، وشمَّته، ووضعته على عينها ثم أنشأت تقول:

مَاذَا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدَ   أَلا يَشُمُّ مَـدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبُ لَوْ أَنَّهَا   صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا.[٤١]

لقد ترك رسول الله عليه الصلاة والسلام أمانتَين عظيمتَين لن نضل ما إن تمسكنا بهما: القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ فهما دليل السعادة في الدنيا والآخرة، وإرث من نور الوجود يدوم إلى اليوم الموعود.

وانتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى «الرفيق الأعلى» بعد ثلاثة عشر يومًا من رجوعه إلى المدينة عانى فيها من مرض شديد، وكانت وفاته يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ للهجرة الموافق للثامن من حزيران سنة ٦٣٢ م.

---

٤١ ابن سيد، عيون الأثر، جـ٢، ص٤٠٩؛ القسطلاني، جـ٣، ص٥٨٢؛ الدياربكري، جـ٢، ص١٧٣.



ولما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى دار القرار، لم يرَ الصحابة أي تغيُّر في وجهه المبارك حتى إنهم شكُّوا في موته. فخرجت من بينهم أسماء بنت عميس ﵂ فوضعت يدها بين كتفي النبي عليه الصلاة والسلام، وقالت:

«قد توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام، قد رفع الخاتم من بين كتفيه» [٤٢]

ذلك الخاتم الذي كان كثير من الصحابة الكرام يودون لو أنهم استطاعوا تقبيله.

لقد اكتمل الدين، وأقر الصحابة أنه عليه الصلاة والسلام قد بلَّغ ما كُلِّف به، وشَهِد الله تعالى على ذلك، ثم دُعِيَ نور الوجود إلى دار الخلود.

وسيرتقب عليه الصلاة والسلام أمتَه في المحشر والصراط وعند الحوض، فنسأل الله العلي القدير أن يشفع لنا حينها.



لقد وُلد رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول فأشرقت الدنيا بولادته.

---

٤٢ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص٢٧٢؛ ابن كثير، البداية، جـ٥، ص٢٤٤. «دار الفكر»

وكلَّفه الله سبحانه وتعالى بالنبوة يوم الاثنين.

عن أبي قتادة الأنصاري ﵁، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عن صوم يوم الاثنين؟ قال:

«ذاك يوم ولدت فيه، ويومٌ بعثت- أو أنزل عليَّ- فيه» (٤٣)

وفي صباح الاثنين دخل النبي ﷺ المدينةَ، فأقام في ذلك اليوم أساس دولة الإسلام الناشئة التي ستبقى حتى قيام الساعة.

ويوم الاثنين توفي عليه الصلاة والسلام وانتقل إلى جوار ربِّه.

عن ابن عباس ﵄ قال:

«وُلِدَ النبي عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين، واستُنبِىءَ يوم الاثنين، وتُوفِّيَ يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين، وفتح بدرًا يوم الاثنين، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾** (٤٤)» (٤٥)

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون ولادته عليه الصلاة والسلام ونبوَّته وهجرته وارتحاله يوم الاثنين، فكان ذلك دليلًا

---

٤٣ مسلم، الصيام، ١٩٧-١٩٨/ ١١٦٢.

٤٤ المائدة: ٣.

٤٥ أحمد، جـ١، ص٢٧٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ص١٩٦.



على قدسية هذا اليوم وأهميته. واختلطت المسَرَّة والسعادة بالكآبة والحزن تجليًا من تجليات رب العزة الجمالية والجلالية، وامتزجت في القلوب نشوة الوصال بألم الفراق.

ويعبِّر حضرة الشيخ عزيز محمود هدائي عن غدر الدنيا التي صارت محرومة من رسول الرحمة ﷺ بعد انتقاله إلى دار الجنان بقوله:

مَن ذا الذي يأمل منكِ الوفاء؟

ألستِ الدنيا الكاذبة؟

ألست من أخذتِ محمدًا المصطفى؟







سيرته الأسوة
ومكانته بين الأنبياء



قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(الأحزاب: ٢١)



السيرة الأسوة لنبيِّ الرحمة

إن سيرة رسول الله ﷺ أسوة كاملة لكل إنسان:

فهو ﷺ أسوةٌ بزعامته الدينية، وأسوةٌ بقيادته دولته، وأسوةٌ لمن يعتصم بحبل محبة الله ﷻ، وأسوةٌ بتواضعه وشكره في أوقات تنعُّمه بنعم ربه.

وأسوةٌ بصبره وتسليمه في الأيام الشِداد والمصائب الجِسَام، وأسوةٌ بكرمه واستغنائه وعزة نفسه أمام الغنائم والهبات، وأسوةٌ برأفته بأسرته، وأسوةٌ برحمته بالعبيد والضعفاء والمساكين، وأسوةٌ بعفوه وصفحه عن المجرمين:

فإن كنت غنيًّا ذا مُلكٍ ومال، فتفكَّرْ في كرم ذلك النبي العظيم الذي حكَم الجزيرة كلها، وأخضع معظم زعماء قبائل العرب بمحبته!

وإن كنت من الرعية الضعفاء، فتأسَّ بحياة النبي الذي عاش في مكة تحت ظلم المشركين واضطهادهم!

وإن كنت فاتحًا مظفَّرًا، فاعتبِرْ بحياة النبي الجَّسور الراضي الذي غلب أعداءه في بدر وحنين!



وإن كنت ممن حاقَت بهم الهزيمةُ- نسأل الله تعالى السلامة- فتذكَّرْ النبي المتوكل الذي طاف على أصحابه الجرحى والشهداء يوم أُحُد بشجاعة وثباتٍ ومتانة!

وإن كنت معلِّمًا، فاذكرْ النبي الذي كان يعلِّم أصحاب الصُّفَّة في المسجد أمور دينهم بقلب رقيق حساس رهيف!

وإن كنت طالبًا، فتخيَّلْ النبي الذي كان يجلس أمام جبريل الأمين الذي يدارسه القرآن الكريم!

وإن كنت مرشدًا أمينًا وواعظًا حقًّا، فاستمع- بأذن صاغية واعية- إلى النبي الذي كان يوزِّع الحكمة على أصحابه في مسجده!

وإن كنت تريد أن تدافع عن الحق وتبلِّغه وتنطق به، ولم يكن أحد يعينك في هذا الشأن؛ فانظر في حياة النبي الذي نطقَ بالحق أمام مشركي مكة والظالمين فيها ودعاهم إلى الإيمان ولم يكن له فيها مُعين.

وإن هزمت عدوَّك وقصمت ظهره، وأزلتَ عناد خصمك وانتصرت عليه، وأظهرت الحق وأزهقت الباطل؛ فلا يغيبنَّ عن ذهنك النبيُ القائد الذي طأطأ رأسه وهو على ناقته تواضعًا وشكرًا لله سبحانه وتعالى يوم فتح مكة!

وإن كانت لك بساتين وتريد أن يعمَّ الخير فيها، فاقتدِ بالنبي الذي اختارَ رجالًا يُصلحُون أراضي بني نضير وخيبر وفدك بعد أن ملكها، كي يديروها على أفضل صورة!



وإن لم يكن أحدٌ بجنبك، فاذكرْ ذلك اليتيم البريء النيِّر الوجه فلذة كبد عبد الله وآمنة وقرة عينهما!

وإن كنت شابًّا، فعليك بحياة الشاب المختار للنبوة الذي كان يرعى أغنام عمه أبي طالب في مكة!

وإن كنت تاجرًا تخرج بقوافلك التجارية، فتأمَّلْ- يرعاك الله- أحوالَ ذلك الرجل المبارك الذي كان أعظم الرجال في القافلة التجارية المتجهة إلى بصرى الشام!

وإن كنت قاضيًا وحاكمًا، فأمعِن النظرَ في السلوك العادل النابع من فراسة النبي ﷺ أثناء وضع الحجر الأسود في الكعبة بعد أن كاد زعماء مكة يقتتلون فيما بينهم!

وارجع بنظرك إلى التاريخ كرَّةً أخرى، وانظر إلى ذلك النبي الذي كان حكَمًا بين الناس في مسجده في المدينة فَعدَلَ، حين تساوى في نظره الفقير المعسور والغني الميسور!

وإن كنت زوجًا، فدقِّق النظرَ في سيرة ذلك الزوج المبارك زوج السيدة خديجة والسيدة عائشة، وفي مشاعره المرهفة، ورأفته بأهله!

وإنت كنت أبًا، فتعلَّمْ أحوالَ والد فاطمة الزهراء وجدِّ الحَسَنَين ومعاملته إياهم!

ومهما كانت صفتك، ومهما كانت أحوالك، فستجد النبي ﷺ صباحَ مساءَ وفي كل وقت وحين أعظمَ مرشد لك وخير دليل...



فهو هادٍ تستطيع بالاستِنان بسنته أن تصوِّبَ أخطاءك، وتصلح أحوالك وترجع أعمالك إلى الطريق الصحيح، وستتغلب على عوائق حياتك، وتجد السعادة الحقيقية بنوره وإرشاده.

فنفهم من هذا كله أن حياة رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ أيًّا كان موقعك وحالك في المجتمع. والمراحل التي عاشها نبينا ﷺ طوال حياته لا بد أن يجد فيها كلُّ مَن تقلَّبت به الحياة حلًّا وسلوكًا يخرجه مما هو فيه. لذا فإن حياته عليه الصلاة والسلام أكمل قسطاس فعلي للناس جميعًا مهما اختلفت مواقعهم ومقاماتهم.

ولَعَمري إن سيرته العطرة كباقة من الورود النادرة المختلف ألوانها وروائحها، فكل إنسان يجد في سيرته عليه الصلاة والسلام أجمل سلوك وأفضل معاملة فيتخذها أسوة حسنةً له.



وإن أنت نقَّلت ناظرَيك حيثما شئت في هذي الأرض فرأيت عدلًا يدوم بين الناس، أو رحمة ورأفة تربط قلوب البشر بعضها بعضًا، أو وجدت الأغنياء في مجتمع يسارعون إلى عون الفقراء وقضاء حاجاتهم، والأقوياء يحمون الضعفاء والمظلومين، والأصحَّاء يعينون العاجزين، والأثرياء يرعون اليتامى ويطعمون الأرامل والمساكين؛ فاعلم يقينًا أن الفضائل هذه كلها تنبع كل حين من الأنبياء، ومن سار على دربهم من الصالحين الأتقياء.



وهذه الحقيقة تراها على أجلى صورها في حياة رسولنا محمد ﷺ، فهو خير الأنبياء والمرسلين؛ حتى إن المنصفين من غير المسلمين لم يجدوا مفرًّا من الاعتراف بكماله وفضله وتقديره.

فالكاتِب الإنجليزي توماس كارليل وضع في كتابه (الأبطال) أرقى النماذج البشرية في التاريخ البشري، وحلَّل في كل مجال حياة أفضل رجل وآثاره، فذكر فيه مَن الذي يستحق البطولة في الشِعر، أو الحُكم، وغيرها من مجالات الحياة... وقد ذكر هذا النصراني الذي لم يُخفِ نصرانيته في كتابه أن البطلَ نبيًّا إنما هو سيدنا محمد ﷺ بعد أن حلَّل شخصيته ودرس حياته.

ولمَّا اجتمع رجال العلم والفكر في مدينة لاهاي في هولندا أواسط القرن الماضي، واختاروا مئة من العظماء الذين أثَّروا في حياة البشر، لم يجدوا مناصًا من اختيار سيدنا محمد الأول على رأس قائمتهم مع أنهم كانوا جميعًا نصارى.

فالفضيلة الحقيقية هي التي تُجبِر العدو أيضًا على الاعتراف بها وتصديقها، وفضيلة سيدنا محمد ﷺ اعترف وأقر بها حتى من لم يؤمنوا به...

لأن الأخلاق الفاضلة الكاملة التي تحيط بكل جوانب الحياة قد اجتمعت كلها في سيرة النبي الكريم محمد ﷺ. والسيرة الأسوة التي ترشد الناس في صفحات حياتهم كلها- على اختلاف أحوالهم- إنما هي سيرته ﷺ وحدها؛ فهو الركيزة الأساسية في تعليم الناس



على هذه الأرض، وهو المرشد الوحيد للبشر كلهم. وهو من ينير درب المُستنيرين، بهديه الذي يستنير به كل من يبحث عن الصراط المستقيم.

وأما حلقة إرشاده فقد كانت مدرسةً تجمع كل طوائف الناس؛ إذ كانوا يجتمعون عنده على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبقاتهم، وتنوع ثقافاتهم وأحوالهم الاجتماعية. ولم يُذكَر أن مُنع أحد من حضور تلك الحلقة. ولم تكن حلقَته ﷺ مخصوصة لقوم دون غيرهم، بل كانت مائدة علم وعرفان تستضيف الإنسان لإنسانيته فقط، ولم يكن فيها فرق بين القوي والضعيف أو الغني والفقير، بل كان كلهم سواء هناك.

وانظروا إلى أتباع سيدنا محمد ﷺ، تجدون بينهم النجاشي ملك الحبشة، وفروة بن عمرو الجذامي زعيم معان، وذو الكلاع فيروز الديلمي زعيم حمير، ومركبود من زعماء اليمن، وعبيد وجعفر من ولاة عُمان.

وإن نظرنا مرة أخرى نجد إلى جانب هؤلاء الزعماء الأقوياء، الضعفاء والعبيد أمثال بلال، وياسر، وصهيب، والخباب، وعمار، وأبو فكيهة؛ والإماء مثل سمية، ولبانة، وزنيرة، والنهدية، وأم عبيس.

وكان من بين أصحابه العظماء صحابةٌ يتصفون برجاحة العقل، وقوة الفكر، وصواب الرأي، واقفين على أدق الأمور، ومطَّلعين على أسرار الدنيا، وقادرين على إدراة البلاد بحكمة وعدل.

لقد حكم أتباع سيدنا محمد ﷺ المدن والولايات، فعاشوا مع المحكومين في إطار الأخوة، ووصل الناس بفضلهم إلى السعادة ونَعِموا بالعدل، ونشروا بين الناس السلام والأمن..

وها هوَ الفيلسوف الفرنسي لافاييت الذي كان ممن وضعوا الأسس الفكرية للثورة الفرنسية- وذلك قبل الإعلان المشهور عن «حقوق الإنسان»- يدقِّق في أنظمة الحقوق كلها ويقلِّب فيها فيرى عظمة الحقوق الإسلامية ليصيح قائلًا:

«يا محمد، لم يبلغ أحدٌ الدرجةَ التي وصلْتَ إليها في نشرك العدل!».[٤٦]



لقد استطاع رسول الله ﷺ بتربيته الطاهرة وتأثيره وسحر بيانه أن يُنبِتَ من تربة المجتمع الجاهلي المتوحش- الذي لا يعرف أكثره الإنسانية- جيلًا من «الصحابة» لم يكن مثله جيل، وسيبقى خير جيل في تاريخ البشر حتى قيام الساعة، وجمعهم ﷺ ووحَّد دينهم ورايتهم وحقوقهم وثقافتهم وحضارتهم وحكمهم.

وجعل من الجاهل متعلِّمًا، ومن الوحشي متحضرًا، ومن المجرم تقيًّا؛ أي جعل كل واحد منهم صالحًا يحيا بخشية الله تعالى ومحبته.

لقد ظلَّ رسول الله ﷺ يحيا حياة التواضع التي كان يحياها في ماضيه دون أن يغتر بأي من نِعَم الدنيا التي بُسِطت تحت قدمَيه

---

٤٦ ميراث، ترجمة تجريد الصريح، جـ٩، ص٢٨٩.



الشريفتَين، مع أنه ملَكَ من القوة والسلطة ما لن يقدرَ على مُلكِه أحدٌ من الملوك في وقت قصير؛ لا بل ملَكَ القلوب حين ملأها بمحبته وربَّاها خير تربية. وبقي يعيش حياة الفقراء البسيطة في حجرته المتواضعة المصنوعة من الطوب كما كان في الماضي دون أن تغيِّره الأيام، ونام على وسادة مصنوعة من أوراق النخيل، ولبس البسيط من اللباس، وعاش حياة الفقراء بل أدنى منها، وكان في بعض الأوقات لا يجد ما يأكله فيضع حجرًا علي بطنه كي يُسكِّن جوعه، وظل يشكر ربه ويبتهل إليه مع أن الله ﷻ قد غفر له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر.

وكان عليه الصلاة والسلام يقوم الليل ويصلي حتى تنتفخ قدماه، ويعين الغرباء، ويواسي اليتامى والمساكين، وكان ينشغل- بنفسه- بأعجز الناس على كِبَرِ شأنه، حتى إنه كان يحميهم ويرعاهم برأفته ورحمته الواسعة.

ويوم فتح مكة كان أقوى الرجال وأعظمَهم هيبة في نظر الناس، فجاءه رجل يكلِّمه، فجعل ترعُدُ فرائِصُه خوفا، فقال له النبي ﷺ:

«**هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**[٤٧]». [٤٨]

---

٤٧ القديد: لحم مقطَّع مُملَّح مجفَّف في الشمس.

٤٨ ابن ماجه، الأطعمة، ٣٠؛ الحاكم، جـ٣، ٥٠/ ٤٣٦٦؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٥، ص٦٩.

وفي ذلكم اليوم جاء صاحبه في الغار أبو بكر ﷺ يحمل أباه الشيخ على ظهره كي يُسلِم، فقال له النبي ﷺ:

«ألا تركت الشيخ في بيته حتى نأتيه؟» (٤٩)

فضرب بتلك المعاملات أمثلةً في التواضع لا نجد لها مثيلًا في تاريخ البشر.



وخضعت القبائل كلها لحكمه طوعًا، وصار الحاكمَ على الجزيرة العربية كلها. وكان عليه الصلاة والسلام قادرًا على فعل ما يشاء، لكنه ظلَّ متواضعًا معلِّمًا الناسَ أنه لا يملك شيئًا، وأنَّ الملك كله لله وحده. وكانت بين يديه ثروة عظيمة، إذ تدفقت الأموال إلى المدينة المنورة على ظهور الإبل، فوزعها كلها على المحتاجين وبقي يعيش كما عاش في سالف الأيام. وكان يقول عليه الصلاة والسلام:

«لو كان لي مثل أُحُد ذهبًا ما يسرني أن لا يمر عليَّ ثلاث، وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدَين» (٥٠)

وكانت تمضي الأيام ولا تُوقَد نارٌ للطعام في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان كثيرًا ما ينام وهو جائع.

---

٤٩ الهيثمي، جـ٦، ص١٧٤؛ ابن هشام، جـ٤، ص٢٥؛ ابن سعد، جـ٥، ص٤٥١.

٥٠ البخاري، الاستقراض، ٢؛ مسلم، الزكاة، ٣١.



ودخل سيدنا عمر ﵁ مرةً حجرةَ النبي ﷺ، فلما نظر فيها وجدها فارغة؛ ويحدثنا عن ذلك فيقول:

«وإنه- أي رسول الله- لعلَى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم[٥١]، حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظًا [٥٢] مضبورًا [٥٣]، وعند رأسه أُهُبًا [٥٤] معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ».

فكانت تلك ثروة رسول الله ﷺ حينما كانت الجزيرة العربية خاضعة له، فلمَّا رأى سيدنا عمر ما رآه بكى، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:

«**أما ترضى أن تكون لهما الدنيا، ولك الآخرة**»[٥٥]



وعن عبد الله بن مسعود ﵄ قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال:

٥١ أَدَم: جلد مدبوغ.

٥٢ القَرَظُ: ورق السلم يدبغ به وقيل قشر البلوط.

٥٣ مضبورًا: مجموعًا.

٥٤ أُهُب: جمع إهاب وهو الجلد قبل الدباغ.

٥٥ مسلم، الطلاق، ٣١؛ البخاري، النكاح، ٨٣.



«ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ ثم راح وتركها» [٥٦]

لقد كانت حياته عليه الصلاة والسلام أسوةً حسنةً لكل أفراد أمته؛ غنيِّهم وفقيرهم، وقويِّهم وضعيفهم.

ولما توفي لم يترك وراءه درهمًا ولا دينارًا، ولا عبدًا ولا شاة... بل كل ما تركه بغلته وسلاحه وأرض فَدَك التي أوقفها.[٥٧] أي لم يترك عليه الصلاة والسلام لأهله شيئًا، حتى إنه حرَّم على آل بيته أخذ الزكاة خشيةً مِن أن يُنفِق المسلمون زكواتهم كلها على آل بيته.[٥٨]

وعن عائشة ﵂ قالت موضحةً البركةَ في ما تركه رسول الله ﷺ:

«توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ، فكِلْتُه ففَنِي»[٥٩]

وما ذكرناه هنا دليل واضح على أننا لم نجد ولن نجد قائدًا فذًّا يُقتدَى به مثل هذا النبي الأمي الذي وُلِد في عصر الجاهلية قبل ما يزيد على ١٤٠٠ سنة.

٥٦ الترمذي، الزهد، ٤٤/ ٢٣٧٧؛ ابن ماجه، الزهد، ٣.

٥٧ انظر: البخاري، المغازي، ٨٣.

٥٨ انظر: البخاري، الزكاة، ٥٧؛ البيوع، ٤؛ مسلم، الزكاة، ١٦١، ١٦٤؛ أحمد، جـ١ـ ص٢٠٠.

٥٩ البخاري، الخمس، ٣.



ولم يرغب النبي ﷺ قطُّ في هذه الأشياء الدنيوية الخدَّاعة مثل الغنى والترف، والمُلك والشهرة، والسعة والراحة؛ إذ كانت أموال الدنيا وعظمتها لا تساوي في ميزانه شيئًا أمام إعلاء كلمة الله ﷻ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

دخلت امرأة من الأنصار عليَّ، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءةً مثنية، فانطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه صوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا؟**» قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت بهذا، فقال: «**رُدِّيه**»، فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال:

«**والله يا عائشة لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة**». (٦٠)

وهذا الحديث وحده يكفي دليلًا على أن رسول الله ﷺ لم يجعل للدنيا في قلبه أينصيب.

ومن أميز خصاله ﷺ إلى جانب هذه الخصال الحميدة التي ذكرناها محبتُهُ العظيمة لأمته، وأوضح دليل على هذا قول الله ﷻ:

﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (٦١)

٦٠ ابن سعد، جـ١، ص٤٦٥؛ أحمد، الزهد، ص٧٦.

٦١ التوبة: ١٢٨.

إن شخصية رسول الله ﷺ المباركة كالجزء الذي يُرَى من الجبل الجليدي في عرض البحر، فشخصيته بمظاهرها التي يُدركها العقل البشري وحدها إنما هي ذروة منظومة السلوك البشري التي لا يبلغها إنسان بعده؛ ذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق هذا المخلوق المبارك كي يكون «**أسوةً حسنةً**» للناس أجمعين، فجعله يحيا «**طفولة يتيمة**»، وتلكم أدنى مستويات العجز في المجتمع البشري، ثم رقَّاه في مراحل الحياة درجةً درجةً إلى أن رفعه إلى أعلى درجة من القدرة والسلطة حينما جعله نبيًّا لأمته وقائدًا لدولته، وكل ذلك كي لا يكون على أي امرئ حرجٌ في الاقتداء بكمال سلوكه وحسن معاملاته، فيميل إلى ذلك على قدر طاقاته وقدرته.

واسم «**محمَّد**» اليوم من أكثر الأسماء انتشارًا في الأمة الإسلامية، وذلك برهان جليٌّ على حُبِّ الأمة لنبيها الكريم، لعلهم يرون في كل محمدٍ خصالًا من نبيهم محمد ﷺ.



لم يكن سيدنا محمد ﷺ كمَن يدَّعون إرشاد البشر لا سيما الفلاسفة، فمُذ وُلِدَ ﷺ كان كاملًا في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته كلها بعون من الله تعالى وتأييد، لا كغيره حينما يبني شخصيته ويكملها شيئًا فشيئًا. فقد ظهرَ منه ﷺ- حتى في طفولته- كمالُ السلوك الذي أجلَى قدرَتَه على حمل المسؤولية العظيمة التي سيُكلَّف بها في المستقبل.



أما الفلاسفة الذين لم تتربَ عقولهم بالوحي، فقد بقيت الأفكار والأصول- الإيجابية أو السلبية- التي وضعوها تحت اسم الأخلاق والإصلاح الاجتماعي محصورةً أكثرها بين سطور الكتب، وأما التي نجت فرأت النور فلم تعمِّر طويلا، ذلك أن الفلاسفة لم تكن لهم مهمة عامة مثل مهمة النبوة.

ولم تُطبَّق الأمثلة الفعلية للمبادئ التي وضعها الفلاسفة من أجل كمال السلوك البشري لا في حياتهم ولا في حياة غيرهم، أما أفعال النبي التي هي قسطاس فعلي للسلوك الأخلاقي فقد كانت قدوة كاملة للبشر.

فالفيلسوف نيتشه- على سبيل المثال- قد ملأ الكتب بنظريته عن «**الإنسان الأعلى**» غير أنه لم يمثِّل لهذا المفهوم بسلوك فعلي في الحياة، فبقيَ مجرد نظرية بعيدة عن التطبيق.

وإن كان حديثنا عن الأخلاق، فهاكَ أرسطو- وهو من كبار الفلاسفة- قد وضع الأسس لمجموعة من القواعد والقوانين لفلسفة الأخلاق، لكنَّا لا نجد أي امرئ قد وصل إلى السعادة بإيمانه بتلك الفلسفة المنفصلة عن الوحي الإلهي. لأن الفلاسفة لم يطهروا قلوبهم، ولم يزكوا أنفسهم، ولم تنضج أفكارهم وأفعالهم بتأييد من الوحي، لذلك ترى اليوم أن نظرياتهم وأفكارهم لم تخرج من صالات المؤتمرات أو سطور الكتب.



أما في الأخلاق الإسلامية، فقد كان رسول الله ﷺ هاديًا لجميع البشر إلى يومنا هذا، لا بل سيبقى كذلك حتى قيام الساعة، فأفعاله ﷺ كانت تمثِّل ذروة النضج في السلوك البشري كله.

وقد أحبَّ الناس النبي ﷺ قبل أن يبدأ بتبليغ الرسالة، ولم تترك شخصيته الكاملة بُدًّا للناس من وصفه بـ «**الصادق الأمين**». وقد شرَعَ يبلِّغ الدين بعد أن ثبتت في أذهان الناس شخصيته تلك، فكانت حجَّةً على من أبَى تصديقه.

لقد عرف أهل مكة سجاياه الفاضلة وحسنها وطيبها قبل أن يُكلَّف بالنبوة فأحبُّوه. وحينما اختصموا على وضع الحجر الأسود أثناء إعادة بناء الكعبة، خضعوا دون اعتراض لحُكمِه.

وكان نبينا ﷺ يتجنَّب الظلمَ والجور في الجاهلية. والحلف الوحيد الذي حضره قبل تكليفه بالنبوة كان «**حلف الفضول**»، فقد كان حلفًا للعدل بين قبائل قريش تعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهْلها أو من غيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه وكانوا على مَن ظلمه حتى تُرَدَّ مَظلمَتُه. فكان هذا الاتفاق على منع الظلم والجور يَسُرُّ رسولَ الله ﷺ وقال عنه بعد النبوة:

«**لقد شهدت مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإسلام لأجبت، وما أحبُّ أن أنكثه وإن لي حُمُر النعم**»[٦٢]

٦٢ ابن كثير، البداية، جـ٢، ص٢٩١.



إن ما استعرضناه من مظاهر العدل والرحمة والرأفة في حياة رسول الله ﷺ وغيرها إنما هي قدوةٌ حسنةٌ للبشر جميعًا حتى تقوم الساعة. ولن تستطيع أي بصيرة منصفة رأت النور البرَّاق الذي يشِعُّه ذلك المصباح المبارك إلى العالَم أن تنكر حقيقته البتة. فكم من عالِم فذٍّ لم يؤمن بسيدنا محمد ﷺ ولكن أجبره عقله السليم على الإقرار بفضيلته ونجاحه وبراعته؛ ومن هؤلاء توماس كارليل الذي قال فيه:

«ولادته كانبثاق النور من الظلام».

«لم يرَ أي إمبراطور الاحترامَ والتبجيل الذي رآه محمد الذي كان يلبس الثوب بعد أن يرقِّعه بيده».

أما السير موير فقال:

«لم يكن أي زمان أصعب وأشد على إصلاح البشر من الزمان الذي بُعِثَ فيه محمد، غير أننا لا نعلم إصلاحًا أو نجاحًا أعظم وأكمل من الإصلاح والنجاح الذي تركه محمد بعد وفاته».

ومما ذُكِر في موسوعة بريتانيكا تصديقًا لفضيلة نبينا:

«لن يصل نبيٌّ أو رجل دين مصلح إلى النجاح الذي وصل إليه محمد قط».

ويقول بوسورث سميث:

«إن محمدًا أعظم مصلح قطعًا وإجماعًا».



ويعترف ستانلي لين بول بالحقيقة التالية:

«إن اليوم الذي هزمَ فيه محمد أعداءه هزيمةً ساحقةً هو نفسه اليوم الذي فاز فيه بأعظم فضيلة؛ فقد عفا في ذلك اليوم عن قريش دون مقابل، وشمل بعفوه أهلَ مكة كلهم».

ويقول آرثر غيلمان:

«إننا نرى سموه وفضله في فتح مكة، إذ كان من الممكن أن يُساقَ بتأثير الظلم الذي رآه في الماضي إلى الانتقام من قوله، لكن محمدًا جنَّب جيشه إزهاق الدماء، ورأف بالناس وشكر الله».



إقرار المشركين بسيرته الأسوة

لقد نال رسول الله ﷺ ثقةَ العرب في الجاهلية، حتى إن ألدَّ أعدائه أبا جهل قال له:

«يا محمد إنا لا نكذِّبك، وإنك عندنا الصادق، ولكن نكذِّب ما جئت به» (٦٣)

وحتى أشدُّ خصومه عليه الصلاة والسلام لم يرفضوا ما جاء به إلا لأهوائهم ورغبات نفوسهم، مع أنهم كانوا يقبلون أن ما جاء به رسول الله هو الحق.

٦٣ الترمذي، التفسير، ٦/ ٣٠٦٤؛ الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص٢١١.



يقول الله تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٦٤]



لما انتصر قيصرُ الروم على فارس في المدة التي كانت بعد صلح الحديبية، مشى من حمص إلى إيلياء- القدس- على الزرابي تبسط له، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ، قال حين قرأه:

التمسوا لي من قومه من أسأله عنه.

وقد كان أبو سفيان آنذاك بالشام في رجال من قريش قدموا تجَّارًا. قال أبو سفيان:

فأتاني رسول قيصر فانطلقَ بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء، فأُدخِلنا عليه فإذا هو جالس في مجلس ملكه عليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم، فقال لترجمانه:

سَلْهم أيهم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قال أبو سفيان: أنا أقربهم إليه نسبًا، قال: ما قرابتك منه؟ قلت: هو ابن عمي، قال أبو سفيان: وليس في الركب يومئذ رجل من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أَدْنُوه مني. ثم أمر بأصحابي، فجُعِلُوا خلف

---

٦٤ الأنعام: ٣٣.



ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذَبَ فكذِّبُوه. قال أبو سفيان:

فوالله لولا الاستحياء يومئذ أن يَأْثُر أصحابي عني الكذب لكَذَبْتُه حين سألني، ولكني استحيت أن يؤثروا عني الكذب فصَدَقته عنه.

ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه في الكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من مَلِك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: فيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة ونحن نخاف ذلك.

قال أبو سفيان ولم تُمكِنِّي كلمةٌ أُدخِلُ فيها شيئًا أنتقِصه به غيرها لا أخاف أن يؤثَر عني.

قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم، قال: كيف كانت حربكم وحربه؟ قلت: كانت دولًا سِجالًا نُدالُ عليه المرة ويُدَالُ علينا الأخرى، قال: فبمَ يأمركم؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.



قال: فقال لترجمانه حين قلت له ذلك: قل له إني سألتك عن نسبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟ فزعمت أن لا، فقلتُ: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت رجل يأتمُّ بقول قيل قبله.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ﷻ.

وسألتك هل كان من آبائه من مَلِك فزعمت أن لا، فقلت لو كان من آبائه مَلِك قلت رجل يطلب مُلكَ آبائه.

وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك هل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب لا يسخطه أحد.

وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا، وكذلك الرسل.

وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه يكون دُولًا يُدالُ عليكم المرة وتُدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبتَلَى ويكون لها العاقبة.



وسألتك بماذا يأمركم فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ﷻ وحده لا تشركوا به شيئًا وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصدق والصلاة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم، فإن يكن ما قلت فيه حقًّا، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، والله لو أرجو أن أخلص إليه لتجشَّمتُ[٦٥] لُقِيَّهُ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

قال أبو سفيان ثم دعا بكتاب النبي ﷺ، فأمر به فقُرِئ فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام،أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسِيِّين[٦٦].

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٦٧]».

---

٦٥ تجشَّم: تحمَّل مشقَّته.

٦٦ المراد بالأريسيين الأتباع من أهل مملكته وهي في الأصل جمع أريسي وهو الحارث والفلاح.

٦٧ آل عمران: ٦٤.



قال أبو سفيان: فلما قضى مقالته، علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم، فلا أدري ماذا قالوا، وأُمِرَ بنا فأُخرِجْنا. قال أبو سفيان: فلما خرجت مع أصحابي وخلصت لهم قلت لهم: أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة[٦٨]، هذا ملك بني الأصفر يخافه.

قال أبو سفيان: فوالله ما زلت ذليلًا مستيقنًا أن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره.

فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة[٦٩] له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقَت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتُبايعُوا هذا النبي؟ فحاصوا [٧٠] حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه.[٧١]

---

٦٨ ابن أبي كبشة: أبو كبشة هو رجل من قبيلة خزاعة خالف قومه في عبادة الأصنام، فأراد المشركون أن يشبِّهوا سيدنا النبي ﷺ بهذا الرجل، فكانوا يسمُّونه ابن أبي كبشة. وقيل أن أبو كبشة أحد أجداد رسول الله ﷺ من أبيه أو أمه، أو كان لقب زوج مرضعته.

٦٩ قصر حوله أو فيه منازل للخدم وأشباههم.

٧٠ حاص القوم: جالوا جولة يطلبون الفرار والهرب.

٧١ البخاري، بدء الوحي، ١، ٥-٦؛ الإيمان ٣٧، الشهادات ٢٨، الجهاد ١٠٢؛ مسلم، الجهاد، ٧٤؛ أحمد، جـ١، ص٢٦٢.

لقد رأى إمبراطور بيزنطة هرقلُ نعمةَ الإسلام التي جاءت إلى يديه، وفَهِمَ حقيقة هذا الدين العظيم، غير أنه أضاع فرصة الهداية الكبرى في سبيل المنافع الدنيوية، فأضاع بذلك سعادته الأبدية.



إننا نظن أن سلوك هرقل المنصف لمَّا علِمَ دين الإسلام لم يكن نابعًا من فضيلته فحسب، وإنما أثر في هذا السلوك أيضًا ما بقي في النصرانية من عقيدة التوحيد آنذاك، فلقد كانت تلك الآونة بدايةَ انحراف النصرانية التي كانت دينًا حقًّا في الأصل وعقيدةً قائمة على أساس الوحدانية، إذ انتهى الجدال حول الرموز الدينية الذي استمر ما يقرب من مئتي سنة، فامتلأت الكنائس بالرسومات والهياكل. واعتنق النصارى عقيدة التثليث المسماة «**الأقانيم الثلاثة**» البعيدة عن الوحدانية، ليَبرُز الإسلامُ مجدِّدًا «**الدينَ الحق**»، وذلك سنة الله في الكون.. وقد ظهر سلوك مُنصِف كسلوك هرقل من الملك النجاشي لما حاورَ الصحابةَ- وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه- الذين هاجروا إلى الحبشة هربًا من ظلم مشركي مكة، حتى إن النجاشي ضرب يده على الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال لجعفر:

«ما عَدَا عيسى ابن مريم ما قُلتَ هذا العود». [٧٢]

---

٧٢ انظر: ابن هشام، جـ١، ص٣٣٧؛ أحمد، جـ١، ص٢٠٢-٢٠٣، جـ٥، ٢٩٠-٢٩١؛ الهيثمي، جـ٦، ص٢٥-٢٧.



فقد كان الملك النجاشي على مذهب آريوس[٧٣] الذي حافظ على عقيدة التوحيد.

ومن الممكن أن هرقل كان يعتقد بمثل هذا الاعتقاد، غير أنه ليس هناك دليل تاريخي على إيمانه. فنفهم من هذا مرة أخرى أن الله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء.

ويُظهِر لنا حديثُ هرقل أنه حتى الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله ﷺ قد آمنوا باستقامته ونضج شخصيته. إذ لما هاجر ﷺ إلى مكة كانت لديه بعض الأمانات للمشركين، فأوكل سيدَنا عليًّا رضي الله عنه بتسليمها لأصحابها. ولم يكن في مكة آنذاك رجلٌ تُستودَع عنده الأمانةُ مثل رسول الله ﷺ المعروف بثقته وصدقه.



مكانة نبي الرحمة بين الأنبياء

ذكرنا فيما سبق أن نبوة محمد ﷺ بدأت بتجلٍّ إلهي قبل خلق آدم وذريَّته. فقد كان «**النورُ المحمدي**» أولَّ مخلوق.

فنورُ رسول الله ﷺ ظهر قبل سيدنا آدم عليه السلام، وكان ﷺ خاتمَ الأنبياء بجسده؛ أي إنه يمثِّل الصفحة الأولى والأخيرة من كتاب النبوة؛ وبعبارة أخرى بدأت رسالة النبوة بالنور المحمدي، وانتهت

٧٣ الآريوسية: مذهب مسيحي لم يعد له وجود في الوقت الحاضر.



بالجسد المحمدي، وبهذا يكون النبي محمد ﷺ النبي الخاتم زمنًا، والأول خَلقًا. ويمكننا هنا أن نقول:

إن آدم عليه السلام الذي سجد له الملائكة كلهم أجمعون...

وإدريس عليه السلام الذي حمل أسرار السماوات...

ونوح عليه السلام الذي طهَّر الأرض من الكفر بعد الطوفان...

وهود عليه السلام نبي قوم عاد الذين أُهلِكوا بريح صرر عاتية...

وصالح عليه السلام نبي قوم ثمود الذين زُلزِلُوا زلزالًا شديدًا لطغيانهم فأصبحوا نادمين...

وإبراهيم عليه السلام الذي صارت له نيران نمرود- حينما أُلقِيَ فيها- جنة بتوكله وتسليمه...

وإسماعيل عليه السلام الذي غدا رمز الإخلاص والصدق والتوكل والتسليم، والذي سيظل المؤمنون يذكرون قصَّته أثناء الحج حتى قيام الساعة...

وإسحاق عليه السلام الذي جاء من نسله أنبياء بني إسرائيل...

ولوط عليه السلام النبي المبعوث لقوم سدوم وعمورة الذين خسفَ الله سبحانه وتعالى بهم الأرض لطغيانهم وسوء أخلاقهم، فلم يبقَ لهم ذكر في التاريخ...

وذو القرنين عليه السلام الذي حمل لواء التوحيد من المشرق إلى المغرب...

ويعقوب عليه السلام الصابر الذي اكتوى بنار المحبة والشوق...



ويوسف عليه السلام الذي عاش في الرِّقِّ مدة، ثم ذاق في السجن طعمَ الوحدة والغربة والعناء والمشقة ومجاهدة النفس، ثم صار سلطان مصر، وهو سلطان القلوب بجماله الذي فاق جمال البدر في الليلة الظلماء...

وشعيب عليه السلام الذي سُمِّي «**خطيبَ الأنبياء**» لخطاباته التي كانت تأجِّج في الأفئدة الوجد والمحبة...

والخضر عليه السلام الذي علَّم سيدنا موسى الأسرار الإلهية...

وموسى عليه السلام الذي قضى على سلطان فرعون، وشق البحر الأحمر بعصاه...

وهارون عليه السلام أخو موسى عليه السلام الذي كان عونه وسنده كل زمان ومكان...

وداود عليه السلام الذي سخَّر الله له الجبال والطير...

وسليمان عليه السلام الذي أبقى مُلكَه العظيم خارج قلبه...

وعُزير عليه السلام الذي أماته الله مئة عام ثم أحياه، فكان برهانًا جليًّا على البعث يوم القيامة...

وأيوب عليه السلام الذي صار بتفكره وتأمله رمز الصبر...

ويونس عليه السلام الذي تجاوز الظلمات بتدبره في حقيقة الاستغفار والدعاء والذكر في حال وجد عظيم...

وإلياس عليه السلام الذي أثنى عليه الله تعالى حين قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[٧٤]...

وإليسع عليه السلام رسولًا من عند رب العالمين...

وذا الكفل عليه السلام النبي الصالح الذي تنزَّلت عليه رحمات الله تعالى...

ولقمان عليه السلام المشهور بنصائحه الحكيمة، وأحكم الحكماء ظاهرًا وباطنًا...

وزكريا عليه السلام النبي المظلوم الذي لم يفارق التوكلَ والتسليم، ولم يقل «آه» حتى حين نُشِرَ بالمنشار...

ويحيى عليه السلام الذي ختم حياته بالشهادة مثل أبيه...

وعيسى عليه السلام النبي المرفوع، المزكيِّ نفسَه، والشافي المرضى، والمحيي الموتى بالتجائه وتضرعه إلى ربه جلَّ وعلا...

وما يقرب من مئة وعشرين ألف نبي وتجليات القدرة الإلهية كلها التي ظهرت منهم، كلها كأنها سُحُب نيسان المباركة أُشبِعَت إلى أقصى درجة، ثم أفرغت حملها قسرًا على تراب أفئدة البشر. وسلسلة الأنبياء التي هي وسيلةُ هداية مباركة، كانت كل واحدة من حلقاتها بشارة لظهور النبي المبعوث رحمة للعالمين محمد المصطفى الأمين عليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والتسليم.

---

٧٤ الصافات: ١٣٠.



ويروى عن ابن عباس ﵁ أنه قال:

خلق الله تعالى له «أي لآدم» حواءَ زوجته من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو نائم، وسُمِّيَت حواء لأنها خلقت من حي، فلما استيقظ ورآها سكن إليها، فقالت الملائكة: مَهٍ يا آدم،

قال: ولِمَ وقد خلقها الله لي؟

فقالوا: حتى تؤدي مهرها.

قال: وما مهرها؟

قالوا: تصلي على محمد ﷺ ثلاث مرات.[٧٥]

فصار للنكاح شأنٌ وقيمة بالصلاة على النبي محمد ﷺ، وامتلأ بتجليات الرحمة والبركة والفيوضات.



ويروى عن عمر بن الخطاب ﵁، أنه قال:

«لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لِمَا غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه؟ قال: يا رب، لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعت

---

٧٥ انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية، جـ١، ص٥٠؛ إسماعيل حقي البورصوي، روح البيان، جـ٨، ص٤٣٠ [الدخان: ٥٤]؛ محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة، جـ٤، ص٩.

رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، ادْعُني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك» [٧٦]



إن حياة نبينا الكريم ﷺ مليئة بالتجليات العظمى التي لم ينلها قبله نبي من الأنبياء، وله ﷺ مكانةٌ وشرفٌ عظيمٌ لم يبلغه نبيٌ قبله؛ فمهمة الأنبياء كلهم عدا نبينا الكريم محدودة في زمان ومكان، لذلك لم يبلغنا سلوكهم ومعاملاتهم وأحوالهم بتفصيل دقيق. أما رسول الله ﷺ فقد أُمِر بإرشاد الناس كافة، فهو حجَّةٌ عليهم أجمعين من بعثته حتى قيام الساعة، لذلك نعلم اليوم أحداث حياته كلها بأدق تفاصيلها وفروعها بروايات صحيحة، وكذلك سيبقى حتى النفخ في الصور؛ وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون ﷺ «**الأسوةَ الحسنة**» للناس أجمعين في «**آخر الزمان**».

لقد جاء سيدنا موسى عليه السلام بمجموعة من الأحكام الشرعية، وعُرِف سيدنا داود عليه السلام بدعائه ومناجاته الله سبحانه وتعالى، وأُرسِل سيدنا عيسى عليه السلام ليعلِّم الناس مكارم الأخلاق والزهد في

٧٦ الحاكم، جـ٢، ٦٧٢/٤٢٢٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٥، ص٤٨٨-٤٨٩.



الحياة، أما سيدنا محمد نبي الإسلام فقد جاء بما جاء به الأنبياء كلهم؛ إذ شرَّع الأحكام، وعلَّم تزكية النفس والدعاء لله بقلب صافٍ، وأمرَ بأحسن الأخلاق، وصار قدوة للناس بعيشه، وأوصى بعدم بالاغترار بزينة الحياة الدنيا الفانية. وصفوة الكلام أنه اجتمعت فيه مهام الأنبياء كلهم وصلاحياتهم، وفيه التقت أصالة النسب والأدب، وسعادة الجمال والكمال.

ولم يُقسِم الله تعالى في كتابه العزيز بأي نبي من أنبيائه إلا بحياة رسول الله ﷺ إذ قال في سورة الحجر في الآية الثانية والسبعين: ﴿**لَعَمْرُكَ**﴾.

ويقول الشاعر الصوفي الشيخ غالب في بيان هذه الحقيقة:

أنت سلطان الرُسُل، والشاه الممجدُ يا سيدي

وأنت بلسمٌ للعاجزين يا سيدي

وأنت الحامي لأمتك يوم الحشر يا سيدي

وأنت المؤيَّد بالقسم الإلهي: «لعمرك» يا سيدي

وأنت أحمد ومحمود ومحمد يا سيدي

وأنت السلطان المؤيَّد من الحق يا سيدي...

ومما يميِّز نبيَّنا الأكرم ﷺ عن غيره من الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى قد خاطب الأنبياء في القرآن الكريم بأسمائهم فقال:



«يا آدم، يَا نوح، يَا إبراهيم، يا موسى، يا داوود، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى».

لكنه لم يخاطب نبيَّنا ﷺ باسمه، بل بصفة من صفاته، فقال:

«يا أيها النبي، يا أيها الرسول، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر».

ويقول الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾ [٧٧]

يقول ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية الكريمة:

كانوا يقولون: «يا محمد، يا أبا القاسم»، فنهاهم الله عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ، فقالوا: «يا نبي الله، يا رسول الله» [٧٨]

فهذا يعني أن خطاب ربنا لنبيه بصفته لا باسمه تعليمٌ للأدب والاحترام الواجب أمامه ﷺ، وهو سبحانه وتعالى بذلك يرسم قاعدة عامة في هذا الأمر.

وقد خصَّ الله عز وجل نبينا محمدًا ﷺ بصفة «**الحبيب**». [٧٩]

ودليل آخر على علو شأنه وتميُّزه بين الأنبياء أنه أَمَّ الأنبياء كلهم في المسجد الأقصى في حادثة الإسراء والمعراج. [٨٠]

---

٧٧ النور: ٦٣.

٧٨ أبو نعيم، دلائل، جـ١، ص٤٣.

٧٩ انظر: الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦؛ الدارمي، المقدمة، ٨؛ أحمد، جـ٦، ص٢٤١؛ الهيثمي، جـ٩، ص٢٩.

٨٠ انظر: مسلم، الإيمان، ٢٧٨؛ النسائي، الصلاة، ١/ ٤٤٨.



والمعراج لم يكن إلا له ﷺ، والسِّرُّ في قول الله تعالى لموسى: ﴿...لَنْ تَرَانِي...﴾ (٨١) تجلَّى في حادثة المعراج على صورة: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٨٢)

---

٨١ لقد خضع موسى عليه السلام في طور سيناء لمرحلة إعداد قبل الكلام مع الله تعالى، إذ أُمِر بصيام ثلاثين يومًا وإتباعها بعشرة أيام لتصبح أربعين. فكانت تلك الحال تحضيرًا للكلام مع الله عز وجل إذ تجرد خلالها من أهواء النفس وغوائلها. وكان كلام الله عز وجل مع كليمه موسى عليه السلام بصفة الكلام الأزلية، لا بوسائط مادية مثل اللسان والصوت. ولم يشعر جبريل عليه السلام بذلك الكلام الإلهي ولم يسمعه ولا السبعون رجلًا الذين أُحضِروا مع موسى شهداءَ. وأمام هذا التجلي الإلهي نسي موسى عليه السلام إن كان في الدنيا أو في الآخرة فصار وكأنه خارج عن مفهومَي الزمان والمكان، وباتت عنده رغبة كبيرة في رؤية ذات الله تعالى وهو في ذلك الحال من العشق والوجد والاستغراق، فتجلَّى الأمر الإلهي أن: «لن تراني». فلما أصر موسى عليه السلام إصرارًا خارجًا عن إرادته في مشاهدة الذات الإلهية، أمره الله تعالى أن ينظر إلى الجبل، فإن استقر الجبل مكانه، فسيراه. وتشير الروايات إلى أنه انعكس نور من ذات الله تعالى من وراء حجب لا تعد ولا تحصى فجعل الجبلَ دكًّا، فخرَّ موسى صعقًا أمام هذا المشهد العظيم الجليل. ولما أفاق استغفر ربه سبحانه وتعالى لتجاوزه الحد مع ربِّه.
ويمكننا أن نستنتج من هذه القصة القرآنية أنه ليس هناك مكان في هذا الكون يتحمل تجلي ذات الله جلَّ وعلا. وذلك ثابت بنسف الجبل بعد أن لم يتحمل ذرةً من التجلي الإلهي. والله تعالى غائب بذاته، ولا يُعرَف إلا بتجليات صفاته وأفعاله، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بقوله: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة: ٣].
والحقيقة الأخرى أن إدراك الإنسان لن يتحمل تجلي ذات الله تعالى، وذلك ثابت حينما أُغمِيَ على سيدنا موسى عليه السلام. لذلك ليس هناك في عالمنا «تجلٍّ للذات» لشدة ظهور تجلي الذات وعجز إدراك الإنس والجن.

٨٢ أُدخِل النبي ﷺ في ليلة المعراج إلى ما وراء سدرة المنتهى حيث لم يبلغ ذلك المكان أي مخلوق بما في ذلك جبريل. وحصل هناك بينه وبين الحق تعالى وصال لا يكون لغيره من العباد. وذلكما تجليَان عظيمَان لموسى عليه السلام والنبي ﷺ على صورة تستطيع عقولنا إدراكهما.

وقد أكرمَ الله سبحانه وتعالى أمةَ محمد ﷺ في حادثة المعراج بنعمة عظيمة، ألا وهي عبادة الصلاة التي هي أعظم ما يقرِّب العبد من ربه.

وينبِّه الشاعر كمال أديب كوركشو أوغلو المؤمنين الغافلين عن سنة رسول الله ﷺ التي تجمع كل الفضائل والمحاسن فيقول:

«واأسفاه على الغافل البعيد عن ثناء رسول الله، فذلك يكفيه خسرانًا في الدارَين».

فلا يمكن إدراك حقيقة القرآن والسنة إلا بالتأسي بأخلاق سيدنا محمد ﷺ وتقليده في أحواله وحركاته وسكناته.

اللهم اجعلنا أمةً صادقةً تتحد بمحبته ﷺ، فهو منبع الرحمة والرأفة الذي لا ينضب.

والصلاة والسلام دائمًا وأبدًا على المبعوث رحمة للعالمين! فإننا المحتاجون إلى توسله وشفاعته يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون!







من خصال نبي الرحمة
عليه الصلاة والسلام



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم: ٤)



إذا قلَّبنا صفحات التاريخ صفحةً صفحةً، فإننا لن نجد إنسانًا قد عُرِفَت أحواله وحركاته وسكناته بأدق تفاصيلها إلا سيدنا محمدًا ﷺ، فقد سُجِّلت أفعاله وأقواله وأحاسيسه كلها وقامت في معرض التاريخ الإنساني لوحاتٍ للرفعة والشرف.

فحياته ﷺ أسوة للأجيال كلها حتى تقوم الساعة، ويقول الله سبحانه وتعالى في نبيه الكريم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٨٣)

فلم يكن ﷺ معلِّمًا للقرآن لفظًا فحسب، بل كان قرآنًا يمشي على الأرض.

يقول رسول الله ﷺ:

«**بُعِثتُ لأتمِّمَ حسن الأخلاق**». (٨٤)

فعبد الله بن سلام الذي كان من أحبار اليهود ما إن رأى رسول الله ﷺ حتى أحاطت به نورانية وجهه ﷺ وسماحته، فقال شاهدًا بإيمانه به: «إن وجهه ليس بوجه كذَّاب» .

---

٨٣ القلم: ٤.

٨٤ موطأ، حسن الخلق، ٨؛ البيهقي، السنن الكبرى، جـ١٠، ص١٩٢.



ويحدِّثنا فيقول:

لمَّا قدم النبي ﷺ المدينة، انجفل الناس قِبَلَهُ، وقيل: قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله ثلاثًا، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به، أن قال:

«يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».[٨٥]



زهد نبي الرحمة وتقواه وتزكيته نفسه

لقد ذكرنا فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى جعل رسول الله ﷺ أسوةً حسنةً للبشر كلهم، فكل من أراد بلوغ السعادة عليه أن يقتدي به على قدر طاقته، وكل سلوك منه ﷺ قدوة فعلية لعيش الإسلام كما ينبغي. لكن يجب على كل من أراد أن يقتدي بحياته ﷺ أن يدقِّق في أمور هي:

١. بعض الأعمال من خواص الأنبياء، ولا يمكن لغيرهم من البشر أن يطيقوها. مثل الصلاة في الليل بصورة دائمة حتى انتفاخ القدمين، وصوم الوصال. وقد نبَّه رسول الله ﷺ أصحابه في هذا الشأن.

---

٨٥ ابن ماجه، الأطعمة ١، الإقامة ١٧٤/ ٣٢٥١؛ الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥.



٢. بعض أفعال رسول الله ﷺ متولِّدة من حِكم ومصالح تخصُّه وحده، مثل زواجه بأكثر من أربع نساء، وامتناعه عن أخذ الزكاة والصدقة، ومنع آل بيته عن ذلك حتى قيام الساعة...

وما أكثر العِبر في الحادثة التالية التي تعد مثالًا لامتناع آل البيت عن قبول الزكاة والصدقة:

رُئِيَ الحسنُ بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول:

«عُبيدُك ببابك، خُويدمك ببابك، سائلك ببابك، مُسيكينك ببابك». يردد ذلك مرارًا، ثم انصرف رضي الله عنه، فمرَّ بمساكين معهم فِلْق[٨٦] خبز يأكلون، فسلَّم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم، وقال: «لولا أنه صدقة لأكلت معكم». ثم قال: «قوموا بنا إلى منزلي». فتوجهوا معه، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم.[٨٧]

وما أعظم العِبَر في إنفاق الرسول الأكرم ﷺ غنائمَه في وقت قصير، وتذكيره بذلك حتى في لحظات وفاته.

فعن أبي أمامة بن سهل قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير يومًا على عائشة، فقالت رضي الله عنها: لو رأيتما نبي الله ﷺ ذات يوم في مرض مرضه، وكان له عندي ستة دنانير- قال موسى أو سبعة- قالت:

---

٨٦ فِلق: جمع فِلْقَة، وهي القطعة تُقطَع من الشيء.

٨٧ الأبشيهي، المستطرف، بيروت ١٩٨٦، جـ١، ص١٩.



فأمرني نبي الله ﷺ أن أفرِّقها، قالت: فشغلني وجع نبي الله ﷺ حتى عافاه الله، قالت: ثم سألني عنها، فقال:

«**ما فعلت الستة- قال أو السبعة-**».

قلت: لا والله لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها، ثم صفها في كفه، فقال:

«**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده**».[٨٨]

وفي رواية أخرى: أصاب رسول الله ﷺ دنانير فقسمها إلا ستة، فدفع الستة إلى بعض نسائه، فلم يأخذه النوم حتى قال: «**ما فعلت الستة؟**» قالوا: دفعتها إلى فلانة قال: «**ائتوني بها**»، فقسم منها خمسة في خمسة أبيات من الأنصار ثم قال:«**استنفقوا هذا الباقي**»، وقال: «**الآن استرحت**»، فرقد.[٨٩]

وعن عبيد الله بن عباس قال: قال لي أبو ذر رضي الله عنه: يا ابن أخي، كنت مع رسول الله ﷺ آخذًا بيده فقال لي:

«**يا أبا ذر، ما أحب أن لي أُحُدًا ذهبًا وفضة أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت أدع منه قيراطًا**».[٩٠]

---

٨٨ أحمد، جـ٦، ص١٠٤/ ٢٤٧٧٧.

٨٩ ابن سعد، جـ٢، ص٢٣٧-٢٣٨.

٩٠ القيراط: معيارٌ في الوزن وفي القياس، اختلفت مقاديرُه باختلاف الَأزمنة، وهو اليوم في الوزن أَربع قمحات، أي حوالي ٠,٢١٢٥ غرامًا.

قلت: يا رسول الله، قنطارًا؟، قال:

«**يا أبا ذر، أذهب إلى الأقل وتذهب إلى الأكثر! أريد الآخرة وتريد الدنيا، قيراطًا**». فأعادها عليَّ ثلاث مرات.[٩١]

فهذه المواقف والأحوال السامية لرسول الله عليه الصلاة والسلام بلغت بسموها عنان السماء، غير أن أمَّته التي عليها أن تقتدي به غير مكلفة بمثل هذه المعايير، ذلك أنه لا طاقة لها بذلك، والمصلحة هنا مخصوصة به عليه الصلاة والسلام...

ولا يقتصر السلوك النابع من مصلحة مخصوصة بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام على هذا الأمر فحسب، فسلوكه الشخصي في مسألة الميراث لا يقتدي به الناس أيضًا، وتوزيعه ما عنده في حياته على أساس القاعدة التي تشمل الأنبياء في قوله: «**لاَ نُورَثُ...**»[٩٢] لا يُطبَّق على أمته.

وليس يخفى على أحد أنه عليه الصلاة والسلام اختار العيش فقيرًا بين أمته إذ كان ينفق الأموال التي تأتيه، فهذا شأنٌ تقتضيه مصلحةٌ مخصوصةٌ به. ولا يجب أن نظن هنا أن ذلك كان ترويجًا للفقر وحضًّا عليه، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام وضعَ قاعدةً حينما

٩١ الهيثمي، جـ١٠، ص٢٣٩.

٩٢ البخاري، فرض الخمس، ١.



قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» [٩٣] فحثَّ بذلك أمته على أن يكونوا من المعطين، أي حثَّهم على الغنى بالطرق المشروعة.

فالمقصود من الأحكام الخاصة بالفقر المحافظةُ على التوكل والتسليم والرضا بقضاء الله سبحانه وتعالى، لا الحث على الفقر.

٣. العيش بزهد وتقوى فضيلةٌ وعزيمةٌ وقربٌ من رسول الله عليه الصلاة والسلام، غير أن العيش هكذا لا يجب على كل أفراد المجتمع، لأنه منوط بِطَاقةِ كل فرد وقدرته عليه، لذلك لا ينبغي الظن أن التقوى والزهد عن النِعم الدنيوية سيضرُّ بحيوية الحياة الاجتماعية، ويُأخِّر الأمم عن أعدائها، أو يجعلها مغلوبة أو في حال بؤس وقنوط، فالتشجيع على الإقدام والحيوية موجودٌ في لبِّ القواعد الشرعية التي يُكلَّف بتطبيقها أفراد المجتمع كلهم، وإن انطلقنا من قاعدة: «من استوى يوماه فهو مغبون»، لن نجد أي تناقض بين معايير الزهد والتقوى التي تعني عدم الالتفات إلى النِعَم الدنيوية أو بمعنى أدق الترفع عنها، فالاستغناء عن الدنيا بمعناه الحقيقي مسألة قلبية ذهنية أكثر من كونها مسألة فعلية ظاهرة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«الدنيا أن تكون غافلًا عن الله! وليست الدنيا دراهم ودنانير ونساء ولباس! فاعلم ذلك جيدًا!».

---

٩٣ البخاري، الزكاة، ١٨؛ النفقات، ٢؛ مسلم، الزكاة، ٩٤-٩٧، ١٠٧، ١٢٤.

وتتضح هذه الحقيقة في أجلى صورها إن وضعنا على كفة الميزان صاحبَ الأموال الكثيرة وليس في قلبه مكان لها ويحذر من الإسراف في استعمالها ولا يخالف معايير الزهد والتقوى، ووضعنا على الكفة الأخرى صاحب المال القليل الذي دخل حب المال قلبَه فصار عبدًا له. وأمثلة الصنف الأول كثيرة، ومن ذلك حال سيدنا سليمان عليه السلام ومن الصحابة سيدنا أبو بكر، وعثمان، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين.

وقد يكون أساس بعض مظاهر الزهد والتقوى الحاجةُ لا الاستغناء، فالرضا هنا بقضاء الله تعالى وعدم عصيانه هو السلوك الصحيح، وأما أن يُظهِرَ المرءُ الفقرَ وهو مقتدر على ذلك فذلك هو الفهم الخاطئ لمفهوم الزهد والتقوى.

فمن الأمثلة التي تدل على جوهر الزهد والتقوى وضعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجرَ على بطنه المبارك كي لا يشعر بالجوع. والأنسب للزهد والتقوى إظهارُ نِعم الله تعالى وشكره عليها لحث الغافلين على فعل الخيرات، وما أعظمه إن كان ذلك بالإنفاق السخي على الفقراء والمحتاجين. وأما إظهار المرء نفسه محرومًا من النِعم كي يخفي ثراءه فذلك مثل مَن يرى البخل جزءًا من التقوى، ولا يجوز البتة أن يخدع الإنسان نفسه أو غيره على هذه الصورة.

وإذا نظرنا إلى حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام ودققنا فيها على أساس هذه المعايير والأحكام، فإننا سنجد أنه عليه الصلاة



والسلام أتقى بني البشر، وكان يحيا كالفقراء لتقواه، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بُرٍّ[٩٤] مأدوم ثلاثة أيام، حتى لحق بالله».[٩٥]

وعن أنس رضي الله عنه أن يهوديًّا دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهَالَةٍ[٩٦] سَنِخَةٍ[٩٧] فأجابه.

ولقد رهنَ عليه الصلاة والسلام درعه عند يهودي، ولم يستطع أن يردَّها حتى توفي عليه الصلاة والسلام لكثرة إنفاقه.[٩٨]

فكل ما ذكرناه هنا أمثلة رائعة تدل على الكرم والجود والتضحية تحت أنوار الإيمان.

ولم يُجِزْ رسول الله عليه الصلاة والسلام تحريم الحلال من الأطعمة والأشربة باسم الزهد، إذ كان يأكل الطعام والشراب الحلال، غير أنه لم يملأ بطنه قط ولو كان الطعام حلالًا، وقد تجشَّأ رجلٌ مرةً عند النبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

---

٩٤ البُرُّ: حب القمح.

٩٥ البخاري، الإيمان، ٢٢؛ ابن ماجه، الأطعمة، ٤٨.

٩٦ الإهالة: الشحم أو الزيت.

٩٧ سنَخ الدهن والطعام: زنَخه.

٩٨ البخاري، الجهاد، ٨٩؛ البيوع، ١٤.

«كفَّ عنَّا جشاءك فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة».[99]

وكان يحثُّ على مجاهدة النفس، والاعتدال في المأكَل والمشرَب، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أُكُلاتٌ يقمْنَ صلبَهُ، فإن كان لا محالة فثُلث لطعامه، وثُلث لشرابه، وثُلث لنَفَسه».[100]

فهذي المقاييس الرائعة كلها وسائل عظيمة لكبح شهوة الإنسان وغوائل نفسه. لذلك فإن مدرسة سيدنا محمد ﷺ قد ربَّت بأسلوب ومنهاج كامل كل أصناف البشر، من أفقرهم حالًا حتى أعلاهم شأنًا وأعظمهم مالًا، واطمأنت القلوب وسُرَّت على قدْرِ اتباعها له ﷺ.

وكم من فقير في مدرسة النبي ﷺ أمضى عمره في شكر وكأنه غني، وكم من غني وحاكم أنفق طوال عمره وعاش يجاهد نفسَه. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها أن خليفة المسلمين كان يحمل الطعام على ظهره ليعطي الفقراء ويطبخ لهم الحساء، وشواهد العدل في الإسلام مثل اختصام السلطان العثماني محمد الفاتح ومعماري نصراني في المحكمة أمام القاضي، وصدور القرار ضد

---

٩٩ الترمذي، القيامة، ٣٧/ ٢٤٧٨.

١٠٠ الترمذي، الزهد ٤٧/ ٢٣٨٠؛ ابن ماجه، الأطعمة، ٥٠.



السلطان، مظاهرُ رحمة وفيوضات تبقى ذكرى للناس من مدرسة الزهد والتقوى التي أعلى بنيانها سيدُنا محمد ﷺ.

وما أجمل تعريف رسول الله ﷺ الزهدَ حينما قال:

«الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصبْتَ بها أرغب فيها لو أنها أُبقيَت لك».[١٠١]

وما أعظم إرشاد رسول الله ﷺ الناسَ في باب القناعة والزهد.

ومن معاني الزهد إزالةُ الحرص على الدنيا والرغبة الشديدة فيها، وانعدام الاغترار بلذائذها المؤقتة الفانية، وإخراج حبها من القلب، وعدم الرغبة إلا بالله ورسوله، وترك الأشياء التي تخالف العبودية لله تعالى ولا طائل وراءها في الآخرة. والزهد منبع طمأنينة القلب والجسم، أما الرغبة في الدنيا فمصيبة مليئة بالأكدار والآلام تُميت القلب والجسم.

يقول رسول الله ﷺ:

«الزهد في الدنيا يريح القلب والجسم، والرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن».[١٠٢]

---

١٠١ الترمذي، الزهد، ٢٩/ ٢٣٤٠.

١٠٢ أحمد، مسند، الزهد، ص٥١؛ البيهقي، شعب، جـ١٣، ص١٢٢/ ١٠٠٥٤.

ويقول في حديث شريف آخر:

«اِزهَدْ في الدنيا يحبك الله، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبك الناس».(١٠٣)

فنفهم من الأحاديث الشريفة التي ذكرناها أن «**الزهد**» أُولى التدابير اللازمة لمواجهة مخاطر الدنيا وشِراكها.

ويبيِّن رسول الله ﷺ أن القسطاس الوحيد لمعرفة قيمة العبد عند الحق جلَّ وعلا إنما هو «التقوى» فيقول:

«انظر فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود الا ان تفضله بتقوى ».(١٠٤)

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (١٠٥)

أما التقوى فهو كبحُ الشهوات النفسانية والترقي بالاستعدادات الروحانية، والقدرة على جعل أنوار القرآن والسنة تنعكس على كل صفحات الحياة، وتطبيق الأحكام الدينية في إطار المحبة والبذل والتضحية والوجد، وتربية النفس والتلذذ بالعبادة وحسن المعاملة، ولقاء العبد ربه ﷻ بالقلب، وتجلي الصفات الجمالية مثل الرحمة

---

١٠٣ ابن ماجه، الزهد، ١/ ٤١٠٢.

١٠٤ أحمد، جـ٥، ص١٥٨.

١٠٥ الحجرات: ١٣.



والرأفة في القلب، وإخلاصه بين يدي ربه بأن يشترك اللسان والقلب في توبة العبد، وكره المعصية، وجعل العفو طبعًا أصيلًا، وكثرة العفو حتى يليق صاحبه بالعفو الإلهي.

فالعبد يكون له قيمة عند الله تعالى حينما يحيا بكل هذه الفضائل، أي حينما يكون صاحب تقوى.

يقول رسول الله ﷺ:

«ما أوحى الله إليَّ أن أجمع المال وأكون من المتاجرين، ولكن أوحى إليَّ أن: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[١٠٦]**»** .[١٠٧]

ويقول رسول الله ﷺ:

«إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عمَّا في أيدي الناس».[١٠٨]

ولمَّا سُئل عليه الصلاة والسلام أي الناس خير؟ قال:

«رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شِعبٍ من الشِّعاب: يعبد ربه، ويدع الناس من شره».[١٠٩]

---

١٠٦ الحجر: ٩٨-٩٩.

١٠٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٢، ص١٣١؛ العيني، عمدة القاري، جـ١٩، ص١٦.

١٠٨ ابن ماجه، الزهد، ١٥/ ٤١٧١؛ أحمد، جـ٥، ص٤١٢.

١٠٩ البخاري، الرقاق، ٣٤/ ٦٤٩٤؛ أبو داود، الجهاد، ٥/ ٢٤٨٥.

وقد وضَّح العلماء أن المقصود من القسم الثاني من الحديث الشريف أيام الفتنة والحروب، أو الناس ذوو المعشر السَّيِّئ.



لقد كان رسول الله ﷺ دقيقًا في أمر الحلال والحرام، ويحذر أشد الحذر من الأمور المشتبهات، حتى إنه كان ينظر إلى توزيع تمر الصدقة يومًا وحفيده الحسن جالس في حضنه في المسجد، فلما أخذ الحسن تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فمه، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**كِخْ كِخْ، ارمِ بها، أما علمت أنَّا لا نأكل الصدقة؟**».[١١٠] فنبَّهه بذلك وأخرج التمرة مِن فيه.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في اللقمة الحلال:

«اللُّقمَة كالبذرة ثمارها الأفكار والنيَّات».

«إن اللقمة التي تحيي فيك الرغبة والشوق إلى العبادات والطاعات لقمةٌ حلالٌ، وأما التي تبعث فيك الكسل في العبادات والطاعات وتكون سببًا قي قسوة القلب فهي حرام».

«عليك بالإكثار من اللُّقَمة الحلال في حياتك، وتجنب اللُّقَمة المشبوهة والمُحرَّمة، كي تصل إلى الخشوع بالتلذذ بلذة العبادة والطاعة».

---

١١٠ مسلم، الزكاة، ١٦١/ ١٠٦٩.



يقول أحد أولياء الله:

«لا تنسَ أن التلذذ بالعبادة والطاعة أعظمُ كرامة» .

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[١١١]



إن كثيرًا من الناس في أيامنا هذه يرون الدِّينَ مجموعة من المعتقدات التي تجعل صاحبها يفوز بالسعادة في الآخرة، مع أن الدين لا يجعل العبد يفوز بسعادة الآخرة فحسب، بل ينظِّم حياة المجتمع على أكمل صورة، ويقدِّم للناس جوًّا من الطمأنينة والأمان.

والحادثة التالية توضِّح هذه الحقيقة أجمل توضيح:

بينما عمر بن الخطاب يعسُّ المدينة إذ أعيا واتكأ على جانب جدار في جوف الليل، وإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابتناه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه[١١٢] بالماء، فقالت لها: يا أمتاه وما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديًا فنادى ألَّا يُشَاب اللبن بالماء. فقالت لها: يا بنية قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي

١١١ المؤمنون: ١-٢.

١١٢ مذَق اللَّبنَ: خلطه بالماء.

عمر. فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه ما كنت لأطيعه في الملأ واعصيه في الخلاء.

فتأثر سيدنا عمر رضي الله عنه لمَّا سمع جواب هذه الفتاة النزيهة التي امتلأ قلبها بالخوف والخشية من الله تعالى. فزوَّجها أمير المؤمنين بابنه عاصم لتقواها، ومن ذلك الزواج المبارك والنسل الأصيل وُلِد الخليفة عمر بن عبد العزيز المشهور في التاريخ الإسلامي باسم خامس الخلفاء الراشدين.[١١٣]

وتبيِّن هذه الحادثة لنا أن العيش بمراعاة الحلال دائمًا إنما هو مقام «**أحسن تقويم**»، إذ يُوصِل العبدَ إلى السعادة في الدارين، أما عكس ذلك؛ أي عدم الاكتفاء بالنعم الحلال الكثيرة والتوجه إلى الحرام أو المشتبهات فذلك لا يليق بالعبودية لله سبحانه وتعالى. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ترك الأشياء المشبوهة:

«**دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك**...».[١١٤]

ويبيِّن مولانا جلال الدين الرومي ضرورة الحذر من الحرام و المشتبهات فيقول:

«لقد تجلى علينا الإلهام بصورة مختلفة ليلة أمس، لأن بعض اللقيمات المشبوهة التي نزلت في المعدة سدَّت طريق الإلهام».

---

١١٣ انظر: ابن الجوزي، صفوة الصفوة، جـ١، ص٤٠٩-٤١٠.

١١٤ الترمذي، القيامة، ٦٠/ ٢٥١٨.



لكن لا بد من أن نُذكِّر هنا أنه من الخطأ إساءة فهم الحذر من الأشياء المشبوهة، وتجاوز الحد في ذلك والابتعاد عن الأشياء الحلال، أو الوقوع في الوساوس في النعم الحلال.[١١٥]

إن دين الإسلام يأمر بالاعتدال في هذا الشأن أيضًا، فغاية الإسلام ليست تعكير صفو حياة البشر، بل أن يعيشوا في جوٍّ من الطمأنينة والسكينة والسرور، وذلك لا يكون إلا بإعمار القلب. فالأمور الحسنة كلها في جوهر القلب، وتظهرُ بالتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ والإحساس بقلبه ودقَّته في الأمور.



لقد كان رسول الله ﷺ يصلِّي في الليل حتى تنتفخ قدماه، وهو المعصوم عن الذنب! وكان يتلو القرآن لساعات حتى يصيبه التعب. فكان أعظم الناس حبًّا لله تعالى وأكثرهم ذِكرًا وأشدَّهم خشية له.

إن الصلاة لقاءُ العبد مع ربه، والوقوف في حضرته، ووصال لمحبِّيه ومعراج لهم. لذلك ترى العباد العارفين العاشقين يداومون على أداء النوافل كل حين على أفضل صورة كي تستمر هذه الحال التي لا يرتوون منها. وفي الصلاة تسليمٌ للحق جلَّ وعلا، لذلك يثقل على النفس أداؤها. وهذا وحده كافٍ لإظهار أن الإسلام دينُ الحق وأن الصلاة عبادة مطلقة، يقول رب العزة في الآية الكريمة:

---

١١٥ انظر: البخاري، البيوع، ٥.



﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[١١٦]

إن الذين يتَّبعون أهواء نفوسهم لا يقربون الصلاة، وأما الذين لم يقدروا على كسر حاجز النفس فيصلون الصلاة ظاهرًا فقط؛ لذلك فإن الصلاة الحقيقية لا يؤديها إلا القليل، وفي هذه الحقيقة قيل:

«يصلِّي الرجلان الركعتَين في الزمان نفسه والمكان نفسه، غير أن الفرق بين صلاتيهما كالفرق بين السماء والأرض».

وقد قال أولياء الله:

«إن المصلِّين كثير والمُقيمين للصلاة قليل».

ويقول عبد الله بن الشخير رضي الله عنه في خشوع النبي في صلاته:

«رأيت النبي ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء».[١١٧]



كان النبي ﷺ يبدأ صومه في كثير من الأحيان بلا سحور، ويواصِل صيامه. ولما أراد الصحابة الكرام أن يصوموا مثله قال لهم:

«إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مُطعِمٌ يُطعِمني، وسَاقٍ يسقِين».[١١٨]

---

١١٦ البقرة: ٤٥.

١١٧ أبو داود، الصلاة، ١٥٦-١٥٧/ ٩٠٤؛ النسائي، السهو، ١٨.

١١٨ البخاري، الصوم، ٤٨/ ١٩٦٣.



وعن ابن عباس ﵄:

«أن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاويًا[١١٩] وأهله لا يجدون عشاء». قال: «وكان عامة خبزهم الشعير».[١٢٠]

وعن أنس بن مالك ﵁:

أن فاطمة ﵂ جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ، فقال: «**ما هذه الكسرة يا فاطمة؟**»، قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: «**أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام**».[١٢١]

وقد وردَ في كثير من الرويات أنه عليه الصلاة والسلام كان يشدُّ حجرًا على بطنه من الجوع.[١٢٢]



وكان رسول الله ﷺ يُنفِق كثيرًا، ولا يرضى أن يأخذ ما يزيد عن حاجته قط، بل يتصدق به.

وقد دخل سيدنا عمر ﵁ على ابنه يومًا وجلس على مائدته، فقال: «إني لأجد طعم دسم ما هو بدسم اللحم» فقال عبد الله:

١١٩ طاوي: جائع، طوى من الجوع فهو طاوٍ أي خالي البطن.

١٢٠ ابن سعد، جـ١، ص٤٠٠.

١٢١ ابن سعد، جـ١، ص٤٠٠؛ الهيثمي، جـ١٠، ص٣١٢.

١٢٢ انظر: البخاري، المغازي، ٢٩؛ الرقاق، ١٧؛ الترمذي، الزهد، ٣٩/ ٢٣٧١.

يا أمير المؤمنين، إني خرجت إلى السوق أطلب السمين لأشتريه، فوجدته غاليًا، فاشتريت بدرهم من المهزول، وحملت عليه بدرهم سمنًا، فأردت أن يتردد عيالي عظمًا عظمًا، فقال عمر: «ما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قط، إلا أكل أحدهما، وتصدق بالآخر».[١٢٣]

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«لقد مات رسول الله ﷺ، وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين».[١٢٤]

وعنها رضي الله عنها أنها قالت:

«بعث إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلًا، فأمسك رسول الله ﷺ وقطعت– أو أمسكت وقطع–، فقال الذي تحدثه: أَعَلى غير مصباح؟ فقالت: لو كان عندنا مصباح لائتدمنا[١٢٥] به، إن كان ليأتي على آل محمد ﷺ الشهر ما يختبزون خبزًا ولا يطبخون قدرًا».[١٢٦]

وكان النبي ﷺ يحبُّ الإنفاق كثيرًا، وكان يقول لسيدنا بلال رضي الله عنه:

«أنفقْ بلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا».[١٢٧]

---

١٢٣ ابن ماجه، الأطعمة، ٥٧. انظر أيضًا: ابن سعد، جـ١، ص٤٠٦.

١٢٤ مسلم، الزهد، ٢٩؛ ابن سعد، جـ١، ص٤٠٥.

١٢٥ ائتدم: أكل خبزه بالإدام، والإدام المرقُ والدسم.

١٢٦ أحمد، جـ٦، ص٢١٧؛ ابن سعد، جـ١، ص٤٠٥.

١٢٧ البيهقي، شعب، جـ٢، ص٤٨٣/ ١٢٨٣؛ الهيثمي، جـ٣، ص١٢٦.



ولم يحرص رسول الله ﷺ على جمع المال قط، إذ اختار أن يكون «**نبيًّا عبدًا**». ويقول مبينًا هذه الحقيقة:

«**خُيِّرتُ بين أن أكون ملكًا نبيًّا أو نبيًّا عبدًا، فقيل لي: تواضع، فاخترت أن أكون نبيًّا عبدًا**».(١٢٨)

ويقول عليه الصلاة والسلام في أحاديث أخرى:

«**عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا- أو قال ثلاثًا أو نحو هذا- فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**».(١٢٩)

ولم يدخل نبي الله ﷺ بيت ابنته فاطمة رضي الله عنها لمَّا زخرفته.

ولم يفتخر النبي ﷺ البتة بعبوديته وطاعته لله سبحانه وتعالى، بل كان يذكر بعض النعم التي أنعمها عليه المولى عز وجل ويقول: «**ولا فخر**».(١٣٠)

وما أكثرَ العِبَر في الحادثة التالي التي تبيِّن حياة الزهد التي كان يحياها رسول الله ﷺ وآله:

قال علي رضي الله عنه: بتنا ليلة بغير عشاء فأصبحت فخرجت، ثم رجعت إلى فاطمة رضي الله عنها وهي محزونة، فقلت: ما لكِ؟ فقالت:

١٢٨ الهيثمي، جـ٩، ص١٩٢.

١٢٩ الترمذي، الزهد، ٣٥/ ٢٣٤٧.

١٣٠ انظر: الدارمي، المقدمة، ٨؛ الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦.

لم نتعشَّ البارحة، ولم نتغدَّ اليوم وليس عندنا عَشَاء، فخرجت فالتمست فأصبت ما اشتريت طعامًا ولحمًا بدرهم، ثم أتيتها به، فخبزت وطبخت، فلما فرغت من إنضاج القدر قالت: لو أتيت أبي فدعوته، فأتيت رسول الله ﷺ وهو مضطجع في المسجد، وهو يقول: «**أعوذ بالله من الجوع ضجيعًا**»، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، عندنا طعام فهلمَّ، فتوكَّأ عليَّ حتى دخل، والقِدرُ تفور، فقال: «**اغرِفي لعائشة**»، فغَرَفَتْ في صحفة[١٣١]، ثم قال: «**اغرِفي لحفصة**»، فغَرَفَتْ في صحفة حتى غرفت لجميع نسائه التسع، ثم قال: «**اغرِفي لأبيك وزوجك**»، فغَرَفَتْ، فقال: «**اغرِفي فكلي**»، فغَرَفَتْ، ثم رفعت القدر، وإنها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله.[١٣٢]

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«ما رَفع رسول الله ﷺ قطُّ غداءً لعشَاء ولا عشاءً قطُّ لغَداء، ولا اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين، ولا ردائين، ولا إزارين، ولا من النعال، ولا رُئِيَ قطُّ فارغًا في بيته إما يخصف[١٣٣] نعلًا لرجل مسكين، أو يخيط ثوبًا لأرملة».[١٣٤]

١٣١ صفحة: إناء من آنية الطعام.

١٣٢ ابن سعد، جـ١، ص١٨٦-١٨٧.

١٣٣ خصفَ النعل: خرزه بالمخرز، خاطه وأصلحه.

١٣٤ ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ١، ص٢٠٠.



تواضع نبي الرحمة

إن المديح والثناء منبعُ الغرور، ومن عِلل طغيان المرء. وكان رسول الله ﷺ يقول لصحابته:

«...**قولوا عبد الله ورسوله**» [١٣٥]

مع أنه أشرف الخلق، وهو الذي أثنى عليه الله جلَّ وعلا.

وكان رسول الله ﷺ يُصِرُّ على أن يذكُرَ صحابتُه لفظَ: «**عبدُه**» كما في قولهم:«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»، كي لا تقع أمته في الضلال الذي وقعت فيه الأمم السابقة حينما ألَّهت البشر، ويقول:

«**لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني رسولا**».[١٣٦]

والحق أن أولئك الذين ألَّهوا بوذا وكريشنا[١٣٧]، ولم يترددوا في جعل سيدنا عيسى عليه السلام ابنًا لله- وحاشا أن يكون له ابن-، وأولئك الذين عبدوا فرعون ونمرود، وأشقياء الناس الذين سجدوا للحيوانات أو عبدوا القوى الطبيعية مثل النار والماء والهواء، كلهم لو أدركوا حقيقة نبيِّنا محمد حقَّ الأدراك، لرأوا فيه «إلهًا» بلا ريب.

---

١٣٥ البخاري، الأنبياء، ٤٨/ ٣٤٤٥.

١٣٦ الهيثمي، جـ٩، ص٢١.

١٣٧ كريشنا: من آلهة الهندوس.

لذلك كان ﷺ يقول عن نفسه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...﴾ [١٣٨]

وكان عليه الصلاة والسلام يوضِّح عجزه الدائم في حضرة المولى عَزَّوَجَلَّ، إذ قال:

«لن يُنجِّيَ أحدًا منكم عملُه»

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة»**. [١٣٩]

أي إنه ما لم يتنزَّل عليه رحمة الله تعالى ومغفرته وكرمه وفضله، فلن يدخل الجنة، ولن ينجو بأعماله الصالحة.

فما أعظم هذا التنبيه من رسول الله ﷺ، تنبيهٌ يحمل بين طيَّاته شعورًا بالعبودية لله والتواضع والاستقامة والصدق.

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال:

«كان حديث رسول الله ﷺ القرآن، يكثر الذكر، ويُقصِر الخطبة، ويطيل الصلاة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته». [١٤٠]

---

١٣٨ الكهف: ١١٠.

١٣٩ البخاري، الرقاق، ١٨/ ٦٤٦٣؛ مسلم، المنافقون، ٧١-٧٢/ ٢٨١٦.

١٤٠ الهيثمي، جـ٩، ص٢٠؛ انظر أيضًا: النسائي، الجمعة، ٣١.



وعن أنس بن مالك ﵁ قال:

«كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خِطَامه حبل من ليف، عليه إكافُ[١٤١] ليف».[١٤٢]

وكان رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه، فيدخل الغريب فلا يعرف النبي إن لم يسأَل عنه.[١٤٣]

ولما سُئِلَت عائشة ﵂، ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت، قالت:

«كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج».[١٤٤]

«كان بشرًا من البشر يَفْلِي[١٤٥] ثوبه، ويحلُبُ شاته، ويخدم نفسه».[١٤٦]

«كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم».[١٤٧]



---

١٤١ الإكاف: ما يوضع على ظهر الحمار ليُركَب عليه.

١٤٢ الترمذي، الجنائز، ٣٢/ ١٠١٧؛ الحاكم، جـ٢، ٥٠٦/ ٣٧٣٤.

١٤٣ انظر: النسائي، الإيمان، ٦.

١٤٤ البخاري، النفقات، ٨.

١٤٥ يفلي: يخْلي عن ثوبه المؤذيات.

١٤٦ أحمد، جـ٦، ص٢٥٦.

١٤٧ أحمد، جـ٦، ص١٢١، ص١٠٦.



لقد كان رسول الله ﷺ خيرَ مثال للفطرة الحسنة في الإنسان بصدق معاملاته وتواضعه، فلم يكن سلوكه سلوكًا شكليًّا متصنعًا، بل كان أساسه الخِصال والشمائل الحميدة الكامنة في قلبه الطاهر المُطهَّر الذي لا مثيل له.

يقول عدي بن حاتم:

قام النبي ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيَتْه امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بمَلِك، ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته، تناول وسادة من أدم[١٤٨] محشوة ليفًا، فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس النبي ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال: «**إيه يا عدي بن حاتم! ألم تك ركوسيًّا[١٤٩]؟**» قلت: بلى. قال: «**أولَمْ تكن تسير في قومك بالمرباع[١٥٠]؟**» قلت: بلى، قال: «**فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك**»، قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يُعَلَّمُ ما يَجْهل.[١٥١]

١٤٨ أدَم: جمع أديم، وهو الجلد.

١٤٩ الركوسي: من الركوسية وهم قوم دينهم بين دين النصارى والصابئين.

١٥٠ المرباع: ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

١٥١ ابن هشام، جـ4، ص246-249؛ ابن كثير، البداية، جـ5، ص64-65؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ3، ص1057؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ4، ص9.



فكلُّ هذه الوقائع والأحداث توضِّح خير توضيح شخصيةَ رسول الله ﷺ السامية وجِبلَّته الطيبة.

وعن عامر بن ربيعة أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت، فانقطع شسع نعله، فأخرج رجل شسعًا من نعله[١٥٢]، فذهب يشده في نعل النبي ﷺ فانتزعها وقال: «هذه أَثَرَة، ولا أحب الأَثَرَة».[١٥٣]

ولم يكن نبي الله ﷺ الذي كان يهدي الناس وينير لهم طريق السعادة السرمدية يرجو أي منافع دنيوية، بل كان يستغني عن أمور الدنيا كلها.



النظافة واللطافة والرأفة والمرحمة في حياة نبي الرحمة

لقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس طبعًا وألطفَهم سلوكًا وأحمدَهم خُلقًا، وذلك جليٌّ في كثير من روايات الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. فلم تكن الابتسامة تفارق وجهه النيِّر عليه الصلاة والسلام.

---

١٥٢ نرى هنا مثالاً لتواضع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. فالروايات الأخرى للحديث تبيِّن أن الرجل الذي أخرج شسعًا من نعله وشدَّها في نعل النبي الكريم هو الصحابي الذي يروي الحديث. غير أنه استعمل في هذا الحديث المبني للمجهول لتواضعه الكبير. وثمة أمثلة كثيرة على تواضع الصحابة في روايات الأحاديث.

١٥٣ الهيثمي، جـ٣، ص٢٤٤؛ جـ٩، ص٢١.



وكان عليه الصلاة والسلام ذا قلب رقيق مرهف، حتى إنه رأى يومًا رجلًا يبصق على الأرض، فاحمرَّ وجهه ﷺ لما رأى، فسارعَ الصحابة وغطوا البصاق، ثم أكمل رسول الله ﷺ طريقه.

وقد كانت نظافة لباس رسول الله ﷺ تشير إلى قيمة المسلم العظيمة عند الله سبحانه تعالى، وقد أوصى رسول الله ﷺ بلبس البياض وتكفين الموتى به، لأنه أطهر وأطيب.(١٥٤)

وأمر عليه الصلاة والسلام بإصلاح اللباس وتسويته، ولم يكن يُسرُّ بالثياب الرثَّة، ولم يستحسن أن يرى الرجلَ أشعثَ الشعر واللحية، فقد كان رسول الله ﷺ ذات يوم في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده- كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته- ففعل الرجل، ثم رجع فقال النبي ﷺ:

«**أليس هذا خيرًا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان**».(١٥٥)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال:

أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شعثًا قد تفرق شعره فقال: «**أما كان يجد هذا ما يُسكِّن به شعره**»، ورأى رجلًا آخر وعليه ثياب وسخة، فقال: «**أما كان هذا يجد ماءً يغسل به ثوبه**».(١٥٦) فكان ذلك تنبيهًا منه ﷺ إلى ضرورة نظافة المسلم وحسن مظهره.

١٥٤ انظر: الترمذي، الأدب، ٤٦/ ٢٨١٠.

١٥٥ موطأ، الشَّعر، ٧/ ٣٤٩٤؛ البيهقي، شعب، جـ٨، ص٤٢٨/ ٦٠٤٣.

١٥٦ أبو داود، اللباس، ١٤/ ٤٠٦٢؛ النسائي، الزينة، ٦٠.



ومما يعرض الأحوال الحسنة الرائعة التي كان عليها رسول الله ﷺ ما حدَّثنا به أبو قرصافة رضي الله عنه حين قال:

«لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي، ورجعنا من عنده منصرفين، قالت لي أمي وخالتي: يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهًا، ولا أنقى ثوبًا، ولا ألين كلامًا، ورأينا كأن النور يخرج من فيه».[١٥٧]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلًا نادى النبي ﷺ ثلاثًا، كل ذلك يرد عليه: «**لبيك لبيك**».[١٥٨] فقابلَ بذلك رسول الله ﷺ فظاظةَ الرجل باللطافة ولينِ القول.

وكان رسول الله ﷺ ينزعج كثيرًا من رثاثة الثياب للطافته عليه الصلاة والسلام.

فعن أبي الأحوص عن أبيه، قال:

أتيت النبي عليه الصلاة والسلام في ثوب دُونٍ، فقال: «**ألك مال؟**» قلت: نعم، قال:«**من أي المال؟**» قلت: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «**فإذا آتاك الله مالًا فليرَ أثر نعمة الله عليك، وكرامته**».[١٥٩]

---

١٥٧ الهيثمي، جـ٨، ص٢٧٩-٢٨٠.

١٥٨ الهيثمي، جـ٩، ص٢٠.

١٥٩ أبو داود، اللباس، ١٤/ ٤٠٦٣؛ النسائي، الزينة، ٥٤؛ أحمد، جـ٤، ص١٣٧.

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».[١٦٠]

لكن من الواجب المحافظة على الاعتدال أثناء استعمال النِعم التي أكرمنا بها الله ﷻ. أي لا بد من الحذر من الانجرار إلى الإفراط في الإسراف باسم الحذر من التفريط في الشح. فالله سبحانه وتعالى يقول في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...﴾[١٦١]

فهذي الحقائق تُجلِي للبصائر أن كُلًّا من نظافة الظاهر وجماله بصورة معتدلة، وطهارة القلب ونقاوته يُتمِّم بعضه بعضًا في الإسلام.

ويجب على كل مسلم يلبس لباسًا جديدًا جميلًا أن يدعو مثل دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام مدركًا أن النعم كلها لطف وكرم من عند الله ﷻ كي لا يقع في الغرور والكِبْر. فحينما كان رسول الله ﷺ يلبس الجديد يدعو قائلًا:

«اللهم لك الحمد أنت كسوتَنيه، أسألك من خيره وخير ما صُنعَ له، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما صُنعَ له».[١٦٢]

فيبيِّن لنا وجوب استعمال كل نعمة في سبيل رضا الله ﷻ.

---

١٦٠ الترمذي، الأدب، ٥٤/ ٢٨١٩؛ أحمد، جـ٢، ص٣١١.

١٦١ الإسراء: ٢٧.

١٦٢ أبو داود، اللباس، ١/ ٤٠٢٠؛ الترمذي، اللباس، ٢٩/ ١٧٦٧.



وكان عليه الصلاة والسلام يحذِّر أمته من نار جهنم، إذ بيَّنَ أن الذين يلبسون الجديد ويخالجهم شعور الغرور والكِبر والعُجب سيكون لباسهم ذلك حسرة وندامة.

ولم يفُهْ رسول الله ﷺ بكلمة فاحشة بذيئة، وكان يقول:

«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء».[١٦٣]



وقد سابب أبو ذر الغفاري بلالًا الحبشي ﷺ، فعيَّره بأمه قائلًا: «يا ابن السوداء»، فقال له النبي ﷺ:

«يا أبا ذر أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية».[١٦٤]

فألقى أبو ذر ﷺ نفسه على الأرض، ثم وضع خده على التراب، وقال: «والله لا أرفع خدي من التراب حتى يطَأ بلال خدي بقدمه...» فكان ذاك توبةً منه وطلبًا للعفو عمَّا قال...

وكان رسول الله ﷺ يخدم ضيوفه بنفسه، ويكرمهم للطافته وحسن معاشرته.[١٦٥] ولم يجادل أحدًا أو يخاصمه حتى في طفولته. وكان يُعرَف برأفته على الفقراء واليتامى والمساكين والأرامل.

---

١٦٣ الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢.

١٦٤ البخاري، الإيمان ٢٢، العتق ١٥؛ مسلم، الأيمان ٤٠/ ١٦٦١.

١٦٥ انظر: البيهقي، شعب، جـ٦، ص٥١٨، جـ٧، ص٤٣٦.



وعن أنس بن مالك ﵁ قال:

«ما شممت عنبرًا قط، ولا مِسكًا قط، ولا شيئًا أطيبَ من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست شيئا قط ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من رسول الله ﷺ».

قال ثابت- أحد طلبته-:

«يا أبا حمزة ألست كأنك تنظر إلى رسول الله ﷺ وكأنك تسمع إلى نغمته؟».

فقال: «بلى والله إني لأرجو أن ألقاه يوم القيامة، فأقول يا رسول الله، خويدمك».

وقال: «خدمته عشر سنين بالمدينة وأنا غلام ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن يكون، ما قال لي فيها: أف، ولا قال لي: لمَ فعلت هذا؟ وألا فعلت هذا!».(١٦٦)



لقد عمَّت رحمة نبينا الكريم محمدٍ ﷺ المخلوقات كلها. فكان عندما يرى طفلًا، يظهر على وجهه السرور والمحبة، وكان يحضن أطفال الصحابة، ويمسح على رؤوسهم، ويسلِّم على الأطفال في طريقه. وكان يحبهم حبًّا عظيمًا ويمازحهم أحيانًا. وقد رأى ذات مرة جماعة من الأطفال يتسابقون، فسابَقَهم.

---

١٦٦ انظر: أحمد، جـ٣، ص٢٢٢؛ البخاري، الصوم٥٣، المناقب٢٣؛ مسلم، الفضائل ٨٢.



وكان رحمة العالمين عليه الصلاة والسلام إذا لقي الأطفال وهو على ناقته أركبهم معه. يقول أنس ﵁ في هذا الشأن:

«ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»

«كان إبراهيم مُسترضِعًا له في عوالي المدينة(١٦٧)، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليُدَّخَنُ، وكان ظِئرُه(١٦٨) قَينًا(١٦٩)، فيأخذه فيقبله، ثم يرجع».(١٧٠)

وهاكم حديثًا يوضِّح خير توضيح رحمة الإسلام ورأفته بالأولاد: عن السيدة عائشة ﵂ قالت:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تُقبِّلون الصبيان؟ فما نقبِّلهم، فقال النبي ﷺ:

«**أَوَأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**».(١٧١)

وعن أسامة بن زيد ﵄:

كان النبي ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «**اللهم ارحمهما فإني أرحمهما**» (١٧٢)

---

١٦٧ عوالي المدينة: القرى التي عند المدينة.

١٦٨ الظئر هي المرضعة.

١٦٩ القَينْ: العبد أو الأمَة.

١٧٠ مسلم، الفضائل، ٦٣.

١٧١ البخاري، الأدب، ٢٢/ ٥٩٩٨.

١٧٢ البخاري، الأدب، ١٨؛ مسلم، الفضائل، ٦٤.

فقول النبي ﷺ هذا، ومنعُه الدعاء على الأولاد من أجمل مظاهر المحبة العظيمة والرأفة والرحمة المكنونة في قلبه للأولاد.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال:

«صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى[١٧٣]، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدَّي أحدهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسح خدي، قال: فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جؤنة[١٧٤] عطار».[١٧٥]

ومن دلائل رفقه ورأفته الكبيرة أنه كان يقصر القراءة في الصلاة إن سمع ولدًا يبكي[١٧٦]، وأنَّ لحيته كانت تبتل من البكاء في الليالي وهو يدعي لأمَّته، وأنه قد أمضى عمره كله حريصا أن يُنجيَ الناس من نار جهنم.

وقد شملت مرحمته عليه الصلاة والسلام حتى الأموات. فمن أعظم ما يُخشى منه على الميت ما تركه من حقوق العباد. لذا لم يكن النبي ﷺ يصلي على الميت حتى تؤدَّى حقوق العباد التي عليه.[١٧٧]

١٧٣ قال النووي: صلاة الأولى: صلاة الظهر.

١٧٤ الجؤنة: سلَّة مستديرة.

١٧٥ مسلم، الفضائل، ٨٠.

١٧٦ البخاري، الأذان، ٦٥.

١٧٧ البخاري، الفرائض، ٤، ١٥، ٢٥؛ مسلم، الفرائض، ١٤.



ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يحزن كثيرًا إن وُضِع الميت في القبر ولم تؤدَّ عنه حقوق العباد، فقد كان نبي الرحمة والرأفة على جميع أمته.

عفو نبي الرحمة

إن الله تعالى يحبُّ العفوَ، وقد كتب على نفسه أن يقبل توبة العبد إن ندم على ذنبه بقلبه. والله تعالى يريد من عباده أن يعفوا لأنه يحب العفو. وأحسن الطرق لنيل العفو الإلهي أن يكون العبد عفوًّا.

وخير أمثلة العفو نجدها في حياة نبينا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

ففي الحديبية قبض الصحابة الكرام على جماعة يريدون قتل رسول الله، فعفا عنهم عليه الصلاة والسلام.[١٧٨]

وقد أوحى اللهُ تعالى إلى رسولَه الكريم فخبَّره عن لبيد المنافق الذي أقدم على سِحر النبي ﷺ وعمَّن حرَّضوه على ذلك. غير أنه عليه الصلاة والسلام لم يرَ وجه لبيد ولم يعيِّره بفعلته، ولم يعاقب رسول الله ﷺ لبيدًا الذي أراد قتله ولا قبيلته بني زريق.[١٧٩]

---

١٧٨ مسلم، الجهاد، ١٣٢، ١٣٣.

١٧٩ انظر: ابن سعد، جـ٢، ص١٩٧؛ البخاري، الطب، ٤٧، ٤٩؛ مسلم، السلام، ٤٣؛ النسائي، التحريم، ٢٠؛ أحمد، جـ٤، ص٣٦٧، جـ٦، ص٥٧؛ العيني، جـ٢١، ص٢٨٢.

فقالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله فهلَّا، تعني تَنَشَّرْتَ؟، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**أمَّا اللهُ فقد شفاني، وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرًّا**».[١٨٠]

لقد عفا رسول الله ﷺ عمَّن أساء إليه إساءة عظيمة مع أنه كان قادرًا على معاقبته، ولم يعيِّره بذنبه بكلمة ولا حتى بإشارة. فرسول الله ﷺ لا يحب أن يُساءَ لأي أحد مسلمًا كان أم كافرًا، بل كان يعامل كل امرئ بأدب عظيم وأخلاق حميدة.

وقد وضعت امرأةٌ يهودية السم في طعام رسول الله بعد فتح خيبر. فعرف رسول الله ﷺ لمَّا وضع لحم الشاة في فيه أن الطعام مسموم. فاعترفت المرأة اليهودية أنها وضعت السم في الطعام، ومع ذلك عفا عنها رسول الله ﷺ.[١٨١]

ولمَّا أسلمَ ثمامة بن أثال زعيم قبيلة اليمامة، قطع علاقته التجارية بمشركي مكة. وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة، فلما أضرَّ بهم، كتبوا إلى رسول الله ﷺ: إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم، وتحض عليها، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرَّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلِّيَ بيننا وبين ميرتنا فافعل. فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن خلِّ بين قومي وبين ميرتهم.[١٨٢]

---

١٨٠ البخاري، الأدب، ٥٦/ ٦٠٦٣.

١٨١ البخاري، الطب، ٥٥؛ مسلم، السلام، ٤٣.

١٨٢ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ١، ص٢١٤-٢١٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ١، ص٢٩٥.



مع أن أولئك المشركين أنفسهم قد أنزلوا بالمسلمين أشد العذاب لما قاطعوهم في مكة ثلاث سنوات. لكن نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام عفا عنهم على كل ما فعلوه.

وبعد فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة، بلغه ﷺ ما فيه أهل مكة من الضر والحاجة والجدب والقحط فبعث إليهم بشعير ذهب، وقيل نوى ذهب... وأخذه أبو سفيان كلَّه وفرَّقه على فقراء قريش، وقال: جزى الله ابن أخي خيراً فإنه وَصُولٌ لرَحِمِه.[١٨٣]

فرقَّت أفئدة أهل مكة أمام مثل تلك الفضائل العظيمة، وأسلموا جميعًا بعد مدة.

وقد عفا النبي ﷺ في فتح مكة حتى عن هند بنت عتبة عندما أسلمت، وهي التي أمرت بقتل حمزة عم النبي ﷺ ولاكت كبده.

إذ قدِمت هند مع نسوة من قريش يردن مبايعة رسول الله ﷺ. وكانت قد بدَّلت نقابها متنكرة خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة. فلما سكتت النسوة، قالت هند:

يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتمسني رحمتك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة. ثم كشفت عن نقابها فقالت: هند بنت عتبة، فاعفُ عمَّا سلف يا نبيَّ الله عفا الله عنك. فقال رسول الله ﷺ: «**مرحبًا بك**». فقالت: والله يا رسول

١٨٣ اليعقوبي، جـ٢، ص٥٦.



الله، ما كان على الأرض من أهل خباء[١٨٤] أحب إليَّ أن يُذلُّوا من أهل خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يُعزُّوا من أهل خبائك. فقال النبي ﷺ: «**وزيادة أيضًا!**».[١٨٥]

لقد عفا رسول الله ﷺ عن هند وكثيرين غيرها إعظامًا وإجلالًا لكلمة التوحيد.

وقد سأل نبي الرحمة محمد ﷺ أهل مكة الذين كانوا يرقبون مصيرهم بعد الفتح:

«**ماذا تقولون وماذا تظنون؟**» قالوا: نقول خيرًا ونظن خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت! فقال رسول الله ﷺ: «**فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**[١٨٦]».

وفي خطاب آخر قال:

«**اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا**».[١٨٧]

وقد بايع أهل مكة النبي محمدًا ﷺ على الإسلام، وتعهدوا له بإطاعة أوامر الله ورسوله ما استطاعوا.

---

١٨٤ الخِبَاءُ: بيت من وبر أو شعر أو صوف، يكون على عامودين أو ثلاثة.

١٨٥ الواقدي، جـ٢، ص٨٥٠؛ الطبري، جـ٢٨، ص٩٩؛ الزمخشري، جـ٦، ص١٠٧.

١٨٦ يوسف: ٩٣.

١٨٧ ابن هشام، جـ٤، ص٣٢؛ الواقدي، جـ٢، ص٨٣٥؛ ابن سعد، جـ٢، ص١٤٢-١٤٣.



فعن أبي العباس ﵁ أنه قال:

لما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح، قال لي: «**يا عباس أين ابنا أخيك [أبي لهب] عتبة ومعتب لا أراهما؟**» قلت: يا رسول الله، تنحَّيا فيمن تنحَّى من مشركي قريش، فقال لي: «**اذهب إليهما وأتني بهما**».

قال العباس: فركبت إليهما بعُرَنَة، فأتيتهما، فقلت: إن رسول الله ﷺ يدعوكما، فركبا معي سريعين حتى قدِمَا على رسول الله ﷺ، فدعاهما إلى الإسلام، فأسلمَا، وبايعَا، ثم قام رسول الله ﷺ، فأخذ بأيديهما، وانطلق بهما يمشي بينهما حتى أتى بهما المُلتَزَم[١٨٨]، وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود، فدعا ساعة، ثم انصرف والسرور يُرَى في وجهه، قال العباس: فقلت له: سرَّك الله يا رسول الله، فإني أرى في وجهك السرور، فقال النبي ﷺ:

«**نعم إني استوهبت ابنَي عمي هذين ربي، فوهبهما لي**».[١٨٩]

١٨٨ المُلتزَم: مكان بين باب الكعبة والحجر الأسود، وفيه وضع رسول الله عليه الصلاة والسلام صدره ووجهه وذراعيه وكفيه على جدار الكعبة، وبسطَ يديَه ودعا الله تعالى. [أبو داود، المناسك، ٥٤/ ١٨٩٩].

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما بين الركن والمقام مُلتَزَمٌ، ما يدعو به صاحب عاهة إلا بَرَأَ». [الهيثمي، جـ٣، ص٢٤٦].

١٨٩ ابن سعد، جـ٤، ص٦٠؛ السيوطي، الخصائص الكبرى، جـ٢، ص٨٢؛ الحلبي، إنسان العيون، جـ٣، ص١٣٩.

لقد كان أبو لهب وابنَاه ألدَّ أعداء رسول الله عليه الصلاة والسلام، إذ أساؤوا إلى رسول الله كثيرًا. غير أن رسول الله عليه الصلاة والسلام عفا عن ابنَيه عندما نطقَا بكلمة التوحيد. ولو عاش أبو لهب وآمن بالله سبحانه وتعالى، لعفا عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام بلا ريب، ولَسُرَّ سرورًا عظيمًا بإسلامه. غير أن قدرَ الله تعالى يبقى مجهولًا يفوق حدود إدراكنا.

وكان عكرمة بن أبي جهل من أعداء الإسلام البارزين. وبعد فتح مكة هربَ إلى اليمن، ثم أحضرته زوجته إلى النبي محمد ﷺ وقد أسلمَ، فقال له رسول الله ﷺ برضا:

«**مرحبًا بالراكب المهاجر**».[١٩٠] وعفا عمَّا ارتكبه من ظلم للمسلمين.

وكان هبَّار بن الأسود من أشدِّ أعداء المسلمين، ولمَّا هاجرت زينب بنتُ النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ضربها بالرمح وكانت حبلى فسقطت، وأسقطت هناك ما في بطنها، وكان سقوطها ذلك سببًا في وفاتها فيما بعد.

ولم يقتصر هبَّار على هذا الجرم فحسب، بل جارَ على المسلمين كثيرًا. ولمَّا فُتِحَت مكة هربَ ولم يُقبَض عليه. وبينا رسول الله ﷺ جالس بالمدينة في أصحابه إذ طلع هبَّار بن الأسود،

١٩٠ الترمذي، الاستئذان، ٣٤/ ٢٧٣٥.



وقد جاء مُقِرًّا بالإسلام. فقبل منه رسول الله ﷺ، وعفا عنه. ومنع أصحابه من تحقيره والتعرض له.[191]

فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [192]

وكان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعو الله سبحانه وتعالى أن يغفر لأمته.[193]



لقد كان رسول الله ﷺ قرآنًا حيًّا، إذ كان يعفو دون تردد عن كل جرم ارتُكِب بحقِّه. أما إن كان الجرم بحق الناس، فلم يكن يهدأ حتى تُردَّ الحقوق لأهلها، ويأخذ كل ذي حقٍّ حقَّه.

فلمَّا كلَّم أسامةُ رضي الله عنه- وكان أحبَّ الصحابة للنبي ﷺ- سيدَنَا محمدًا في امرأة قد سرقت وكانت من أسرة مشهورة، احمرَّ وجهه عليه الصلاة والسلام وقال:

«**والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعتُ يدها**».[194]



---

١٩١ انظر: الواقدي، جـ٢، ص٨٥٧- ٨٥٨.

١٩٢ الأعراف: ١٩٩.

١٩٣ ابن ماجه، المناسك، ٥٦؛ أحمد، جـ٤، ص١٤.

١٩٤ البخاري، الحدود، ١٢/ ٦٧٨٧.

إن صفحة الغضب في كتاب الحياة صفحة مظلمة، والسبيل للخلاص من هذا الخطر العظيم استعمال سلاح الصبر والأخوة أمام هذه الفورة المنفِّرة، والالتجاء إلى السكينة دون إفساد الاعتدال والتوازن.

وما أعظم تضحية الصحابة الكرام وعفوهم الذي لا نجد له مثيلًا فيما يخصهم؛ وكيف لا يكون ذلك حالهم وهم من تربوا بين يدَي رسول الله ﷺ! والحادثة التالية التي مرَّ بها سيدنا علي رضي الله عنه دليلٌ على ما ذكرناه:

في إحدى الغزوات كان سيدنا علي رضي الله عنه يقاتل رجلًا من صناديد الرجال، فطال بينهما القتال، وفي النهاية تمكَّن رضي الله عنه من خصمه وأسقطه جريحاً تحته. ولما هَمَّ بقتله بَصَقَ المُشرِك في وجه سيدنا علي رضي الله عنه والسيف في الهواء يُوشك أن يهوي به. فما كان منه رضي الله عنه إلا أن أرجع سيفه إلى غمده، وانصرف عنه ولم يقتله.

فلما سُئِل قال: لقد كنت أقاتله لله فلما بَصَقَ في وجهي، أحسست بأني أريد الانتقام لنفسي فتركته.

وقد عبَّر مولانا جلال الدين الرومي عن تلك الحادثة تعبيرًا نابعًا من أعماق قلبه فقال:

قال الرجل: يا علي، قد وضعتَ سيفك الحاد في رقبتي! وكدتَ تقتلني فتركتني وعفوت عني! فلمَ فعلت ذلك؟ ماذا رأيتَ حتى سكنَ ذلك الغضب الذي طرحَني أرضًا؟



يا أيها البطل الذي لا يُقهَر في ساحات الوغى! الطف عليَّ واشرح ليَ شيئًا من حالك! ما هذي الأحوال التي أنت عليها؟

يا علي، قد فهمت الآن أن ذلك من أسرار الحق تعالى. فقتلُ رجل بلا سيف أمرٌ لله تعالى. اشرح لي هذا السر!.

فقال سيدنا علي رضي الله عنه بعد كلام خصمه:

يا رجل، اِعلَم أنَّي أحمل سيفي في سبيل رضا الحق تعالى، لأني عبد الله، لا عبد النفس والهوى والوساوس.

لقد عرفتُ نفسي، واستثقلت أن يغلبني بصاقك. وأرجعت سيفي إلى غمده لخشيتي من شر نفسي. لذلك لم التفت إلى ما سوى رضا الله تعالى.

إنني مثل السيف المزيَّن بالجواهر مليء بلآلئ التوحيد، أبذل جهدًا في إحياء الناس أكثر من قتلهم في المعارك.

لذلك حينما بصقت في وجهي أثناء المبارزة ظهرت حال نفسانية-، ففضَّلتُ إرجاعَ سيفي إلى غمده، لعلَّني بذلك أكون من السعداء الذين يحبون لله ويبغضون لله.

وعندما يكون الحديث عن أسير النفس والشهوة، فحاله أسوء من حال العبد والأسير، لأن العبد قد يغدو حرًّا بكلمة من سيده، أما عبد النفس والشهوة فيسكر في لذات فانية يلتذذ بها، ثم يصحو فيجدُ نفسَه في خسران أبدي.



لذلك لم أتَّبع هوى نفسي وأمسكت عن قتلك.

يا رجل، لا صفة عندي غير صفات الحق تعالى. فإن أردت أن تدخل حِمَى هذه الهداية، هلمَّ إليَّ!.

اقترب، ليعتقك الله بفضله ورحمته! فرحمته تسبق غضبه.

ثم قال سيدنا علي ﵁ لهذا الرجل السعيد الذي تشرَّف بنور الهداية:

الآن قد نجوت من الخطر، وعرفت نفسك، وغدوت كالجوهرة النادرة بنور الهداية.

يا أيها الرجل الذي تشرَّف بنور الله، الآن أنت أنا، وأنا أنت؛ أي إنك عليٌّ أيضًا. وإن كان الحال كذا، فكيف لا أضمُّ عليًّا إلى صدري؟.



جودُ نبي الرحمة

يقول سيدنا ابن العباس ﵄ عن جود سيدنا محمد ﷺ:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ﵇، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».[١٩٥]

١٩٥ البخاري، بدء الوحي ٥، ٦، الصوم ٧؛ مسلم، الفضائل، ٤٨، ٥٠.



وعن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما قالا:

«كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضان، أطلق كل أسير وأعطى كل سائل».[196]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال:

«ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا».[197]

ومن أخلاق نبينا محمد ﷺ أنه لم يكن يردُّ سائلًا، فإن لم يكن عنده شيء استرضاه بوجه طلق وكلمة طيبة.

والمثال التالي يعرض لنا جمال جود رسول الله ﷺ:

بينما رسول الله ﷺ قاعدًا فيما بين أصحابه، أتاه صبي فقال: يا رسول الله، إن أمي تَستَكْسِيكَ درعًا، ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلا قميصه، فقال للصبي: «**من ساعة إلى ساعة يظهر [كذا] فَعُدْ [إلينا] وقتًا آخر**»، فعاد إلى أمه، فقالت: قل له: إن أمي تستكسيك القميصَ الذي عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره، ونزع قميصه وأعطاه، وقعد عريانًا؛ فأذن بلال للصلاة فانتظروه فلم يخرج، فشغل قلوب الصحابة، فدخل عليه بعضهم فرآه عريانًا.[198]

---

١٩٦ ابن سعد، جـ١، ص٣٧٧.

١٩٧ مسلم، الفضائل، ٥٦.

١٩٨ الواحدي، ص٢٩٤-٢٩٥.

وقد وصف رسول الله ﷺ نفسَه بأنه مسؤول عن الإنفاق، وبيَّن أن الصاحب الحقيقي لكل شيء إنما هو الله سبحانه وتعالى.

وقد شهد صفوان بن أمية- وكان من أكابر مشركي قريش- حُنينًا والطائف مع رسول الله ﷺ ولم يكن مسلمًا آنذاك. ثم رجع النبي ﷺ إلى الجعرانة، فبينا رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شِعب مُلئ نَعَمًا وشَاءً ورِعَاءً، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشِعب؟**» قال: نعم. قال: «**هو لك وما فيه**». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله! وأسلم مكانه.[199]

ولما رجع إلى قومه قال:

«يا قوم أسلموا، فوالله إن محمدًا ليعطي عطاءً ما يخافُ الفقر».[200]

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

«ما عندي شيء أعطيك، ولكن استقرض حتى يأتينا شيء **فنعطيك**».[201]

١٩٩ الواقدي، جـ٢، ص٨٥٤-٨٥٥.

٢٠٠ مسلم، الفضائل، ٥٧-٥٨؛ أحمد، جـ٣، ص١٠٠٧-١٠٠٨.

٢٠١ الهيثمي، جـ١٠، ٢٤١/ ١٧٧٧٩؛ أبو داود، الخراج، ٣٣-٣٥/ ٣٠٥٥.



وكان النبي ﷺ كجده إبراهيم عليه السلام لا يأكل الطعام وحده. وكان يأمر بإيفاء دين الميت أو كان يوفيه بنفسه، ولم يكن يصلي على الميت إن كان عليه حق لأحد، ويقول في الحديث الشريف:

«**السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار**».[٢٠٢]

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق**».[٢٠٣]

ولم يكن ﷺ يطمئن ويسكن حتى يوزِّع حصته من الغنائم، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

إن أناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين نفد كل ما في يديه: «**ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ الله، ومن يتصبَّر يُصبِّره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**».[٢٠٤]



٢٠٢ الترمذي، البر، ٤٠/ ١٩٦١.

٢٠٣ الترمذي، البر، ٤١/ ١٩٦٢.

٢٠٤ البخاري، الرقاق، ٢٠/ ٦٤٧٠.



جودُ أصحابه

إن الناظر في أحوال الصحابة الكرام يراهم وكأنهم يتنافسون ليتخلقوا بأخلاق الأسوة الحسنة سيدنا محمد ﷺ، فكانوا رضوان الله عليهم أجمعين يسعون للفناء في تلك الأخلاق النبوية.

وكان من بين صحابة رسول الله ﷺ صحابةٌ ذوو مال قانعةٌ قلوبهم وراضيةٌ بما قسمَ الله لها، وقد نالوا مدح رسول الله ﷺ وثناءه لأنهم بذلواأموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وقد بشَّرهم المولى ﷻ في قوله:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (٢٠٥).

ومن هؤلاء الصحابة الكرام سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الذي كان يعيش حياة التواضع، مع أنه كان من أغنياء قريش وكبار تجَّارها، وكان أقرب الصحابة إلى رسول الله ﷺ، وقد وُصِفَ في القرآن الكريم بأنه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾. ولم يترك رضي الله عنه وراءه شيئًا يورثه، فقد استعمل ماله على أفضل صورة وجعلها كلها لرسول الله ﷺ، وصرف ثروته كلها في سبيل الله تعالى، لا سيما في بداية الدعوة الإسلامية وفي الأوقات الصعبة التي مرَّ بها المسلمون إذ كان يشتري العبيدَ المسلمين ويعتقهم وينقذهم من أنواع شتى من العذاب.

---

٢٠٥ التوبة: ١١١.



ولم يكن أبوه أبو قحافة يُسَرُّ بإنفاقه أمواله على هذا النحو، فقال لابنه أبي بكر:

«أي بنيَّ، أراك تعتق أناسًا ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالًا جَلْدًا يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك».

فقال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

«أي أبتِ، إنما أريد ما عند الله».

فنزل قول الله تعالى ثناءً على كرم سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾(٢٠٦)

فلم تمنعه ثروته رضي الله عنه عن الزهد، لا بل استعمل ماله كما ينبغي، وصار قدوة حية لكل غني يريد أن يعيش حياة الزهد. لذلك قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرِّمًا إياه وماله:

«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله به يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلا...».(٢٠٧)

---

٢٠٦ [الليل: ٥-٧]: ابن هشام، سيرة النبي، بيروت ١٩٣٧، دار الفكر، جـ١، ص٣٤١؛ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت ١٩٩٥، جـ٣٠، ص٢٧٩ [تفسير سورة الليل ٥-٧]؛ السيوطي، لباب النقول، بيروت ٢٠٠٦، ص٢٥٧-٢٥٨.

٢٠٧ الترمذي، المناقب، ١٥/ ٣٦٦١.

والأمثلة التالية تعكس لنا تنافس الصحابة الكرام في الفضائل:

فعن عمر بن الخطاب ﵁ قال:

أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**»، قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر ﵁ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقه إلى شيء أبدًا.[٢٠٨]

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال:

خرجت مع عمر ﵁ إلى السوق، فلحقت عمرَ امرأةٌ شابةٌ، فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارًا، والله ما يُنضِجُون كُرَاعًا[٢٠٩]، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خُفَاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يمضِ، ثم قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعيرٍ ظَهيرٍ[٢١٠] كانَ مربوطًا في الدار، فحمل عليه غِرارَتَين[٢١١] ملأهما طعامًا، وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم

٢٠٨ أبو داود، الزكاة، ٤٠/ ١٦٧٨؛ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٧٥.

٢٠٩ الكراع ما دون الكعب من الدواب.

٢١٠ ظهير: قوي الظهر معدٌّ للحاجة.

٢١١ غرارتين: تثنية غِرارة وهي وعاء يتخذ للتبن وغيره.



ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرت لها؟ قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها، قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سُهمَانَهُما فيه.[٢١٢]

والحادثة التالية توضِّح لنا مناقب سيدنا عمر بن الخطاب ﵁:

عن أسلم أن عمر بن الخطاب ﵁ طاف ليلةً، فإذا هو بامرأة في جوف دار لها وحولها صبيان يبكون، وإذا قِدر على النار قد ملأتها ماءً. فدنا عمر من الباب فقال: يا أَمَةَ الله! ما بكاء هؤلاء الصبيان؟ قالت: بكاؤهم من الجوع، قال: فما هذه القِدر التي على النار؟ قالت: قد جعلت فيها ماء هو ذا أعلِّلهم به حتى يناموا وأوهمهم أن فيها شيئًا دقيقًا. فبكى عمر ثم جاء إلى دار الصدقة، وأخذ غِرارة وجعل فيها شيئًا من دقيق وشحم وسمن وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغِرارة ثم قال: يا أسلم! احملْ عليَّ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك؟ فقال لي: لا أمَّ لك يا أسلم! أنا أحمله لأني أنا المسؤول عنهم في الآخرة، فحمله حتى أتى به منزل المرأة، فأخذ القِدر فجعل فيها دقيقًا وشيئًا من شحم وتمر، وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته حتى طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا. ثم خرج وربض

---

٢١٢ البخاري، المغازي، ٣٥.

بحذائهم حتى كأنه سبع، وخفت أن أكلمه، فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا. ثم قام فقال: يا أسلم، تدري لَمَ ربضت بحذائهم؟ قلت لا، قال: رأيتهم يبكون فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي.[٢١٣]

ولم يكن أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يميلان إلى عظمة الدنيا وأبهتها وفخامتها أثناء خلافتهما؛ بل عاشا وهما يلبسان الثياب المرقَّعة، فأذهلا بسلوكهما ملوك فارس وروما، لأنهما كانا خير من اتَّبع سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم.

ولا ريب أن أحوالهم الحسنة هذه نراها في غيرهم من الصحابة الكرام أيضاً:

إذ وقف سائل على أمير المؤمنين علي، فقال للحسن أو الحسين: اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهاتِ منها درهمًا، فذهب ثم رجع فقال: قالت إنما تركت ستة دراهم للدقيق، فقال علي: لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، قل لها ابعثي بالستة دراهم فبعثت بها إليه فدفعها إلى السائل. فما حلَّ حبوته حتى مر به رجل معه جمل يبيعه، فقال عليٌّ: بكم الجمل؟ قال: بمئة وأربعين درهمًا، فقال علي: اِعقلْه على أنا نؤخرك بثمنه شيئًا، فعقله الرجل ومضى، ثم

٢١٣ علي المتقي، كنز العمال، جـ٧، ٦٤٨/ ٣٥٩٧٨.



أقبل رجل فقال: لمن هذا البعير؟ فقال علي: لي فقال: أتبيعه؟ قال: نعم، قال: بكم؟ قال بمئتي درهم، قال: قد ابتعته، قال: فأخذ البعير وأعطاه المئتين، فأعطى الرجل الذي أراد أن يؤخره مئة وأربعين درهمًا، وجاء بستين درهمًا إلى فاطمة، فقالت: ماهذا؟ قال: هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه ﷺ:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٢١٤]. [٢١٥]

والحادثة التالية التي يرويها سيدنا حذيفة رضي الله عنه تبيِّن لنا الإيثار الذي كان يتحلَّى به الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، تلك الحادثة كانت في وقعة اليرموك حيث اشتد القتال وحميَ الوطيس، وتساقط المسلمون شهداءَ وجرحى تحت ضربات السهام والرماح على لهيب الرمال الحارقة، يقولأبو الجهم بن حذيفة العدوي:

انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي، ومعي شَنَّةٌ[٢١٦] من ماء، فقلت: إن كان به رمق سقيته من الماء، ومسحت به وجهه، فإذا به ينشع[٢١٧]، فقلت: أسقيك؟ فأشار: أن نعم، فإذا رجل يقول: آه،

---

٢١٤ الأنعام: ١٦٠.

٢١٥ علي المتقي، كنز العمال، جـ٦، ٥٧٢-٥٧٣/ ١٦٩٧٦.

٢١٦ الشنَّة: قِرْبَة صغيرة.

٢١٧ نشع الرجل نشوعاً: كرب من الموت، ثم نجا، ونشعاً: شهق.

فأشار ابن عمي: أن انطلق به إليه، فإذا هو هشام بن العاص، أخو عمرو بن العاص، فأتيته، فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر، يقول آه، فأشار هشام: أن انطلق به إليه، فجئت، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات.[٢١٨]

ثم يعقب أبو الجهم على تلك الحال الروحانية التي عاشها:

لقد مرَّت بي أحداث كثيرة، غير أن أيًّا منها لم تؤثِّر فيَّ ما أثَّرت هذه الحادثة. ووقفت مندهشًا أمام الإيثار والتضحية والرأفة بين هؤلاء الثلاثة مع عدم وجود رابطة قرابة بينهم، وجلادة الإيمان العظيم تلك [أي قدرتهم على توديع هذه الحياة مدركين معنى الآية الكريمة: ﴿...**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[٢١٩]] تركت آثارًا لا تُمحَى في ذاكرتي.



٢١٨ انظر: القرطبي، جـ١٧، ص٢٨؛ الزيلعي، نصب الراية، جـ٢، ص٣١٨؛ الحاكم، جـ٣، ٢٧٠/٥٠٥٨.

٢١٩ آل عمران: ١٠٢.



إخلاص نبي الرحمة وصدقه ونزاهته

لقد كان رسول الله ﷺ يحزن كثيرًا لحال من لا يعرفون الذنب والثواب والأمر والنهي، وكان يطوف على الأبواب كلها لتبليغ دين الله ﷻ، فكانت بعضها تُغلَق في وجهه، فما كان يحزن للسلوك الفظ الذي يُعامَل به، بل يحزن لجهل أولئك الناس وغفلتهم.

وكان يقول لمثل هؤلاء: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ (٢٢٠) ويبيِّن لهم أنه يبلغ الدين إرضاءً لله تعالى لا غير.

وما بلغَ أحد من الناس ما بلغه رسول الله ﷺ في الصدق والأمانة. لقد كان يتيمًا يعمل في التجارة مع عمه أبي طالب، وعُرِفَ بأمانته وعدله في التجارة، وفاز باحترام الجميع، حتى إن الناس كلهم فقيرهم وغنيهم كانوا يسمُّونه «**الأمين**».

وقد أُعجِبَت السيدة خديجة رضي الله عنها التي كانت من أشرف سيدات مكة بأمانته، وطلبت منه الزواج، فكانت أكبر عون وأعظم سند للنبي ﷺ طوال حياتها. إذ لما جاءه الوحي أول مرة وفزع ﷺ مما رآه، وقفت السيدة خديجة رضي الله عنها إلى جنبه تخفِّف عنه وتثبته وترفع معنوياته، وواسته في الأيام العصيبة.

لقد عاش رسول الله ﷺ حياةً طاهرة مطهرة، حتى إن الذين لم يصدِّقوا نبوَّته لرغباتهم النفسانية لم يجدوا بدًّا من تصديقه بالقلب.

---

٢٢٠ ص: ٨٦.

ولا يوجد أحد منذ ولادة الإسلام إلى يومنا هذا، أي ما يزيد على ١٤٠٠ سنة، إلا ويعترف- بقلبه- بأمانته. حتى إن اليهود أعداء الإسلام كانوا يأتون إليه عندما يختلفون فيما بينهم، فكان رسول الله ﷺ يحلُّ خلافهم. وقد عدلَ رسول الله ﷺ في شأن اليهود والنصارى وما ظلمهم شيئًا.

وقد أوصى النبي ﷺ سيدَنا عليًّا رضي الله عنه في موضوع العدل فقال:

«إذا تقدم إليك خصمان فلا تسمع كلام الأول حتى تسمع كلام الآخر، فسوف ترى كيف تقضي».(٢٢١)

وقد ترك النبي ﷺ قبل هجرته عليًّا رضي الله عنه في مكة كي يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان النبي عليه الصلاة والسلام ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته عليه الصلاة والسلام.(٢٢٢)



حياء نبي الرحمة

لقد كان رسول الله ﷺ- كما أخبرنا الصحابةُ الكرام- أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، ولم يرفع ﷺ يومًا صوته، وكان يمر على الناس بَاسمَ الوجه، وإن سمع من أحدٍ ما لا يسره من القول لم ينبِّهه

٢٢١ أحمد، مسند، جـ١، ص٩٠/ ٦٩٠.

٢٢٢ انظر: ابن هشام، جـ٢، ص٩٥، ٩٨.



باسمِه، وكان الصحابة يستشفون حاله من تعابير وجهه، فيحتاطون في كلامهم وحركاتهم، ولم يقهقه ﷺ يومًا لشدة حيائه، بل كان ضحكه تبسُّمًا، وهو ﷺ القائل:

«الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار».[223]

وقال منبِّهًا إلى أهمية الحياء:

«الحياء والإيمان في قرن، فإذا سُلِب أحدهما اتبعه الآخر».[224]

«الحياء لا يأتي إلا بخير».[225]

«الحياء خير كله».[226]

«ما كان الفحش في شيء إلا شانَه، وما كان الحياء في شيء إلا زانَه».[227]

وقد رأى رسول الله ﷺ رجلًا يغتسل بالبَرَاز[228] بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال عليه الصلاة والسلام:

٢٢٣ الترمذي، الحياء، ٢٠٠٩؛ أحمد، جـ٢، ص٥٠١.

٢٢٤ الطبراني، الأوسط، جـ٨، ١٧٤/ ٨٣١٣؛ الجامع الصغير، جـ١، ٥٣/ ١٩٦٣.

٢٢٥ البخاري، الأدب، ٧٧/ ٦١١٧.

٢٢٦ مسلم، الإيمان، ٦١.

٢٢٧ الترمذي، البر، ٤٧/ ١٩٧٤.

٢٢٨ البَرَاز: فضاء واسع خال من النبات.

«إن الله ﷻ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر».[229]

ولم يكن رسول الله ﷺ يُطيل النظر في وجه أحدهم، وكان نظره إلى الأرض أكثر منه إلى السماء، وكان لحيائه ﷺ وسمو أخلاقه لا يعيب أحدًا في وجهه إن أخطأ.

والحياء الحقيقي يكون بـ «تذكر الموت» الذي يكون وسيلة لإخراج حُبِّ الدنيا من القلب، وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالاستحياء من الله كل حين، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من الله حق الحياء»

قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال:

«ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».[230]



٢٢٩ أبو داود، الحمام، ١/ ٤٠١٢.

٢٣٠ الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨.



حرص نبي الرحمة على طلب الخير للناس

لم يكن رسول الله ﷺ يحزن لآلام الناس ومعاناتهم فحسب، بل كان يحرص على سعادتهم ونجاحهم في الحياة. وقد أنزل الله سبحانه وتعالى آيةً كريمةً تبيِّن حاله عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن إذ قال:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٣١)

فأثنى المولى ﷻ على نبيه الكريم بأن وصفه باسمَيه «**الرؤوف والرحيم**».

وكان رسول الله ﷺ يتمنى التوفيق للناس دائمًا، ويطمئن ويُسرُّ حينما يراهم يعملون عملًا حسنًا وفاضلًا.



ولم يكن النبي الكريم ﷺ كغيره من القادة يتمنى الخير فحسب، بل كان هاديًا يعين أمته بكل ما أوتيَ من طاقة. وقد جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم كيف أنا؟ قال:

«إذا رأيت كلما طلبت شيئًا من أمر الآخرة وابتغيته يُسِّرَ لك، وإذا أردت شيئًا من أمر الدنيا وابتغيته عُسِّرَ عليك، فاعلم أنك على

---

٢٣١ التوبة: ١٢٨.



حال حسنة، فإذا رأيت كلما طلبت شيئًا من أمر الآخرة وابتغيته عُسِّرَ عليك، وإذا طلبت شيئًا من أمر الدنيا وابتغيته يُسِّرَ لك، فأنت على حال قبيحة».[٢٣٢]

لقد كان عليه الصلاة والسلام هاديًا ورحمةً للعالمين بأفعاله وأقواله وأخلاقه، فقد كان يحمل على عاتقه أشد المتاعب والمشقات في طريق الهداية. وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخَافُ أحد، ولقد أُوذِيتُ في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال».[٢٣٣]

لقد أدَّى رسول الله ﷺ المهمة التي كلَّفه الله تعالى بها على أفضل صورة. وكان في هذا الشأن صابرًا ساعيًا، حتى إن الله تعالى كان ينبِّهه ألا يُجهِد نفسه ويُهلكها.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يوضِّح هذه الفضيلة العظيمة التي كان يتحلى بها رسول الله عليه الصلاة والسلام من أجل سلامة الناس، إذ قال الله ﷻ:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٣٤]

---

٢٣٢ عبد الله بن مبارك، كتاب الزهد، ص٢٩؛ ابن أبي الدنيا، موسوعة، جـ١، ص٤٨.

٢٣٣ الترمذي، القيامة، ٣٤/ ٢٤٧٢.

٢٣٤ الشعراء: ٣.



ويبيِّن رسول الله ﷺ حاله هذه بقوله:

«إنما مَثَلي ومَثَل الناس كمَثَل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجَزكم[٢٣٥] عن النار، وأنتم تقحمون فيها».[٢٣٦]

فهذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف دليلان واضحان جليَّان على أن سيدنا محمدًا ﷺ سعى جاهدًا- برحمته ورأفته بالناس- كي يؤمن كل إنسان في هذه الدنيا بالله سبحانه وتعالى وينجو من عذاب نار جهنم.

وقد اعترض أبو جهل النبي ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه وقال فيه ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف له، فلم يكلِّمه النبي ﷺ...

ولما سمع عمه حمزة بذلك احتمل الغضب لما أراد الله من كرامته، فخرج سريعًا لا يقف على أحد كما كان يصنع، يريد الطواف بالبيت متعمدًا لأبي جهل أن يقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه على رأسه ضربة شجَّه منها شجة منكرة، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، وقالوا: ما

---

٢٣٥ جمع حجزة وهي معقد الإزار.

٢٣٦ البخاري، الرقاق، ٢٦.

نراك يا حمزة إلا قد صبوت؟ قال حمزة: ومن يمنعني وقد استبان لي منه ما أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأن الذي يقول حق...

ثم رجع حمزة إلى بيته، فأتاه الشيطان، فقال: أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك، لَلموتُ خيرٌ لك مما صنعت، فأقبل حمزة على نفسه وقال: ما صنعت؟! اللهم إن كان رشدًا فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجًا، فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان، حتى أصبح فغدا على النبي ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو- أَرشدٌ أم غيٌّ- شديد؟ فحدِّثني حديثًا فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني، فأقبل رسول الله ﷺ فذكره ووعظه، وخوفه وبشره، فألقى الله في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أنك الصادق شهادة الصدق.[٢٣٧]

لقد كان رسول الله ﷺ يحرص أشد الحرص على أن يُسلِم كل إنسان، ويُسرُّ سرورًا عظيمًا إن اهتدى أحدهم، ذلك أن دخول الإسلام شرط أساسي للنجاة في الآخرة، إذ لمَّا أوذي عليه الصلاة والسلام وظُلِم في الطائف، نسيَ كل آلامه لما أسلم عبدٌ اسمه عدَّاس، ولما رجع إلى مكة المكرمة من الطائف، كانت قبائل كثيرة تأتي إلى مكة للحج فيها، فكان رسول الله ﷺ يذهب إلى منازلهم

٢٣٧ انظر: ابن هشام، جـ١، ص٣١٢-٣١٣؛ الحاكم، جـ٣، ص٢١٣؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٨٤.



ويدعوهم للإسلام، ويطلب منهم تصديق نبوَّته، وإعانته ليؤدي الرسالة التي كلفه بها ربه.[٢٣٨]

وكان يقول ساعيًا إلى هداية الناس:

«إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به». [٢٣٩]

وقال لسيدنا علي بن أبي طالب ﵁:

«...فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من أن يكون لك حُمُر النَّعَم».[٢٤٠]

ولما دخلَ الإسلامَ أبو ذر[٢٤١]، وخالد بن زيد[٢٤٢]، وخُبيب بن يَسَاف[٢٤٣]، وريحانة بنت عمرو[٢٤٤]، وغيرهم من عباد الله، رؤيَ

---

٢٣٨ انظر: ابن سعد، جـ١، ص٢١٦-٢١٧؛ أحمد، جـ٣، ص٣٢٢، ٤٩٢؛ ابن كثير، جـ٣، ص١٨٣-١٩٠.

٢٣٩ ابن هشام، جـ٢، ص٣٣-٣٤؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص١٨٤؛ ابن حجر، الإصابة، جـ٤، ص٣٥٣. انظر أيضًا: أبو داود، السنة، ١٩-٢٠/ ٤٧٣٤.

٢٤٠ البخاري، أصحاب النبي، ٩/ ٣٧٠١/ ٤٢١٠.

٢٤١ الحاكم، المستدرك، جـ٣، ٣٨٥/ ٥٤٥٩.

٢٤٢ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٨٣.

٢٤٣ الواقدي، المغازي، جـ١، ص٤٧.

٢٤٤ ابن كثير، البداية، جـ٤، ص١٢٨.

على وجه النبي السعادة العظيمة والاستبشار والتبسم، ويبيِّن عدي بن حاتم رضي الله عنه سرورَ رسول الله ﷺ وسعادته تلك بقوله:

«أسلمتُ فرأيت وجهه [عليه الصلاة والسلام] استبشر».[٢٤٥]

لقد عفا رسول الله ﷺ حتى عن ألد أعدائه لما نطقوا بالشهادة ودخلوا الإسلام، ونبَّه أصحابه الكرام إلى الابتعاد عن أي قول أو فعل يذكِّرهم بظلمهم في الماضي[٢٤٦]. وممن عفا عنهم رسول الله ﷺ إعظامًا وإجلالًا لكلمة التوحيد هبَّارُ بن الأسود الذي رمى ابنته السيدة زينب برمح فسقطت من ناقتها فكان ذلك سببًا لوفاتها، ووحشيٌّ الذي قتل عمه سيدنا حمزة رضي الله عنه، وعكرمةُ بن أبي جهل الذي ظلمَ المسلمين لسنوات طويلة.

لقد كان سلوكه الأصيل وأخلاقه الحميدة بعيدة عن مشاعر الانتقام والدوافع المادية، ولم تكن يومًا لأمر يخصُّه وحدَه، ولا نجد في سيرته العطرة قط أنه قد انتقم من امرئ لنفسه.

وما ذكرَ النبي ﷺ خطأَ صحابي فوجَّهه إليه؛ بل كان يتساءل في نفسه عن حقيقة ما يرى كي يجعل المخطئ يشعر أن الخطأ لا يليق به، فيقول:

«ما لي أراكم!».[٢٤٧]

---

٢٤٥ أحمد، جـ٤، ص٣٧٨.

٢٤٦ انظر: الواقدي، جـ٢، ص٨٥٧-٨٥٨.

٢٤٧ البخاري، المناقب ٢٥، الأيمان ٣؛ مسلم، الصلاة، ١١٩/ ٤٣٠.



وعن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: «**ما بال فلان يقول؟**» ولكن يقول: «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟**».[٢٤٨]

لقد كان ذلك النبي الكريم رمزًا للرحمة حتى حينما كان ينصح أصحابه، خوفًا من أن يُحزِنهم أو يَعيبَهم في شيء.

لقد كانت تلك المزايا الكريمة والشمائل العظيمة تظهر في كلامه مثلما تظهر في أحواله وحركاته، فكان مما يقوله صاحب الخلق الرفيع عليه الصلاة والسلام:

«**مرحبًا بكم، حياكم الله، رحمكم الله، آواكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله...**».[٢٤٩]

وكان رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين يحزن كثيرًا على مُنكِري نبوته، وذلك من تجليات اسمَي الله «**الغفور**» و «**الرحيم**» عليه، ويدعو لهم بالنجاة من نار جهنم. فنزل قوله سبحانه وتعالى:

﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾[٢٥٠]

---

٢٤٨ أبو داود، الأدب، ٥/ ٤٧٨٨.

٢٤٩ الطبراني، الأوسط، جـ٤، ص٢٠٨/ ٣٩٩٦؛ أبو نعيم، حلية، جـ٤، ص١٦٨.

٢٥٠ الكهف: ٦.

ومن أكثر الصحابة نيلًا لفيوضات رسول الله ﷺ سيدُنا أبو بكر الصديق ﷺ، إذ كان في قمة الرحمة.

ومن أبرز الأمثلة على تأثر الصحابة الكرام برسول الله خير الأنام، ورحمتهم المخلوقات من أجل الخالق، أنهم رضوان الله عليهم أجمعين نقلوا إلى العالَم كله العلمَ والفضائل والأخلاق والفيوضات التي فازوا بها بعشق ووَجْدٍ بصحبتهم رسول الله ﷺ.

فكل واحد منهم أخذ نصيبًا من جوده وكرمه عليه الصلاة والسلام على قدر طاقته، ومحبته ﷺ وحُسنُه كذلك النهر الذي إن فاض روى كلَّ الحقول التي على جنبَيه، إذ لم يكن يغادر أحدٌ مجلسَ رسول الله ﷺ إلا وقد قضى حاجته وبلغ مرامَه.



الوفاء عند نبي الرحمة

إن إنجاز الوعد لدى الأنبياء والأولياء وأصحاب الفضيلة صفةٌ ثابتةٌ فيهم، ووسيلةٌ للنجاة من علامات النفاق، وبهذه الصفة تستقيم الحياة وتنتظم، وهي ميزانٌ لشرف الإنسانية وفضيلة الفرد والأمة، والناس يطمئنون وينعمون بالأمان على قدر مراعاتهم هذه الصفة.

لقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة للناس أجمعين في الوفاء.

إذ لمَّا كان عمره عليه الصلاة والسلام ستَّ سنوات ذهب مع أمه إلى المدينة ليزور قبر أبيه، وفي طريق الإياب توفيت أمه في



الأبواء، فصار رسول الله ﷺ يتيم الأبوين، ورجع مع حاضنته أم أيمن رضي الله عنها إلى مكة، فكان رسول الله ﷺ طوال حياته يزور حاضنته أم أيمن كثيرًا، ويخاطبها بقوله: «**يا أُمَّاهْ**». ويُظهِر الاحترام والمحبة لها، ويثني عليها بقوله:

«**أم أيمن أمي بعد أمي، هذه بقية أهل بيتي**».[٢٥١]

وبعد وفاة جدِّه عليه الصلاة والسلام رعاه عمه أبو طالب. فكانت زوجةُ عمه فاطمة امرأة عظيمة الفضيلة طيِّبة القلب، وقد أظهر نبيُّنا ﷺ الوفاءَ لهذه المرأة المباركة التي تشرفت بالدخول في دين الإسلام وهاجرت إلى المدينة، فكان يزورها كثيرًا.[٢٥٢]

ولما ماتت رضي الله عنها دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه، وكفَّنها ببُردٍ فوقه، وصلَّى عليها، ومكث في قبرها مدة، ولما سُئِل عن ذلك قال:

«**ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعتُ معها في قبرها، ليَخَفَّفَ عنها من ضغطة القبر؛ إنها كانت أحسن خلق الله إلي صنيعًا بعد أبي طالب**»[٢٥٣].

وقال للذين عجبوا من جزع رسول الله ﷺ الكبير عليها:

---

٢٥١ انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٧، ص٣٠٣-٣٠٤؛ ابن سعد، جـ٨، ص٢٢٣.

٢٥٢ ابن سعد، جـ٨، ص٢٢٢.

٢٥٣ الطبراني، المعجم الأوسط، جـ ٧، ٨٧/ ٦٩٣٥.

«إنها كانت أمي، إذ كانت لتُجيع صبيانها وتُشبعني، وتشعِّثهم وتدهنني».

ثم دعا لها قائلًا:

«رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبًا وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة».[254]

وقبل أن يهاجر من مكة كان صلوات الله عليه وسلامه حريصًا على إعادة الأمانات التي عنده إلى أصحابها، في الوقت الذي كان أعداؤه يخطِّطون ويكيدون لقتله.[255]

وعن السيدة عائشة ﵂ قالت:

جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها النبي ﷺ: **«من أنتِ؟»**، قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: **«بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟»**، قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: **«إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».**[256]

---

٢٥٤ الحاكم، المستدرك، جـ٣، ص١١٦-١١٧؛ الهيثمي، جـ٩، ص٢٥٦-٢٥٧؛ اليعقوبي، جـ٢، ص١٤؛ الطبراني، المعجم الأوسط، جـ ٧، ٨٧.

٢٥٥ ابن هشام، جـ٢، ص٩٥، ٩٨.

٢٥٦ الحاكم، جـ١، ٦٢/ ٤٠. انظر أيضًا: البخاري، الأدب، ٢٣.



وعن السيدة عائشة ﵂ أيضاً قالت:

ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غِرْتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق[٢٥٧] خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: «**إنها كانت، وكانت**[٢٥٨]، **وكان لي منها ولد**».[٢٥٩]

وأثناء دفن شهداء أُحد، قال رسول الله ﷺ:

«**انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، فإنهما كانا متصافِيَين في الدنيا، فاجعلوهما في قبر واحد**».[٢٦٠]

وعن أبي هريرة ﵁:

أن أسوداً رجلًا– أو امرأةً– كان يكون في المسجد يَقُمُّ[٢٦١] المسجد، فمات ولم يعلم النبي عليه الصلاة والسلام بموته، فذكره ذات يوم فقال: «**ما فعل ذلك الإنسان؟**»، قالوا: مات يا رسول الله، قال: «**أفلا آذنتموني؟**»، فقالوا: إنه كان كذا وكذا–

٢٥٧ صدائق: جمع صديقة.

٢٥٨ أي يذكر صفاتها وفضائلها.

٢٥٩ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٠/ ٣٨١٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٧٤-٧٦.

٢٦٠ ابن هشام، جـ٣، ص٤٩؛ ابن سعد، جـ٣، ص٥٦٢.

٢٦١ يقمُّ: يكنِّس.

قصته- قال: فحقَّروا شأنه[٢٦٢]، قال: «**فدلوني على قبره**» فأتى قبره فصلَّى عليه.[٢٦٣]

وعن محمد بن مسلمة ﷺ قال: كنا يومًا عند رسول الله ﷺ فقال لحسان بن ثابت: «**يا حسان، أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، ما عفا الله لنا فيه**»، فأنشده قصيدة الأعشى هجا بها علقمة بن علاثة:

علقم ما أنت إلى عامر   الناقض الأوتار والواتر

في هجاءٍ كثيرٍ هجا به علقمة، فقال النبي ﷺ: «**يا حسان، لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسي هذا**»، قال: يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**يا حسان، أَشكَر الناس للناس أَشكَرهم لله، وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني، فتناول مني، وسأل هذا فأحسن القول**». فشكره رسول الله ﷺ على ذلك.[٢٦٤]

وحين جاء وفدُ هوازن إلى رسول الله ﷺ مسلمين، فسألوه أن يردَّ سبيَهم. فقام أحدهم وقال:

«يا محمد، إن بيننا أمهاتك من الرضاعة ومربياتك!».

فقام النبي ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

---

٢٦٢ لم يهتموا به كثيرًا بحيث يوقظون من أجله رسول الله ﷺ.

٢٦٣ البخاري، الجنائز، ٦٧/ ١٣٣٧.

٢٦٤ علي المتقي، كنز العمال، جـ٣، ٧٣٨-٧٣٩/ ٨٦٢١.



«أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطَيِّبَ ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل».

فقال الصحابة الكرام مظهرين فضلية عظيمة:

«قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله».[265]

فحرَّر في ذلك اليوم آلافًا من أسرى هوازن دون مقابل، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر الوفاء لمرضعاته عليه الصلاة والسلام.

إن سلوك رسول الله ﷺ هذا درسٌ جميلٌ في الفضيلة لقوم ظالمين، في هذا الوقت الذي قلَّ فيه الخير بين الناس ولم يعودوا يذكرون أي محاسن، وصارت فيه كلمة «**وفاء**» محصورة في المعاجم لا غير.

لقد كان عبد الله بن أُبَي رئيس المنافقين، ففي غزوة أُحد غدر برسول الله ﷺ لما عاد بقسم من الجيش في أصعب الأوقات، وقد خان كثيرًا رسول الله ﷺ والمؤمنين.

لكن ابن هذا المنافق كان – لحكمة إلهية- مؤمنًا صادقًا لا كأبيه، فلما توفي عبد الله بن أُبي جاء ابنه هذا إلى النبي ﷺ تطبيقًا لوصية أبيه وقال: «يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل

٢٦٥ انظر: البخاري، المغازي، ٥٤؛ ابن هشام، جـ٤، ص١٣٤-١٣٥.

عليه، واستغفر له». فأجابَ النبي ﷺ هذا الصحابي الذي كان يحبه، فأعطاه قميصه ليكفن به هذا المنافق الذي كان ممن شاركوا في حادثة الإفك، أي حادثة الافتراء على عائشة رضي الله عنها، ثم صلَّى عليه.(٢٦٦)

والسؤال الذي لا بد من أن نقف عنده بعد ذِكر كل هذه الأمثلة هو: هل ثمة في هذا الكون مثل رسول الله ﷺ في الإنسانية والحسن والوفاء؟ كلَّا.

وتذكر بعض الرويات أن سبب إعطاء رسول الله ﷺ قميصه لتكفين ذلك المنافق أنه:

لما أُسِر عم النبي سيدنا العباس رضي الله عنه في بدر وجيءَ به بلا قميص، طلب رسول الله ﷺ أن يلبسوه قميصًا، فلم يجدوا قميصًا إلا قميص عبد الله بن أُبي لضخامة جسم العباس رضي الله عنه.

فلما أعطى عبد الله بن أُبَي قميصه للعباس في ذلك اليوم، كافأَ النبي ﷺ حُسنَ عبد الله بن أُبي لعمه، فأعطاه قميصه كي يُكفَّن فيه.(٢٦٧)

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، يقول: خرج رسول الله ﷺ وعليه مِلحَفَة متعطِّفًا بها على منكبيه، وعليه عِصابة دسمَاء «في مرض موته»، حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

---

٢٦٦ البخاري، الجنائز، ٢٣؛ ابن ماجه، الجنائز، ٣١؛ الطبري، جـ١٠، ص٢٦١.

٢٦٧ انظر: البخاري، الجنائز، ٢٣، ٧٨؛ الجهاد، ١٤٢، اللباس، ٨؛ مسلم، المنافقين، ٢؛ النسائي، الجنائز، ٤٠/ ١٩٠٠؛ ابن كثير، تفسير، جـ٢، ص٣٩٤، [التوبة، ٨٤].



«أما بعد أيها الناس، فإن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا، أو ينفعه، فليَقبَلْ من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم».(٢٦٨)

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشِي وعيبتي(٢٦٩)، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».(٢٧٠)

فما أجمل وفاء رسول الله ﷺ للأنصار الذين نصروه وأعانوه، وما أكثر مظاهر الوفاء في حياته!

لقد انعكست أخلاق رسول الله ﷺ على الصحابة الكرام على قدر طاقاتهم ومحبتهم له. إذ لما أرسل رسول الله ﷺ سيدنا عثمان رضي الله عنه في صلح الحديبية إلى مكة، قال الصحابة الكرام: يا رسول الله، وصل عثمان إلى البيت فطاف! فقال رسول الله ﷺ:

«ما أظن عثمان يطوف بالبيت ونحن محصورون».

قالوا: يا رسول الله، وما يمنعه وقد وصل إلى البيت؟ فقال النبي ﷺ:

---

٢٦٨ البخاري، مناقب الأنصار، ١١/ ٣٨٠٠.

٢٦٩ كرشي وعيبتي: الكرش للحيوان المجتر بمنزلة المعدة للإنسان، والعيبة مستودع الثياب، والمعنى إنهم بطانتي وخاصتي وموضع سري وأمانتي.

٢٧٠ البخاري، مناقب الأنصار، ١١/ ٣٧٩٩.

«**ظني به ألا يطوف حتى نطوف**».[٢٧١]

فوصل سيدنا عثمان ﷺ إلى قريش يخبرهم أنهم لم يأتوا لحرب وأنهم جاؤوا زائرين لهذا البيت معظِّمين لحرمته، فاحتبسته قريش عندها. وقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ به، فقال ﷺ:

«ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ».[٢٧٢]

وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**». فضرب بها على يده، فقال: «**هذه لعثمان، إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله، فأنا أبايع له**».[٢٧٣]

فلما رجع عثمان ﷺ إلى النبي ﷺ قالوا: اشتفيت من البيت يا عبد الله! قال عثمان: بئس ما ظننتم بي! والذي نفسي بيده، لو كنت بها سنة والنبي مقيم بالحديبية ما طفت، ولقد دعتني قريش إلى أن أطوف فأبيت ذلك عليها، فقال المسلمون: لرسولُ الله كان أعلمنا بالله تعالى وأحسننا ظنًّا.[٢٧٤]

---

٢٧١ الواقدي، جـ٢، ص٦٠١-٦٠٢؛ علي المتقي، كنز العمال، جـ١٠، ص٤٨٣.

٢٧٢ أحمد، جـ٤، ص٣٢٤.

٢٧٣ البخاري، أصحاب النبي، ٧؛ الواقدي، جـ٢، ص٦٠٥.

٢٧٤ الواقدي، جـ٢، ص٦٠٢؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٤، ص١٣٤-١٣٥؛ علي المتقي، كنز العمال، جـ١٠، ص٤٨٣؛ ابن قيم، زاد المعاد، جـ٢، ص١٣٧.



ونستخلص من هذا كله أن المؤمن يكون مؤمنًا حقيقيًّا بمقدار تأسِّيه برسول الله عليه الصلاة والسلام.



لقد بنى رسول الله ﷺ- إلى جانب كثير من معجزاته- شخصيةَ الإنسان الكامل، فقدَّم للحضارة والثقافة روائع الجمال وأوصاف الشرف والكمال، التي تمثلت لنا في طيب كلامه وحسن معاملاته وجميل أفعاله القدوةُ التي غدت وسيلةً لإثراء الحضارة والثقافة، وكل ذلك انعكاسات شخصية رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام القدوة وأخلاقه السامية.

وإننا لن نجد مثيلًا لهذا الانقلاب الذي تحقق في شخصية الإنسان نتيجة تعاليم رسول الله ﷺ وتربيته.

ولم تنحصر دعوته عليه الصلاة والسلام في الجزيرة العربية، بل تجاوزت حدود الزمان والمكان. فكلامه وفهمه ونظرته إلى الأمور ضمت تاريخ الإنسانية ونجاحاتها وتطورها المادي، وتنبَّأت بما سيحصل بعد مئات السنين بل الآلاف.

ولن نجد في الميزان الذي أقامه- مع تقلبات الحياة ومدها وجزرها- أيَّ عيب أو قصور أو نقصان، ولا نستطيع إيجاد شخصية أسوة أخرى مثله في التاريخ.



ولعلنا نصادف في المجتمعات أبطالًا تميزوا وظهرت مهارات لهم في مجالات محددة من الحياة، لكن رسول الله عليه الصلاة والسلام هو الشخصية القدوة الفريدة التي جمعت أوصاف الكمال وخصائص الجمال كلها.



وما أعظم قواعد الحياة التي وضعها رسول الله ﷺ لأمته في كل مضمار، فتلكم القواعد مظاهرُ للأخلاق الحميدة.

وقد صنَّف المحدِّثون أخلاقه السامية على النحو التالي:

١. الخشية من الله ﷻ سرًّا وعلانية.

٢. العدل في الرضا والغضب.

٣. الاقتصاد والاعتدال في الفقر والغنى.

٤. صلة الرحم مع الأقارب ولو قاطعوه.

٥. الإحسان لمن حرمه.

٦. العفو عمن ظلمه.

٧. كان صمته تفكرًا.

٨. وكلامه ذِكرًا.

٩. ونظره عبرةً. [٢٧٥]

---

٢٧٥ إبراهيم جانان، موسوعة الحديث، جـ١٦، ٢٥٢/ ٥٨٣٨.



وقد كُتِب في قائم سيفه عليه الصلاة والسلام:

«اعفُ عمَّن ظلمك، وَصِلْ من قطعك، وأحسِنْ إلى من أساء إليك، وقُلْ الحق ولو على نفسك».

وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنًا، وإن ظلموا ظلمنَا؛ ولكن وطِّنوا أنفسكم، إنْ أحسنَ الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا».[٢٧٦]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«لا تُظهِر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك».[٢٧٧]

إن الناظر في حياة رسول الله ﷺ والمتتبع صفحاتها يجد أنه نبي الرحمة والمرحمة الذي لم يلعن أحدًا، بل ربى صحابة كرامًا أخرجهم من بين براثن قوم جهلة ظالمين.

فهو الذي لما رماه الأطفال والعبيد بالحجارة في الطائف وأخرجوه منها وقد أُدميَت قدماه الشريفتان، لم يدعُ لهم إلا بالهداية.

وهو الذي لما دخل مكة يوم الفتح مظفَّرًا بعد عشر سنين من ظلم قومه له وطرده من بلده، كان تواضعه كبيرًا وعفوه عظيمًا، إذ

---

٢٧٦ الترمذي، البر، ٦٣/ ٢٠٠٧.

٢٧٧ الترمذي، القيامة ٥٤/ ٢٥٠٦.

لم يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة الذي كان مكلفًا بتلك المهمة، بل قال عليه الصلاة والسلام له:

«**هاكَ مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء**».(٢٧٨)

وهو عليه الصلاة والسلام السلطان الذي لم يسمِّ بعده خليفة قبل وفاته، ولم يترك لأسرته وذريَّته من بعده أي شيء، بل قال:

«**لا نورث، ما تركنا صدقة**».(٢٧٩)

ولا ريب أن ميراثه الوحيد لأمته وهديته لها إنما هي شخصيته القدوة التي عبَّر عنها القرآن الكريم بـ «**الأسوة الحسنة**».

وقد قيل:

«المعرفة [إدراك الله بالقلب] رأسمالي، والعقل أصل ديني، والمحبة أساسي، والإرادة والعزيمة مطيَّتي، وذكر الله خليلي، والاعتماد كنزي، والحزن صاحبي، والعلم سلاحي، والصبر رداءي، والرضا مغنمي، والفقر مدار افتخاري، والزهد صنعَتي، واليقين قوَّتي، والاستقامة شفيعي، وإطاعة الحق تعالى شرفي، والجهاد طريقي وطريقتي، والصلاة قرة عيني».



٢٧٨ ابن هشام، جـ٤، ص٣١-٣٢؛ الواقدي، جـ٢، ص٨٣٧-٨٣٨؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص١٣٧.

٢٧٩ البخاري، فرض الخمس، ١.



معاملة نبي الرحمة مع الناس

لم يكن رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوةً حسنةً بكلامه فحسب، بل بأفعاله وحركاته وسكناته أيضًا. فقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام قدوةً للبشر في كل مراحل الحياة، وكان يحترم أصحاب الفضيلة على قدر درجاتهم. ورحمته التي أحاطت بالمخلوقات كلها لا حدود لها. ولم يكن يقصر معاملة الرفق واللطف على أهل الإيمان فحسب.

فقد مرَّت بالنبي عليه الصلاة والسلام جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال:

«**أليست نفسًا**».[٢٨٠]

وعن يعلى بن مُرَّة رضي الله عنه قال:

«سافرت مع النبي ﷺ غير مرة، فما رأيته مرَّ بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل أمسلم هو، أم كافر».[٢٨١]

فقد كان عليه الصلاة والسلام رحمةً من الله سبحانه وتعالى، وتجليًا من تجليات اسمه «**الرحيم**» الذي يشمل المخلوقات كلها. وكان يحيا عليه الصلاة والسلام مطبقًا قاعدة الرأفة بالمخلوقات من أجل خالقها.

---

٢٨٠ البخاري، الجنائز، ٥٠/ ١٣١٢؛ مسلم، الجنائز، ٨١.

٢٨١ الحاكم، جـ١، ٥٢٦/ ١٣٧٤.

فعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال:

«إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة».(٢٨٢)

وقد دعا على ألدِّ أعدائه بقوله:

«اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».(٢٨٣)

وعن أبي هريرة ﷺ، قال:

قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فلما سلَّم النبي ﷺ قال للأعرابي: **«لقد حجَّرت واسعًا»** يريد رحمة الله.(٢٨٤)

لم يكن رسول الله ﷺ كغيره من قومه، فهو الذي شرَّف بنور الإسلام والإيمان قومَه والأقوام الأخرى التي كانت تعيش في عصبية قبلية وتعصب مقيت، وكان الحاكمَ فيها الفظاظةُ وغلاظةُ القلب؛ فوحَّدهم ووحَّد المسلمين جميعًا برابطة المحبة والرحمة والأخوَّة. ونجاحه في هذا الأمر أبهرَ عيون البشر طوال التاريخ.

فهو نور الوجود عليه الصلاة والسلام القائل:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي».(٢٨٥)

---

٢٨٢ مسلم، البر، ٨٧/ ٢٥٩٩.

٢٨٣ السيوطي، الجامع، رقم: ٣٥٥٩.

٢٨٤ البخاري، الأدب، ٢٧؛ أبو داود، الطهارة، ١٣٦/ ٣٨٠.

٢٨٥ السيوطي، الجامع، جـ١، ١٢/ ٣١٠.



فكان عليه الصلاة والسلام ببركة هذه التربية الإلهية أفضل مربٍّ للبشر جميعًا. فكم من ظالم كان يئد ابنته في الجاهلية، وكم من قاسٍ لا يرى في العبيد حقَّ الإنسانية اهتدى تحت مظلة رحمته عليه الصلاة والسلام، فصار كل واحد من هؤلاء من خيرة البشر في الأخلاق السامية والفضيلة الرائعة.



لقد سعى رسول الله ﷺ إلى عون كل إنسان دون النظر إلى مقامه وموقعه، إذ كان الناس كلهم سواسية في نظره، وكان الذي يتلقَّى عونه لا يفارقه إلا وقد رضي. والحادثة التالية مليئة بالعبر وتبيِّن لنا دقَّته في هذا الموضوع:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله يستعينه في شيء، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئًا، ثم قال:

«**أحسنت إليك؟**»

قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه. فأشار النبي ﷺ إليهم: أن كفوا. فلما قام النبي ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابيَّ إلى البيت، فقال له:

«**إنك جئتنا، فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت**».

فزاده رسول الله ﷺ شيئًا، فقال:

«**أحسنتُ إليك؟**»



فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرًا. فقال له النبي ﷺ:

«إنك كنت جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فَقُلْ بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم».

قال: نعم. قال: فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ:

«إن صاحبكم كان جاءنا، فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي أكذاك؟».

قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشير خيرًا. قال أبو هريرة: فقال النبي ﷺ:

«إن مَثلي ومَثل هذا الأعرابي كمَثَل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتَّبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورًا، فقال صاحب الناقة: خلُّوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها، فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قَشَام[٢٨٦] الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشدَّ عليها رحلها واستوى عليها، ولو أني أطعتكم حيث قال ما قال دخل النار».[٢٨٧]

---

٢٨٦ القشام: رديء التمر، أو ما يُلقَى من الطعام مما لا خير فيه.

٢٨٧ الهيثمي، جـ٩، ص١٥-١٦؛ الأصبهاني، الأمثال في الحديث النبوي، بومباي، ١٩٨٧، ص٣٠١.



فهذه العبارات شديدة الأهمية من حيث الرسائل التي تحتويها في موضوع تربية الإنسان. فمن الضروري أولًا أن يوضَع في الحسبان حال المخاطَب النفسية، ثم السلوك في طريق يوصل إلى الطرق الممتدة إلى قلبه، ثم السير في تلك الطرق حتى الوصول إلى المقصود. أما ما يخالف هذا السلوك فلن ينفع المخاطبَ شيئًا، لا بل قد يجره إلى ما هو أسوء.

ونستطيع أن نستخرج نُكتةً[٢٨٨] أخرى من هذه الرواية وهي:

إن الإنسان- أيَّما إنسان- يُغلَب لضعفه أمام الإحسان، فإن كان المُحسَن إليه عدوًّا قلَّت عداوته؛ وإن كان بين العداوة والصداقة، اقتربَ من الصداقة؛ وإن كان صديقًا يصبح أشد قربًا وإخلاصًا. وقد قيل في الماضي:

«مَن قدَّم لصاحبه فنجان قهوةٍ شكَرَه عليه أربعين سنة».



لطافته مع الفقراء

لقد كان رسول الله ﷺ يعامل الفقراء برأفة أكثر حتى يعوضهم عما يعيشونه من نقص في الرفاه المادي.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري، وقارئ

٢٨٨ النُّكتة: المسألة العلمية الدقيقة يُتوصَّل إليها بدقة وإنعام فكر.



يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم، ثم قال:

«ما كنتم تصنعون؟»

قلنا: يا رسول الله، إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله، قال: فقال رسول الله ﷺ:

«الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم» [(٢٨٩)]

قال: فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدِلَ بنفسه فينا، ثم قال: بيده هكذا، فتحلَّقوا وبرزت وجوههم له، قال: فما رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام عرف منهم أحدًا غيري، فقال رسول الله ﷺ:

«أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمسمئة سنة». [(٢٩٠)]

---

٢٨٩ أشار نبينا الكريم ﷺ بقوله هذا إلى الآية الكريمة التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]
فيأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ في هذه الآية أن يصبر مع أولئك الفقراء الضعفاء الذين كانوا أوائل من دخلوا الإسلام على ما قد يصيبهم من مصائب ومشقات، وأن يكون دقيقًا في التعامل معهم.

٢٩٠ أبو داود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٦.



وكان رسول الله ﷺ يخشى من المسؤولية الملقاة على عاتق أصحاب الأموال والأملاك في الدنيا إذ سيُحاسبون عليها، فكان يدعو ربه قائلًا:

«اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة».[٢٩١]

وحتى الأنبياء أنفسهم سيُسألون عن النِعم التي تنعموا بها وعن تبليغهم دين الله سبحانه وتعالى مع أنهم ضمنوا الجنة، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة الأعراف في الآية السادسة:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

والنبي سليمان عليه السلام سيدخل الجنة بعد الأنبياء كلهم لما أُعطي من النعم العظيمة في الدنيا والقدرة على التصرف في خلق الله سبحانه وتعالى.[٢٩٢]

ولا بد أن نعلم أن الأغنياء من أهل التواضع والسخاء والشكر، والفقراء الصابرين هم سواءٌ في الشرف الإنساني والرضا الإلهي، وأن الكرم والرحمة تحمي الأفراد من مصائب الدنيا وشدائدها وتجعلهم في سعادة في الآخرة، وكذلك الصبر على مرارة الفقر يبشِّر بالخير العظيم من عند الله تعالى.

---

٢٩١ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٢؛ ابن ماجه، الزهد، ٧.

٢٩٢ انظر: الطبراني، المعجم الكبير، جـ١٢، ص٩٤-٩٥.

والحديث الشريف التالي يوضِّح لنا خير توضيح ضرورة الصبر والشكر من أجل نضج القلب أمام أحداث الحياة وتقلُّبَاتها:

«**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء، صبر فكان خيرًا له**».[٢٩٣]

وذات مرة كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مُجتَابي النِّمَار[٢٩٤] أو العَبَاء... فتمعَّر[٢٩٥] وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب. فجُمِع لهم كومَين من ثياب وطعام، فتهلَّل وجه رسول الله ﷺ.[٢٩٦]

ومن الطبيعي أن يكون في البنية الاقتصادية للمجتمعات الفقراء والأغنياء وأصحاب الطبقة الوسطى. وقد وضَّحت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة طريقةَ عيش هذي الطبقات في إطار الأحكام الإسلامية. والزمرتَان اللتان أُثنيَ عليهما كثيرًا هم «الفقراء الصابرون» و«الأغنياء الشاكرون».

---

٢٩٣ مسلم، الزهد، ٦٤/ ٢٩٩٩.

٢٩٤ مجتابي النمار: أي لابسيها خارقين أوساطها، والنمار جمع نمرة وهي ثياب صوف فيها تنمير.

٢٩٥ تمعَّر: أي تغير.

٢٩٦ انظر: مسلم، الزكاة، ٦٩.



فعلى المؤمنين إنفاق النِعَم التي أكرمهم بها الله تعالى في سبيله، والتحلي بالصبر الجميل إن حُرِموا من بعض النعم. لقد كان عبد الرحمن بن عوف وسيدنا أبو بكر الصديق وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من الأغنياء الشاكرين. أما سيدنا أبو ذر الغفاري وأبو الدرداء وأمثالهم فكانوا من الفقراء الصابرين. فكانت طريقة عيش هاتَين الزمرتَين من الصحابة متماثلة، وكان الأساس في نظرهم للأشياء أن «**المُلكَ لله**». لذلك لم يستحقر الإسلام الفقر والغنى إن كانا على استقامة، وبشَّر الشاكرين في الحالين بالجنة.

والله تعالى يعين عباده ويرزقهم ببركة دعاء الفقراء منهم. يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**».[297]

وقد كان رسول الله ﷺ يبدأ غزواته بدعاء هؤلاء الفقراء المسلمين ويترقب الفتح بذلك. وكان إذا رأى حال أهل الصفَّة وحاجتهم، قال:

«**لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة**».[298]

فيوليهم أهمية عظيمة لا نجدها عند البشر بالثناء على أحوالهم.

---

٢٩٧ النسائي، الجهاد، ٤٣/ ٣١٧٨.

٢٩٨ الترمذي، الزهد، ٣٩/ ٢٣٦٨.

ولعلَّ قوله عليه الصلاة والسلام:

«ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْفُ الخبز[٢٩٩] **والماء»**[٣٠٠]

كان بالنظر إلى الحالة الاقتصادية التي كان عليها المسلمون آنذاك؛ وتوضيحه أن أول الناس ورودًا على حوضه الشريف فقراء المهاجرين[٣٠١]، وأن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال[٣٠٢] وفي ذلك دلائل وبراهين على قيمة الصبر والتوكل في حال الفقر والعوز. وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«كم من أشعث[٣٠٣] **أغبر**[٣٠٤] **ذي طمرين**[٣٠٥] **لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه منهم البراء بن مالك»**.[٣٠٦]

إذ لم يكن للبراء أخي أنس بن مالك أي طعام أو مأوى، فكان يعيش بالقليل من الزاد مما يبقيه حيًّا. فأمثال هذا الصحابي؛ أي

---

٢٩٩ جلف الخبز يعني ليس معه إدام

٣٠٠ الترمذي، الزهد، ٣٠/ ٢٣٤١؛ أحمد، جـ١، ص٦٢.

٣٠١ الترمذي، القيامة، ١٥/ ٢٤٤٤.

٣٠٢ ابن ماجه، الزهد، ٥.

٣٠٣ أشعث: ليس له ما يدهن به الشعر، ولا ما يُرجله.

٣٠٤ أغبر اللون، أغبر الثياب، وذلك لشدة فقره.

٣٠٥ ذي طمرين بكسر فسكون، أي صاحب ثوبين خَلقين.

٣٠٦ الترمذي، المناقب، ٥٤/ ٣٨٥٤.



الذين يواجهون الفقرَ بالصبر والتوكل، إن أقسموا- كما قال رسول الله- فإن الله سبحانه وتعالى يجيبهم على ما يقسمون عليه.

ففي خلافة عمر ﵁ لقي المسلمون زحفًا من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين، فقالوا: يا براء، إن النبي ﷺ، قال: «**إنك لو أقسمت على الله لأبرك**» فأقسِمْ على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء، أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك ﷺ، فمنحوا أكتافهم، وقُتِلَ البراء شهيدًا. فكانت تلك الحادثة معجزة من معجزات نبينا الكريم صلوات الله عليه وسلامه.[٣٠٧]



إن حياة سيدنا محمد ﷺ حياة مليئة بالعِبر والحِكم وبمظاهر الاستقامة والأمانة والصدق والرأفة والرحمة واللطافة. وقد أوصى عليه الصلاة والسلام زوجته عائشة ﵂ فقال:

«**يا عائشة، لا ترُدِّي المسكين ولو بشق تمرة؛ يا عائشة، أحبِّي المساكين وقرِّبيهم فإن الله يقربك يوم القيامة**».[٣٠٨]



٣٠٧ الحاكم، جـ٣، ٣٣١/ ٥٢٧٤.

٣٠٨ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٢.



إن الإسلام يبحث عن مصدر الجرم قبل كل شيء، ويسعى لإصلاح المجرم. والعقوبة في الإسلام كعقوبة الوالدَين ولدَهما؛ فالغاية ليست طرد المجرم من الحياة الاجتماعية بل إصلاحه وإدخاله فيها مرة أخرى.

فعن عباد بن شرحبيل ﷺ قال: أصابتني سَنَةٌ فدخلت حائطًا من حيطان المدينة ففركت سنبلًا فأكلت، وحملت في ثوبي، فجاء صاحبه فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال له:«**ما علَّمتَ إذ كان جاهلًا، ولا أطعمت إذ كان جائعًا**». وأمره فردَّ عليَّ ثوبي، وأعطاني وَسْقًا[٣٠٩] أو نصف وسق من طعام.[٣١٠]

ولم يكن ذلك حماية للسارق وتشجيعًا على السرقة، بل لتجنب الخَلل الاجتماعي الذي كان سببًا لهذا الجُرم. فالنبي ﷺ لم يكن ليتردد في قطع يد السارق حتى لو كانت ابنته فاطمة ﷺ.[٣١١]



هديُ نبي الرحمة في معاملة النساء

كانت النساء في الجاهلية تُعامل معاملةً لا تليق بشرف المرأة وطبيعتها وجوهرها، فكان كثير من الآباء يئدون بناتهم خوفًا من أن

---

٣٠٩ الوَسْقُ: مِكيَلَةٌ معلومة، وهي ستُّون صَاعًا، والصاعُ خمسةُ أَرطال وثلث.

٣١٠ أبو داود، الجهاد، ٨٥/ ٢٦٢٠-٢٦٢١؛ النسائي، القضاة، ٢١.

٣١١ انظر: البخاري، الأنبياء ٥٤، المغازي ٥٣، حدود ١٢، ١١؛ مسلم، حدود، ٩، ٨.



يلحقهم العار، أو خشيةً من الفاقة والفقر، ولما أرادوا أن يصونوا أنفسهم مما ظنوا أنه مصيبة شديدة، اقترفوا- لشدَّة جهلهم- جنايةً شنيعة وارتكبوا جُرمًا فظيعًا بقلوب لا تعرف الرحمة وكأنها قُدَّت من حَجر، وقد ذكَرَ لنا الله تعالى في قرآنه الكريم أحوالهم إذ قال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٣١٢)

وكانوا يُهينون المرأة ويجدون فيها أداةً للمتعة واللذة ليس غير.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿...وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ (٣١٣)

عندما جاء الإسلام، وُضِعَت حقوق المرأة تطبيقًا لأوامر الله ورسوله، وغدت المرأة رمزًا للعِفَّة والفضيلة في المجتمع، وصارت الأمومة شرفًا تبتغيه كل امرأة، وقد خصَّ نبي الرحمة المرأة الأم بثناء يليق بها، إذ لمَّا جاءَ رجلٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام يستشيره في الجهاد، فسأله عليه الصلاة والسلام:

«**هل لكَ من أُمٍّ؟**»

قال: نعم،

قال: «**فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها**». (٣١٤)

---

٣١٢ النحل: ٥٨.

٣١٣ النساء: ١٩.

٣١٤ النسائي، الجهاد، ٦؛ أحمد، جـ ٣، ص٤٢٩؛ السيوطي، جـ ١، ص١٢٥.

وما أجمل المثال التالي الذي يبيِّن لينَ رسول الله عليه الصلاة والسلام مع النساء:

ففي أحد الأسفار كان عبدٌ اسمه أنجشة يغنِّي للإبل كي تُسرِع[٣١٥]، فخشي رسول الله ﷺ على أمهات المؤمنين- اللَّائي كنَّ يركبن الإبل- لِرِقَّة أجسادهن، فقال:

«**ويحك يا أنجشة، رويدك سَوْقًا بالقوارير**».[٣١٦] فما أجملَه من تشبيه!

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث شريف آخر:

«**حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطيب، وجُعِلَ قرَّةُ عيني في الصلاة**».[٣١٧][٣١٨]

---

٣١٥ إن الإبل مولعة بالغناء والصوت الجميل، ورعاة الأبل يغنون لها كي تُسِرع في مشيها. ويطلق على هذا الفعل «الحُداء».

٣١٦ البخاري، الأدب، ٩٥/ ٦١٤٩؛ أحمد، جـ٣، ص ١١٧.

٣١٧ إن «**الطِّيب**» يترك أثرًا عميقًا في الأرواح، والملائكة التي هي مخلوقات لطيفة تُسرُّ بالطِّيب وتطلبه. والطِّيب علامة الطهارة، فالطاهر النظيف يكون طيِّبَ الرائحة كل حين. وقد كان لرسول الله ﷺ رائحة طيبة؛ لا بل وكأنَّ رائحة الورد قد استُخلِصَت من عَرَقِه المبارك. وكان سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه إن مسح رأس طفل، ظلَّت رائحة رأسه كالمسك أمدًا طويلًا.

و«**الصلاة**» وصالٌ ولقاءٌ بين العبد وربه، وعبادةٌ يؤديها العبد وكأنه يرى الله جلَّ وعلَا، وهي معراج المؤمن وقرَّة عينه.

٣١٨ النسائي، عشرة النساء، ١٠/ ٣٩٣٩؛ أحمد، جـ٣، ص ١٢٨، ١٩٩.



إن النِّساء والطِّيب من نِعَم الحياة الدنيا المهمة، ولكن ينبغي أن لا ننظر إلى هذا الحديث نظرة الغافلين[٣١٩]. ولا بد أن نعلم أن الحُبَّ في الحديث السابق قد وضعه الله تعالى في فطرة البشر، وهو وسيلة للوصول إلى مرتبة العشق الإلهي؛ لذلك فلا يعدُّ هذا الحُبُّ نظرةً دنيئةً للمرأة وشغفًا بها أبدًا، بل به تُمنَح المرأة القيمة العظيمة التي تستحقها.

وانظروا إلى تاريخ الإنسان، تجدوا أن المرأة لم تنل أعلى المراتب وأسمى المقامات إلا في فضاء الإسلام الرَّحب. أما الأنظمة البشرية التي تدعي رفعَ قيمة المرأة، فهي في نظرها ليست إلا أداةً للعرض، وهذه الأنظمة في الحقيقة تستخدم المرأة وسيلةً للمتعة وإشباع الشهوة، فتكبتُ بذلك حريتها وتمحق حقوقها.

٣١٩ لا يمكن النظر إلى أي زواج لرسول الله ﷺ على أنه ميلٌ شهواني أو شغفٌ نفساني. إذ لم يطلب رسول الله ﷺ أي فتاة في شبابه، وقَبِلَ بالزواج من السيدة خديجة ﵂ التي طلبته للزواج وكانت أرملة ذات أولاد وعمرها آنذاك أربعون سنة، وأمضى عليه الصلاة والسلام شبابه معها. أمَّا ما تلى زواجه من السيدة خديجة، فقد كان في فترة كهولته «بعد سن الرابعة والخمسين».
ولم يكن أي زواج منها لرغبة عنده، بل أمرًا إلهيًّا، وكانت لِحِكَم كثيرة أهمها تعلُّم النساء أمور دينهنَّ من زوجات النبي ﷺ. وفوق ذلك كله، كانت أمهات المؤمنين لما تزوَّجهن النبي ﷺ أراملَ وعجائز ولديهن أولاد، ما عدا السيدة عائشة ﵂.
وخلاصة الأمر أن زواج رسول الله ﷺ بأكثر من واحدة كان في كهولته وعصر انتشار الدين في البلاد. وذلك دليل واضح على أن زواجه ﷺ كان بأمر من الله تعالى، وابتغاء إيصال الإسلام إلى عدد أكبر من الناس بيُسرٍ وراحة.

يقول المولى ﷻ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣٢٠]

أي إن الزوجَين اللذَين يكون بينهما مودة ومحبة ورحمة، ويغدوان مصدر طمأنينة وأمان لبعضهما، ويساند كلٌّ واحد منهما الآخر، يؤدِّيان أعظمَ وظائفهما حينما يكوِّنان أسرةً سعيدةً، ومن هذه الأسرة السعيدة وغيرها ينشأ المجتمع السليم المطمئن الآمن.

فالمرأة والرجل عالَمان واسعَان يكمل أحدهما الآخر مذ خُلِقا، غير أن الحق ﷻ أعطى المرأة دورًا أعظم وأشدَّ تأثيرًا في عملية الإكمال هذه؛ لذلك كانت المرأة هي التي تبني المجتمعات أو تخربها، ومن هنا كانت تربية المرأة- التي تبني المجتمع- في نظر الإسلام هدفًا ساميًا ومقصَدًا عظيمًا. يقول رسول الله ﷺ:

«مَنْ عالَ ثلاث بنات، فأدَّبهُن، وزوَّجهُن، وأحسن إليهن، فله الجنة».[٣٢١]

«لا يكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيُحسِنُ إليهن إلا دخل الجنة».[٣٢٢]

---

٣٢٠ الروم: ٢١.

٣٢١ أبو داود، الأدب، ١٢٠-١٢١/ ٥١٤٧؛ أحمد، جـ٣، ص٩٧.

٣٢٢ الترمذي، البر، ١٣/ ١٩١٢.



وقال عليه الصلاة والسلام في حديثٍ آخر:

«**مَنْ عالَ جاريتَين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو**». وضمَّ أصابعه.[٣٢٣]

ورفعَ عليه الصلاة والسلام قيمةَ المرأة الصالحة وأعزَّ شأنها حينما قال:

«**الدنيا مَتاع، وخير مَتاع الدنيا المرأةُ الصالحة**».[٣٢٤]

وإننا كثيرًا ما نرى أن وراء كلِّ رجل عظيم امرأة صالحة، فها هي السيدة خديجة رضي الله عنها تقف إلى جنب رسول الله ﷺ في بداية تبليغه الدين، وتكون له أعظم عون وأقوى سند، ولم ينسها رسول الله عليه الصلاة والسلام طوال عمره. وكذلك كان للسيدة فاطمة رضي الله عنها دورٌ كبيرٌ في نجاح سيدنا علي رضي الله عنه.

فمِن أوضح الواضحات أهميةُ المرأة الصالحة في عيش المرء حياتَه في طمأنينة وسعادة؛ فهي التي تحفظ المال، وتُرتِّب الدار، وتصون الشرفَ، وتحمي النسل، وتملأ الأسرة بالسعادة والسرور.

وتبدأ سعادة الصغار بابتسامة الأم، وتزول آلامهم وأحزانهم بنظراتها الحنونة، فأنَّى لنا أن نجد مكانًا يعكس لون السعادة وبسمة الحياة للأولاد أرقَّ وأطهرَ وأنقى من قلب الأم؟!

---

٣٢٣ مسلم، البر، ١٤٩/ ٢٦٣١؛ الترمذي، البر، ١٣/ ١٩١٤.

٣٢٤ مسلم، الرضاع، ٦٤/ ١٤٦٧؛ النسائي، النكاح، ١٥؛ ابن ماجه، النكاح، ٥.

إن الأمَّ أخذت نصيبًا من رحمة الله جلَّ وعلا لم يأخذه مخلوق آخر، وسعادة النساء تبدأ حينما تكون كل واحدة منهنَّ أمًّا فاضلة.

فما أشدَّها من دناءة وما أقبحها من رذالة أن يرى الرجلُ المرأةَ وسيلةً للمتعة، ويعاملها على أنها متاع لرغبات نفسه وشهواتها، وأن يهتمَّ بها لمزايا في جسمها لا غير. فذلكم هو العمى عن الخصال الحميدة والسجايا الإنسانية التي وهبها الله سبحانه وتعالى للمرأة، والجحود بشخصيَّتها.

وليس ثمة مشهدٌ أقسى ولا درجةٌ أدنى مما نرى المرأةَ عليه اليوم، فباتت تسُتَغلُّ أداةً للإعلان بتعريتها في عالم الماديات وإشباع الشهوات. مع أنه علينا أن ننظر إلى المرأة على أنها بانيةُ المجتمع، ولا بد أن تكون حضنَ الخير الذي يربِّي الصالحين والفاتحين والقادة من الرجال. وليس هناك مخلوق يستحق المحبة والاحترام مثل الأم التي تحمل طفلها في بطنها، ثم تضعه بين ذراعيها، ثم تسكنه في سويداء فؤادها حتى الموت. والمرأة الوفيَّة التي تهب نفسها لأسرتها تليق بالمحبة العظيمة والاحترام الجليل والشكر الجزيل طوال العمر.

قال رسول الله ﷺ:

«خيركم خيركم لأهله».[٣٢٥]

٣٢٥ ابن ماجه، النكاح، ٥٠؛ الدارمي، النكاح، ٥٥.



وقال عليه الصلاة والسلام:

«**ما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه، فهو صدقة**».[٣٢٦]

«**إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة**».[٣٢٧]

فبيَّن صلوات الله عليه وسلامه في الأحاديث الشريفة أن الأسرة السليمة لا تقوم إلا على أساس المحبة.

وكان سيدنا محمد ﷺ ينصح صحابتَه الكرام في موضوع النساء، وينبِّههم كي يبتعدوا عن كل ما يُفسِد محبتهم لهنَّ، فقد قال في مواضع مختلفة:

«**لا تضربوا إماء الله... ليس أولئك**[٣٢٨] **بخياركم**».[٣٢٩]

«**لا يَفْرَكْ**[٣٣٠] **مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلقًا رضي منها آخر**».[٣٣١]

---

٣٢٦ ابن ماجه، التجارات، ١.

٣٢٧ البخاري، الإيمان، ٤١، النفقات، ١/ ٥٣٥١؛ مسلم، الزكاة، ٤٨/ ١٠٠٢.

٣٢٨ أي الذين يضربون نساءهم.

٣٢٩ أبو داود، النكاح، ٤٢/ ٢١٤٦؛ ابن ماجه، النكاح، ٥١.

٣٣٠ الفرك: البغض.

٣٣١ مسلم، الرضاع، ٦١/ ١٤٦٩.

وعن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت:

«ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا له، ولا امرأةً، ولا ضرب بيده شيئًا». (٣٣٢)

وقد سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ: ما حق المرأة على الزوج؟ قال:

«أن يطعمها إذا طَعِمَ، وأن يكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يُقبِّح، ولا يهجر إلا في البيت...». (٣٣٣)

فما أعظم اللطافة والظرافة واللين في قول رسول الله ﷺ! وهل ثمة نظامٌ وضعَه البشرُ يعطي المرأة القيمة الإنسانية والحقوق المادية كما يعطيها الإسلام للمرأة؟!.



هديُ نبي الرحمة في معاملة اليتامى

ثمة كثير من الآيات الكريمة في القرآن الكريم تصف رعايةَ اليتيم. حيث يأمرنا الله تعالى بأن نرعى اليتامى، فيقول في كتابه العزيز:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٣٣٤)

---

٣٣٢ ابن ماجه، النكاح، ٥١.

٣٣٣ ابن ماجة، النكاح، ٣/ ١٨٥٠؛ أبو داود، النكاح، ٢١٤٢.

٣٣٤ الضحى: ٩.



﴿...وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾[335]

وقد وصَّانا رسول الله ﷺ الذي وُلِد يتميًا، فقال:

«**كن لليتيم كالأب الرحيم**».[336]

وقال في أحاديث شريفة أخرى:

«**خير بيت في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحسَنُ إليه، وشرُّ بيت في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُسَاءُ إليه**».[337]

«**مَن قبضَ يتيمًا من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه، أدخله الله الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنبًا لا يُغفَرُ له**».[338]

«**مَن مسحَ رأس يتيم لم يمسَحه إلا لله، كان له بكل شعرة مرَّتْ عليها يده حسنات**».[339]

وكان نبي الرحمة ﷺ يوصي بالمنكسرة قلوبهم في المجتمع ويصرُّ على مساعدتهم وإعانتهم، إذ قال مرَّةً:

---

٣٣٥ النساء: ١٢٧.

٣٣٦ الهيثمي، جـ٨، ص١٦٣.

٣٣٧ ابن ماجه، الأدب، ٦/ ٣٦٧٩.

٣٣٨ الترمذي، البر، ١٤/ ١٩١٧.

٣٣٩ أحمد، جـ ٥، ص٢٥٠/ ٢٢٢٠٧.

«**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى.[٣٤٠]

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلى النبي ﷺ قسوةَ قلبه، فقال له:

«**إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**».[٣٤١]

لقد كان سيد الكونين ﷺ رقيق القلب، فانشغل بيتامى الأمَّة بنفسه، وقال مُخاطِبًا البشر جميعًا:

«**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالًا فلأهله، ومن ترك دَينًا أو ضَيَاعًا[٣٤٢] فإليَّ وعليَّ**».[٣٤٣]

وعن أنس ﷺ قال:

كنا عند رسول الله ﷺ حيث حضرته الوفاة، فقال لنا:

«**اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة ثلاثًا، اتقوا الله فيما ملكت أيمَانكم، اتقوا الله في الضَّعيفَين: المرأة الأرملة والصبي اليتيم، اتقوا الله في الصلاة**». فجعل يرددها وهو يقول: «**الصلاة**»، وهو يغرغر حتى فاضت نفسه.[٣٤٤]

---

٣٤٠ البخاري، الأدب، ٢٤/ ٦٠٠٥.

٣٤١ أحمد، جـ٢، ٢٦٣، ٣٨٧/ ٧٥٦٦.

٣٤٢ الضَّياع: العيال.

٣٤٣ مسلم، الجمعة، ٤٣/ ٨٦٧؛ ابن ماجه، المقدمة، ٧.

٣٤٤ البيهقي، شعب الإيمان، جـ١٣، ص٤٠٤.



إن اليُتمَ شرفٌ وعزَّةٌ في الدنيا والآخرة، إذ يكفينا أن نعلم أن رسول الله ﷺ قد وُلِد يتيمًا.

وما أجمل توضيح الشاعر محمد أصلان حالَ اليتامى حينما قال:

صاحبُ اليتيم اللهُ

وأذيَّته ذنبٌ...

لا تظننَّ اليتيمَ ضعيفًا

فدموع اليتيم سلاحُ!



وصايا نبي الرحمة في موضوع حقوق الجار

حثَّ النبي ﷺ على مراعاة حقوق الجار، وقال في الحديث الشريف:

«ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننتُ أنه سيورِّثُه».[٣٤٥]

ويقول في حديث آخر:

«الجيران ثلاثة: جار له حق وهو المشرك، له حق الجوار؛ وجار له حقَّان وهو المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام؛ وجار له ثلاثة حقوق مسلم له رحم، له حق الجوار والإسلام والرَّحم».[٣٤٦]

٣٤٥ البخاري، الأدب، ٢٨/ ٦٠١٤؛ مسلم، البر، ١٤٠-١٤١.

٣٤٦ ابن حجر، فتح الباري، جـ١٠، ص ٤٥٦؛ السيوطي، الجامع، جـ١، ١٤٦/ ٣٦٥٦.



ومن حقوق الجار على الجار: ألَّا ينظرَ إلى نوافذ دارِ جاره، ويتجنَّب إيذاءه برائحة الطعام، وألا يظهر منه ما لا يسرُّه.فعن أبي ذر الغفاري ﵁- وكان من فقراء الصحابة- عن النبي ﷺ قال:

«**إذا عملتَ مرقةً، فأكثر ماءها، واغتَرِفْ لجيرانك منها**».[٣٤٧]

مع أن أبا ذرٍّ ﵁ كان من الفقراء، ولا يقدر إلا على زيادة الطعام ماءً لإنه ما كان يملك إلا ما يكفيه. فنفهم من الحديث الشريف أنه حتى الفقير ليس له عذر في عدم إيفاء حق الجار.

والحادثة التالية التي يرويها سيدنا ابن عمر ﵄ مثالٌ يبيِّن لنا حرصَ الصحابة الكرام على مراعاة حقوق الجار:

«أُهديَ لرجل من أصحاب النبي ﷺ رأسُ شاة، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوجُ إلى هذا منَّا. قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث إليه واحدًا إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات، حتى رجعت إلى الأول، فنزلت:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣٤٨]».[٣٤٩]



٣٤٧ ابن ماجه، الأطعمة، ٥٨/ ٣٣٦٢.

٣٤٨ الحشر: ٩.

٣٤٩ الحاكم، جـ٢، ٥٢٦/ ٣٧٩٩.



هديُ نبي الرحمة في معاملة الخَدَم والعبيد

كان رسول الله ﷺ رؤوفًا بالناس لا سيما الخَدَم والعبيد. وكان يقول لصحابته الكرام:

«هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون».[٣٥٠]

وكان يحثُّهم على عتقِ العبيد، ويبيِّن لهم أنه عبادةٌ عظيمةٌ.

فعن المعرور بن سويد قال:

لقيت أبا ذر بالرَّبَذَةِ[٣٥١]، وعليه حُلَّةٌ[٣٥٢]، وعلى غلامه حُلَّةٌ، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلًا فعيَّرته بأمِّهِ، فقال لي النبي ﷺ:

«يا أبا ذر أعيَّرته بأمِّهِ؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلُكُم[٣٥٣]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعِمه مما يأكل، وليُلبسه مما يَلْبَس، ولا تُكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم».[٣٥٤]

---

٣٥٠ مسلم، الأيمان، ٣٨/ ١٦٦١.

٣٥١ الرَّبَذَة: موضع قريب من المدينة.

٣٥٢ حُلَّة: ثوبان إزار ورداء.

٣٥٣ الذين يخولون أموركم- أي يصلحونها- من العبيد والخدم هم إخوانكم في الدين أو الآدمية.

٣٥٤ البخاري، الإيمان، ٢٢؛ مسلم، الأيمان، ٣٨-٤٠/ ١٦٦١.

وعن ابن عباس ﵄ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله، إن سيدي زوَّجني أمَتَه، وهو يريد أن يُفرِّق بيني وبينها، قال: فصعد رسول الله ﷺ المنبرَ، فقال:

«يا أيها الناس، ما بال أحدكم يزوِّجُ عبدَه أمَتَه، ثم يريد أن يفرِّق بينهما، إنما الطلاق لمن أخذ بالسَّاق[٣٥٥]». [٣٥٦] [٣٥٧]

وكان رسول الله ﷺ يطلب من أصحابه الكرام أن يعفوا عن تقصير عبيدهم وإمائهم.

فعن عبد الله بن عمر ﵄ يقول:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟ فصمتَ، ثم أعاد عليه الكلام، فصمتَ، فلما كان في الثالثة، قال:

«اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة».[٣٥٨]

---

٣٥٥ إنما الطلاق لمن أخذ بالسَّاق: أي الطلاق حق الزوج الذي له أن يأخذ بساق المرأة لا حق المولى.

٣٥٦ ابن ماجه، الطلاق، ٣١/ ٢٠٨١؛ الطبراني، الكبير، جـ١١، ص٣٠٠.

٣٥٧ في حقوق الإسلام إن طلبَت المرأة أثناء عقد النكاح حقَّ الطلاق، وكان النكاح بهذا الشرط، يكون لها حق الطلاق. وإن تعذَّر دوام الأسرة لوجود خلاف ناتج عن سوء الطِباع أو أمورٍ أخرى، يمكن للقاضي حينئذ أن يقرِّر فسخ العقد بناءً على الأعذار التي نصَّت حقوق الإسلام عليها.

٣٥٨ أبو داود، الأدب، ١٢٣-١٢٤/ ٥١٦٤؛ الترمذي، البر، ٣١/ ١٩٤٩.



وعن ابن عمر ﭬ قال:

سمعت رسول الله ﷺ وأتى صاحب بَزٍّ[٣٥٩]، فاشترى منه قميصًا بأربعة دراهم، فخرج وهو عليه، فإذا رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، اكسُني قميصًا كساكَ الله من ثياب الجنة، فنزع القميص فكساه إياه، ثم رجع إلى صاحب الحانوت، فاشترى منه قميصًا بأربعة دراهم وبقي معه درهمان، فإذا هو بجارية في الطريق تبكي،

فقال: «**ما يبكيكِ؟**»

قالت: يا رسول الله، دفع لي أهلي درهمَين أشتري بهما دقيقًا فهلَكَا[٣٦٠]، فدفع النبي ﷺ إليها الدرهمَين الباقيَين، ثم ولَّت وهي تبكي. فدعاها،

فقال: «**ما يبكيكِ وقد أخذت الدرهمَين؟**»

فقالت: أخاف أن يضربوني، فمشى معها إلى أهلها، فسلَّم فعرفوا صوته، ثم عاد فسلَّم، ثم عاد فثلَّثَ فردُّوا.

فقال: «**أَسمعتم أوَّلَ السلام؟**»

فقالوا: نعم، ولكن أحببنا أن تزيدنا من السلام، فما أشخصَكَ[٣٦١] بأبينا وأمنا؟

---

٣٥٩ البَزُّ: نوع من الثياب.

٣٦٠ أي أضاعتها.

٣٦١ أي ما جاءَ بك.

قال: «**أشفقَتْ هذه الجارية أن تضربوها**».

قال صاحبها: هي حرَّةٌ لوجه الله لِمَمشاك معها، فبشَّرهم رسول الله ﷺ بالخير والجنة، وقال:

«**لقد بارك الله في العشرة، كسا الله نبيه قميصًا، ورجلًا من الأنصار قميصًا، وأعتق منها رقبة، وأحمدُ اللهَ هوَ الذي رزقنا هذا بقدرته**».[٣٦٢] [٣٦٣]

ولم يكن يرضَى رسول الله ﷺ أن يُؤذَى العبيد والخدم قطُّ، فقد قال:

«**لا يدخل الجنةَ سَيِّئُ المَلَكَةِ**».[٣٦٤]

«**أكرموهم ككرامة أولادكم**».[٣٦٥]

---

٣٦٢ الهيثمي، جـ٩، ص١٣-١٤.

٣٦٣ لقد عاش رسول الله ﷺ وصحابته الكرام هذه الأخلاق الحميدة على أفضل صورة، وأضحوا قدوةً للأجيال المؤمنة التالية. وفي تاريخ الإسلام أمثلة كثيرة تدلنا على النظر إلى المخلوقات بنظرة الخالق؛ أي نظر الرأفة والرحمة، ومن الأمثلة النادرة لذلك أن السلطانة «بزمي عالَم» زوجة السلطان العثماني محمود الثاني أسَّست وقفًا في دمشق، وكان من مواد الوقف أن يعوَّض كل ما يكسره الخدمُ دون عمد، أو كل ضرر أو أذى يسبِّبونه، والغاية من وراء ذلك الخشيةُ من أن يتعرضوا للإذلال أو تنكسر قلوبهم أو يؤذَى شرفهم وعزَّة نفوسهم.

٣٦٤ الترمذي، البر، ٢٩/ ١٩٤٦؛ أحمد، جـ١، ص٧.

٣٦٥ ابن ماجه، الأدب، ١٠.



«إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يُجلِسْهُ معه، فليناوله أُكلةً أو أُكلتَين، أو لقمةً أو لقمتَين، فإنه وَلِيَ[٣٦٦] **حَرَّهُ وَعِلاَجَهُ**[٣٦٧]». [٣٦٨]

والله تعالى قد جعل هذه الطائفة من الناس خدَمًا وعبيدًا للأسياد، ولو شاء الله ﷻ لجعل العبيدَ أسيادًا والأسيادَ عبيدًا.

ولقد بلغت رحمة النبي ﷺ بالعبيد درجةً عظيمةً، إذ كان لا يرضى أن يقول السيِّد لعبده: «عبدي أو أَمَتي»، بل كان يوصيه ويأمره أن يخاطبه بقوله: «فتاي أو فتاتي»، فذلك أنسب وأليق بأخلاق الإسلام.[٣٦٩]

وكان رسول الله ﷺ يُجالس العبيد والخَدَم والفقراء، ويتحدث إليهم، ويقبل دعواتهم، ويعود مرضاهم، ويشيِّع موتاهم.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان من آخر وصية رسول الله ﷺ: **«الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيمانكم»**، حتى جعل نبي الله ﷺ يُلَجْلِجُهَا في صدره وما يُفِيضُ بها لسانه.[٣٧٠]



٣٦٦ وَلِيَ: تولىَّ.

٣٦٧ حَرَّه: حرُّ الطعام ورائحته أثناء طبخه، وعلاجه: تركيبه وتهيئته وإصلاحه.

٣٦٨ البخاري، الأطعمة، ٥٥/ ٥٤٦٠.

٣٦٩ انظر: مسلم، الألفاظ، ١٣-١٥؛ أبو داود، الأدب، ٨٣/ ٤٩٧٥، ٤٩٧٦.

٣٧٠ أحمد، جـ٦، ص ٢٩٠، ٣١٥؛ انظر أيضًا: أبو داود، الأدب، ١٢٣-١٢٤/ ٥١٥٦؛ ابن ماجه، الوصايا، ١؛ البيهقي، شعب، جـ٧، ص ٤٧٧.



وليس لنا هنا بدٌّ من التذكير بالأمر التالي:

إن ما نراه من أحكام خاصة بالعبيد في التشريع الإسلام إنما كان بسبب الحروبُ التي لا يمكن تفاديها ما دام الإنسان يحيا في هذه الأرض، والتي كان الأسرى نتيجة طبيعية لها. والإسلام – وإن لم يستطع أن يلغي العبودية في تلك الفترة- إلا أنه عمل على أن يرفع درجة الأسير إلى درجة الإنسان الحر، لأن الصفةَ الأبرز في نظام الإسلام الرأفةُ والرحمةُ.

وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يُسَرُّ بعتق العبيد والارتقاء بمستوى حياتهم إلى درجة تليق بشرف الإنسان وعزَّته.

وخير مثال لذلك معاملته لزيد بن حارثة ﷺ:

إذ أعتق سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة الذي كان عبدًا أهدته إليه السيدة خديجة ﷺ، وفوق ذلك خيَّره بينه وبين أبيه، فاختار زيد رسول الله ﷺ، وقال لأبيه وعمِّه اللذَين جاءَا ليأخذاه:

«إنكما أبي وعمِّي، غير أنني لست بالذي أختار عليه أحدًا»

مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له آنذاك سلطةٌ أو قوةٌ ماديةٌ، ولم يُبعَث نبيًّا بعدُ.

ثم صار هذا الصحابي لجدارته وفضائله من كبار الصحابة، حتى إن رسول الله عليه الصلاة والسلام عيَّنه قائد جيش المسلمين



المتوجِّه للقاء الروم في غزوة مؤتة. فقاتل زيد في المعركة واستبسل حتى سقَطَ شهيدًا، وصارت سيرته قدوةً رائعةً للأجيال التالية. وكانت حياته ببركة الإسلام كحياة سيدنا يوسف عليه السلام حينما انتقل من حال العبودية إلى حال السيادة.

إن الإسلام نظام متوازن متكامل، لذلك لا يأبى المزايا الإيجابية لأي نظام سبَقه، بل يزيد من محاسنه وفضائله، ويسعى لإصلاح أخطائه، ولا يرى حرَجًا في المحافظة على إيجابيات ما مضى انطلاقًا من القواعد الأساسية التي وضعها، فالإسلام يفضِّل إحياء أي نظام يحتاج إلى الإصلاح بدل هدمه وإزالته.

وطريقة الإسلام في إصلاح المجتمعات ليست بإحداث تغييرات فورية تزعزع النظام الاجتماعي، بل بتثبيت الأسس التي جاء بها مع مرور الوقت. فالإسلام لا يفرض الأمر بصورة منفِّرة، وبذلك يزيل أي احتمال لرود أفعال عكسية.

وأوضح مثال لذلك إصلاح نظام الرِّق، إذ أبقَى الإسلامُ هذا النظام الظالم اسمًا فقط، وجعله في إطار فضيلة تضمن زواله بصورة طبيعية مع مرور الوقت، وهذه الفضيلة إنما هي «عتق العبيد».

والاعتقاد بأن الإسلام قبِلَ نظام الرِّقِّ وأقره حينما أبقاه اسمًا مدةً من الزمن إنما هو اعتقاد ناتج عن جهل أو غايات دنيئة، فالقواعد الإسلامية الجديدة الخاصة بالعبيد جعلتهم يتنعَّمون



بالحرية والإنسانية أكثر من الذين يُعدُّون اليوم أحرارًا، وهم في الحقيقة ليسوا إلا عبيدًا للصناعة الحديثة وقعوا في براثِن نظامَي الرأسمالية أو الشيوعية اللتَين لا تجد في قاموسهما كلمة رحمة.

وقد جعل هذا الدين العظيم عتقَ العبيد كفَّارةَ كثير من الذنوب والآثام، وحرَّر العبد من أن يكون أداة لنفع صاحبه، فلم يبقِ أي فرق كبير بين الحرِّ والعبد. وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام أوَّل من طبَّقَ تعاليم الدين في إطعام العبد مما يأكله السيد، وإلباسه مما يلبس. وضَعُفَ نظام الرِّق في المجتمع حينما صار السيد يخشى- ببركة رحمة الإسلام ورأفته- من حق العبد، فأعتق كثيرٌ من الصحابة عبيدهم في وقت قصير لخشيتهم من عدم إيفاء حقوق عبيدهم.

والحادثة التالية من أفضل الأمثلة التي تبيِّن ما ذكرناه:

عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رجلًا قعد بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكِين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال:

«يُحْسَبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقْتُصَّ لهم منك الفضل».



قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «**أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**[٣٧١]».

فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أُشهِدُكَ أنهم أحرار كلهم.[٣٧٢]

والحق أن سيدنا محمدًا ﷺ كان يطلب من أصحابه أن يُعلِّموا أسرى الحرب والعبيد ويعتقوهم ويزوِّجوهم، ويوضِّح لهم أن من يُسِيءُ معاملة العبيد لن يدخل الجنة؛ أي إن في حسن معاملة العبد بركة ومسرَّة، وفي إساءة معاملته مصيبة ومضرَّة.



لقد كان الصحابة الكرام في الجاهلية بين فكَّي الحرص على الدنيا، تقودهم العصبية العرقية، مُشتَّتين مُنقسمين إلى أسياد وعبيد، وأغنياء وفقراء، راضين بشرب دماء بعضهم بعضًا. لكن لمَّا تشرفوا بالإسلام، عاشوا في جو من الأخوة التي لا مثيل لها، وصارت الألسنة تتناقل فضائلهم، فقد أيقنوا أن الناس مثل أسنان المِشط لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

---

٣٧١ الأنبياء: ٤٧.

٣٧٢ الترمذي، تفسير، ٢١/ ٣١٦٥.

وبعد فتح مكة قرَّر رسول الله ﷺ أن يحارب الروم مرة ثانية، وعيَّن أسامة بن زيد قائدًا للجيش، وهو الذي كان أبوه زيد مولى عنده. وكان أسامة آنذاك في العشرين من عمره، لكن تأخر تحرك هذا الجيش لوفاة رسول الله ﷺ، ثم تحرك بأمر من خليفة رسول الله سيدنا أبي بكر الصديق ﵁، ومشى وراء هذا القائد الشاب كثيرٌ من الصحابة العظماء وأشراف قريش، حتى إن سيدنا أبا بكر ﵁ خرج مع الجيش حتى حدود المدينة- مع أنه كان الخليفة- يصحب القائد الشاب أسامة، ماشيًا على قدمَيه... وكلما أراد أسامة ﵁ أن ينزل ليركب سيدنا أبو بكر ﵁ قال:

«والله لا تنزل، ووالله لا أركب وما عليَّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله».[٣٧٣]

فنستخلص من هذه الحادثة أنَّ مَن ربَّاهم رسول الله ﷺ بين يدَيه المبارَكتَين، زال الانقسام بينهم، فلم يعد هناك فرقٌ بين العبد والحر، والفقير والغني، والخادم والسيد، والشاب والهرِم، بل صار شأنُ كل واحد منهم على قدْر إخلاصه وجدراته.

والحديث الذي ذكرناه آنفا عن أبي ذر وكيف كان يعامل عبده أبلغ دليل على ما وصلت إليه الحال بين الصحابة من المساواة بسبب تطبيق توصيات النبي ﷺ في هذا الأمر، فعن المعرور بن

٣٧٣ ابن كثير، البداية، جـ٤، ٢٩٧-٢٩٨؛ علي المتقي، جـ١٠، ٥٧٨-٥٧٩/ ٣٠٢٦٨.

سويد، قال: لقيت أبا ذر بالرَّبَذَة، وعليه حُلَّة، وعلى غلامه حُلَّة، فسألته عن ذلك، فقال: قال لي النبي ﷺ:

«**إخوانكم خَوَلُكُم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**». [٣٧٤]

لقد جعل الإسلام هذه الفضيلة العظيمة- بالأحكام التي جاء بها- هديةً قيمةً للبشر جميعًا.



هديُ نبي الرحمة في معاملة الحيوانات

كان الناس في الجاهلية يعاملون الحيوانات بظلم ووحشية؛ إذ كانوا يقطعون أسنمة الإبل وأَلْيَة الغنم وهي حية، وكانوا يقيمون مسابقات تتصارع فيها الحيوانات، فأنهى رسول الله ﷺ تلك المظاهر التي ليس فيها أي ذرة من الإنسانية، وقال:

«**ما قُطِعَ من البهيمة وهي حية فهي ميتة**». [٣٧٥]

ومما بقيَ في أيامنا هذه من آثار الجاهلية ما نراه اليوم من عادات مثل مصارعة الديوك، والإبل، والثيران؛ عاداتٌ ليس فيها أي ذرة من رحمة أو شفقة.

---

٣٧٤ البخاري، الإيمان ٢٢، عتق ١٥؛ مسلم، الأيمان، ٤٠/ ١٦٦١.

٣٧٥ الترمذي، الصيد، ١٢/ ١٤٨٠.



وقد رأى رسول الله ﷺ حمارًا وُسِم في وجهه، فقال:

«لعن الله الذي وَسَمه».[٣٧٦]

وكان النبي ﷺ يوصي بوسمِ الحيوان لغرض الإشارة في الأماكن التي لا تؤلِمه.

ومرَّ النبي ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه من شدة الهزال، فقال:

«اتقوا الله في هذه البهائم الْمُعْجَمَةِ[٣٧٧]، فاركَبوها صالحة، وكلوها صالحة».[٣٧٨]

ودخلَ رسول الله ﷺ حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جملٌ، فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ[٣٧٩] فسكت، فقال: **«من ربُّ هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟»**، فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله. فقال:

«أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها؟، فإنه شكا إليَّ أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ[٣٨٠]».[٣٨١]

---

٣٧٦ مسلم اللباس، ١٠٧/ ٢١١٧.

٣٧٧ المعجمة: أي التي لا تنطق.

٣٧٨ أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٨.

٣٧٩ الذِّفرَى من الحيوان والإنسان: العظم الشاخص خلف الأذن.

٣٨٠ أدأبَ دابَّته: دأَبهَا: أي ساقها سوقًا شديدًا.

٣٨١ أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٩.



وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار، على كل قريب هين سهل».[٣٨٢]

وعن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ على قومٍ وهم وقوفٌ على دواب لهم ورواحل، فقال لهم:

«اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرُبَّ مركوبةٍ خيرٌ من راكبها وأكثر ذكرًا لله تبارك وتعالى منه».[٣٨٣]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ برجل، وهو يجرُّ شاةً بأذنها، فقال:

«دع أذنها، وخذ بسَالِفَتها[٣٨٤]».[٣٨٥]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أمر رسول الله ﷺ بحَدِّ الشِّفَارِ، وأن تُوارَى عن البهائم، وقال:

«إذا ذبح أحدكم، فَلْيُجْهِزْ[٣٨٦]».[٣٨٧]

---

٣٨٢ الترمذي، جـ ٤، ٦٥٤/ ٢٤٨٨؛ أحمد، جـ١، ص٤١٥/ ٣٩٣٨.

٣٨٣ أحمد، جـ٣، ص٤٣٩/ ١٥٦٦٧.

٣٨٤ السالفة: صفحة العنق.

٣٨٥ ابن ماجه، الذبائح، ٣/ ٣١٧١.

٣٨٦ أجهز: أسرع في الذبح.

٣٨٧ ابن ماجه، الذبائح، ٣/ ٢١٧٢.

وعن ابن عباس ﵄ أن رجلًا أضجع شاة يريد أن يذبحها وهو يحد شَفرَتَه، فقال النبي ﷺ:

«أتريد أن تميتها موتات؟ هلَّا حددْتَ شفرتك قبل أن تضجعها».[٣٨٨]

وخرج رسول الله ﷺ يريد مكةَ وهو مُحرِمٌ... حتى إذا كان بالأُثَاية بين الرُّوَيثَة والعَرْج، إذا ظبي حَاقِفٌ[٣٨٩] في ظل وفيه سهم، فزعم أن رسول الله ﷺ أمرَ رجلًا يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزه.[٣٩٠]

ومن أمثلة رحمته الواسعة ﷺ بمخلوقات الله ﷷ أنه لما سار ﷺ من العَرْج، فكان فيما بين العَرْج والطَّلُوب، نظر إلى كلبة تَهِرُّ[٣٩١] على أولادها وهم حولها يَرضَعُونَها، فأمر رجلًا من أصحابه يقال له جُعيلُ بن سراقة أن يقوم حِذاءها، لا يعرِضُ لها أحدٌ من الجيش ولأولادها.[٣٩٢]



---

٣٨٨ الحاكم، جـ٤، ٢٥٧/ ٧٥٦٣.

٣٨٩ حَقَفَ الحيوان: انحنى وتثنى في نومه.

٣٩٠ الموطأ، الحج، ٧٩؛ النسائي، الحج، ٧٨.

٣٩١ هَرَّ الكلبُ: صاتَ من دون نباح وكشرَّ عن أنيابه.

٣٩٢ الواقدي، جـ٢، ص٨٠٤.



وقد شرحَ رسول الله ﷺ حالَ من في قلبه رحمة وحالَ من خلا قلبه منها في الحديثَين التاليَين:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال:

«**غُفِرَ لامرأة مُومسة، مرَّت بكلب على رأس رَكِيٍّ**[٣٩٣] **يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خُفَّها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِرَ لها بذلك**».[٣٩٤]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«**عُذِّبَت امرأةٌ في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش**[٣٩٥] **الأرض**».[٣٩٦]

لقد استطاع رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله التي أصبحت موازينَ لأمته أن يغيِّر المجتمع الجاهلي إلى مجتمع سعيد فاضل؛ فأولئك الذين كانوا في ما مضى يُسِيئون معاملة الإنسان، لا بل كانوا يرتكبون ما هو أفظع إذ كانوا يئدون بناتهم أحياء، غدوا رموزًا للرحمة والرأفة اللَّتين شملتا حتى الحيوانات.

---

٣٩٣ ركي: بئر.

٣٩٤ البخاري، بدء الخلق، ١٧/ ٣٣٢١.

٣٩٥ الخشاش: حشرات الأرض.

٣٩٦ البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، السلام، ١٥١، ١٥٤، البر ١٣٣/ ٢٢٤٢.

فلقد ربَّاهم رسول الله ﷺ على أساس الرحمة والرأفة والرِّقَّة حتى صاروا رحماء فيما بينهم، وكيف لا يكونون كذلك ورسول الله ﷺ أسوتُهم الحسنة الذي كان يهتم حتى بشأن طائر صغير.

فعن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال:

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَةً[٣٩٧] معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرِش[٣٩٨]، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها**». ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «**من حرق هذه؟**» قلنا: نحن. قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**».[٣٩٩]

والصيد في الإسلام جائز، غير أن رسول الله ﷺ أمرَ بالحفاظ على التوازن البيئي قبل ما يزيد على ١٤٠٠ سنة بإشارته إلى مراعاة وقت تفريخ الطيور وولادة الحيوانات. ومما يُفسِد مشاعر الرحمة والرأفة الصيدُ جُزافًا، وصيدُ الحيوان إن كان عنده صغار، أو صيد الصغار وترك الأم وحيدة.

ومن الحقائق التي تُظهِرها هذه الأحاديث الشريفة أنه يجب أن تكون رحمة المؤمن الكامل واسعة فتشمل الحيوانات الوحشية،

---

٣٩٧ الحُمَّرُ: القُبرَّ، نوعٌ من العصافير.

٣٩٨ فَرَشَ الطائر جناحيه: رفرف بجناحيه، بسطهما.

٣٩٩ أبو داود، الجهاد، ١١٢/ ٢٦٧٥، الأدب ١٦٣- ١٦٤/ ٥٢٦٨.



والإسلامُ يبيِّن حتى طريقة قتل الحيوانات الضارة مثل الحيَّة والعقرب وذلك بأن تكون بضربة واحدة كي لا يتعذَّب الحيوان؛ يقول رسول الله ﷺ:

«من قتل وزغًا[٤٠٠] في أول ضربة كُتِبَت له مئة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك».[٤٠١]

أَفليسَ أمرُه عليه الصلاة والسلام بالرحمة حتى في قتل الحيوانات الضارة دليلًا على رأفته التي لا تدانيها رأفة؟

وإضافةً إلى أمره عليه الصلاة والسلام بالتعامل بِرفقٍ مع الحيوانات، فقد نهى عن الدعاء عليها.

ففي غزوة بطن بُواطٍ كان الناضح[٤٠٢] يعتقبه الخمسةُ والستةُ والسبعةُ، فدارت عقبة[٤٠٣] رجل من الأنصار على ناضح له، فأناخه فركبه، ثم بعثه فتلدَّن عليه بعض التلدُّن[٤٠٤]، فقال له: شَأْ، لعنك الله، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: **«من هذا اللَّاعن بعيرَه؟»** قال: أنا يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام:

---

٤٠٠ الوزغ: من فصيلة الزواحف، سامٌّ أبرص.

٤٠١ مسلم، السلام، ١٤٧/ ٢٢٤٠؛ أبو داود، الأدب، ١٦٢-١٦٣/ ٥٢٦٣؛ الترمذي، الصيد، ١٤/ ١٤٨٢.

٤٠٢ الناضح: البعير الذي يُستقَى عليه.

٤٠٣ عقبة: ركوب مقدار فرسخين.

٤٠٤ أي تلكأ وتوقف.

«انزلْ عنه، فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأَلُ فيها عطاءً، فيستجيب لكم».[٤٠٥]

فهذا الحديث الشريف وأمثاله تُبيِّن الرحمةَ العظيمةَ التي لا حدَّ لها في الإسلام بهذه المخلوقات الضعيفة.[٤٠٦]

ولقد كان أبو يزيد البسطامي المشهور بلقب «سلطان العارفين» لتخلقه بأخلاق رسول الله ﷺ يرقُّ قلبُه ويلين من المحبة الإلهية، حتى إنه كان يحسُّ باضطراب المخلوقات لأجل الخالق ﷻ.

فذات مرة رأى رحمه الله حمارًا يُضرَب وينزف دمًا، فجعلت ساقه رحمه الله تنزف دمًا في تلك اللحظة.

وما أكثرَ العِبرَ في الحادثة التالية التي تُظهِر فناء أبي يزيد البسطامي في رسول الله ﷺ ورحمته ورأفته:

---

٤٠٥ مسلم، الزهد، ٧٤/ ٣٠٠٩.

٤٠٦ يقول الكاتب الفرنسي كلود فارير في روحانية المجتمع الإسلامي الناتجة عن الأخلاق الإسلامية التي تأمر بالرحمة والرأفة بالمخلوقات: «إذا مررتم بحيٍّ في إسطنبول، فإنكم تستطيعون أن تعلموا أساكنوها مسلمون أم غير مسلمين بالنظر إلى القطط فيها أو الكلاب. فإن كانت القطط والكلاب تحب المداعبة والملاطفة، فاعلموا أنكم في حيٍّ ساكنوه مسلمون؛ أما إن كانت عدوانيَّة وتفرُّ منكم، فاعلموا أنكم في حيٍّ ساكنوه من غير مسلمين».
إن هذا المشهد الذي ذكره هذا السائح النصراني يوضِّح كيف أن المجتمع الإسلامي يحيا بـ «محبة المخلوقات والرأفة بها لأجل الخالق».



ففي إحدى سياحاته رحمه الله تفيَّأ بشجرة، ثم تابع مسيره، وفي الطريق رأى في جِرابه بعض النمل، فرجع إلى تلك الشجرة التي تفيَّأ بها كي لا تُحرَم تلك النمل من مملكتها ولا تحيا بعيدةً عن وطنها، فوضع النمل في مكانها القديم ومضى في رحلته.

وأحاديث رسول الله ﷺ مليئة بالتنبيهات والإرشادات في هذا الشأن، فهو ﷺ القائل:

«**من حُرِمَ الرِّفق، حُرِمَ الخير...**».[٤٠٧]

إن الرحمة من أبرز صفات المسلم، فكلما بدأنا عملًا وبسمَلْنا، علَّمنا الله تعالى أنه صاحب الرحمة، فالرحمة ميزة شخصية المسلم.

وقد غدا أمرُ الإسلام بهذا القدْر من الرحمة حتى بالحيوانات وسيلةً لنضج قلوب المؤمنين من حيث إن الإنسان أشرفُ مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

وحال الفضيل بن عياض مثال جميل يُرينا نضجَ قلب المؤمن الكامل، إذ سُئل: «لمَ تبكِ؟» فقال رحمه الله:

«أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى وسُئِلَ عن ظلمه ولم تكن له حجة!».

إن هذه الأحوال كلها مظاهر ظريفة رقيقة من مظاهر التربية المحمَّديَّة للقلب.

---

٤٠٧ مسلم، البر، ٧٦/ ٢٥٩٢.

يقول رسول الله ﷺ:

«ارحموا مَن في الأرض، يرحمكم مَن في السماء».[٤٠٨]



سلوك نبي الرحمة مع الأعداء والكافرين

عن أبي بَصْرَةَ الغفاري قال:

أتيت النبي ﷺ لما هاجرت وذلك قبل أن أُسلم، فحلبَ لي شويهة[٤٠٩] كان يحتلبها لأهله فشربتها، فلما أصبحت أسلمت، وقال عيالُ النبي ﷺ: نبيت الليلة كما بتنا البارحة جياعًا، فحلبَ لي رسول الله ﷺ شاةً فشربتها ورَوِيتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**أرَوِيتَ؟**»، فقلت: يا رسول الله، قد رويت ما شبعت، ولا رويت قبل اليوم، فقال النبي ﷺ:

«**إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في مِعًى واحدٍ**».[٤١٠]

فلم يقل النبي ﷺ أي شيء لمَّا رأى فظاظة الرجل وأنانيته حينما كان مُشركًا، بل نام وأهله جياعًا، ولم يُظهِر أي علامة سخط أو استياء، فأسلمَ الرجلُ بعدما رأى هذه الأخلاقَ السامية لنبي الرحمة ﷺ...

---

٤٠٨ الترمذي، البر، ١٦/ ١٩٢٤.

٤٠٩ شويهة: شاة صغيرة.

٤١٠ أحمد، جـ٦، ص٣٩٧.



لقد أحاطت محبة رسول الله ﷺ ورحمتُه كلَّ كائن حيٍّ، فهو المبعوث رحمةً للعالمين. وعن أبي هريرة ﵁ قال: قيل: يا رسول الله ادعُ على المشركين قال:

«**إني لم أُبعَث لعَّانًا، وإنما بُعِثتُ رحمةً**».(٤١١)

ولمَّا ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يبلِّغهم دين الله ﷻ، رموه أهلها من الجهَّال وعبَّاد الأصنام بالحجارة، وفي طريق إيابه عليه الصلاة والسلام- وقد كان في همٍّ وحزن- أرسلَ الله تعالى إليه جبريلَ معه مَلَك الجبال .

فناداه جبريل:

إن الله قد سمع قولَ قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه مَلَكُ الجبال فسلَّم عليه، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبِقَ عليهم الأخشبَين(٤١٢)؟ فقال النبي ﷺ:

«**بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا**».(٤١٣)

---

٤١١ مسلم، البر، ٨٧/ ٢٥٩٩.

٤١٢ الأخشبَين: جبليَ مكة أبي قبيس ومقابله قعيقعان سُمِّيَا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما.

٤١٣ البخاري، بدء الخلق، ٧/ ٣٢٣١؛ مسلم، الجهاد، ١١١/ ١٧٩٥.

فظلَّ أهل الطائف في الكفر والضلال حتى السنة التاسعة للهجرة وكبَّدوا المسملين خسائر فادحة، وقد قيلَ له: يا رسول الله أخرقتنا نبالُ ثقيف فادعُ الله عليهم؛ فقال رسول الله ﷺ:

«**اللهم اهْدِ ثقيفًا وأتِ بهم**».[٤١٤]



قُرَّاءنا الأعزَّاء!

إننا مهما سعينا بما ذكرناه، للتعبير عن هذه الشخصية الفذَّة التي هي في قمة القِمم، فإننا ندرك أننا بعيدون كثيرًا عن حقيقته المطلقة، وإننا لنستحيي أن ندَّعي أننا عرضنا سيرتَه بصورة تليق بشأنه وعزة مقامه. ولعلَّنا بكلماتنا هذه التي تُظهِر عجزنا في هذا الشأن لا نبغي إلا شرف النية والسعي؛ فهو عليه الصلاة والسلام عالَمٌ لا حدَّ له ننفذ إليه على قدر شدَّة محبَّتنا وإخلاصنا.

فنسأل المولى جلَّ وعلا أن يهدينا ويفتح لنا سبيلًا إلى هذا العالَم!

آمين!



٤١٤ ابن هشام، جـ٤، ص١٣٤؛ الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢.



الحلية الشريفة



إن الحلية الشريفة التي تسعى لوصف رسول الله ﷺ بالكلمات تُسكِّن– ولو قليلًا– الأفئدةَ التي لم ترَ النبي ﷺ والتي تفيض محبةً وشوقًا له. لذلك نرى المؤمنين الذين يسعون إلى رؤية المحيط الزاخر في قطرة بواسطة هذه الحلية يبذلون جهدًا للاستفادة من الأسوة الحسنة، والتحلي بشمائله وأخلاقه بزيادة محبتهم لسيد الكون ﷺ.



الحليةُ لغةً الزينةُ، وصفة الإنسان وصورته، أما اصطلاحًا فتعني اللوحة الخطيَّة التي تصف بالكلمات نبي الله محمدًا ﷺ على قدْر طاقة كلام البشر.

يقول العالِم والشاعر العثماني سليمان النحيفي الذي عاش في القرن الثامن عشر:

«لا ريب أنَّ من يكتب الحلية الشريفة ويديم النظر إليها، يحفظه اللهُ تعالى من المرض والكدر وموت الفُجاءة؛ ومن يحملها معه في سفره، يحفظه اللهُ تعالى أبدًا في سفره».

وقد تكلم كثيرٌ من المؤلفين المسلمين حول فضائل الحلية الشريفة الكثيرة، حتى إننا لَنجدُ الناس في كثير من البلاد الإسلامية هذه الأيام يدأبون على حِفْظَ الحلية الشريفة لعلَّ حافظها يرى رسول الله ﷺ في المنام.

إن قلب الإنسان يميل فطرةً إلى الجمال كل حين، لذلك ينشغل الذهن دائمًا به، وتُولَد في القلب رغبةٌ في التشبُّه بالمحبوب خَلقًا وخُلُقًا، ثم تصير أحوال صاحبه كحال الحبيب بالتأسي به. ولا ريب



أنَّ الحليةَ الشريفة وسيلةً لزيادة الشوق للنبي ﷺ ومحبته واتباعه لوجود هذا الميل الفطري.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال:

«سألت خالي هند بن أبي هالة- وكان وصَّافًا- عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا أتعلق به».[415]

إن الحلية الشريفة التي تسعى لوصف رسول الله ﷺ بالكلمات تُسكِّن- ولو قليلًا- الأفئدةَ التي لم ترَ النبي ﷺ والتي تفيض محبةً وشوقًا له. لذلك نرى المؤمنين الذين يسعون إلى رؤية المحيط الزاخر في قطرة بواسطة هذه الحلية يبذلون جهدًا للاستفادة من الأسوة الحسنة، والتحلي بشمائله وأخلاقه بزيادة محبتهم لسيد الكون عليه الصلاة والسلام.

وفوق ذلك كله، علينا أن نضع في الحسبان العجزَ المطلق للبشر في إدراك حقيقته ﷺ، فوجهه المبارك الذي هو «نور على نور» لا يمكن للكلمات أن تصوِّره لعدم كفايتها، وفي التاريخ مثال مشهور نستشهد به في هذا الشأن:

عُيِّن زوجُ السيدة غورجو مُريدة مولانا جلال الدين الرومي واليًا على مدينة قايسري، فأرسلت هذه السيدةُ الرسَّامَ «عينَ الدولة» الذي كان أشهرَ رسَّام في القصر السلجوقي إلى مولانا جلال الدين

٤١٥ الترمذي، الشمائل، ص ١٠.

كي يرسم لها صورته سرًّا ويحضرها إليها، فلما أتى الرسامُ مولانا جلال الدين في حال من الغفلة أخبره الخبر، فتبسَّم مولانا وقال:

«نفِّذ ما أُمِرت به!».

فابتدرَ الرسَّام لرسمِه، غير أنه وجدَ أن اللوحة التي رسمها لا علاقة لها بوجه من يقف أمامه لا من قريب ولا من بعيد، وكأنها لرجل آخر. فبدأ يرسم مرة أخرى، فكانت النتيجة نفسها، فأعاد الرسمَ عشرين مرة، وكان في كل مرة يرى مولانا جلال الدين بصورة مختلفة، ثم أدرك في نهاية المطاف عجزَه، فترك هذا العمل، وانكبَّ على يدي مولانا جلال الدين الرومي، إذ ضاع فنُّه بين خطوط رسوماته.[٤١٦]

فأحيَت هذه الحادثة قلبَ الرسَّام، وجعلته يتعمق في التفكر والتدبر بِحيرَة ودهشة وخوف ووجل، وجعلته يتأمَّل ويتبصَّر في نفسه، ثم قال وهو في هذه الحال:

«إن كان وليُّ هذا الدِّينِ على هذه الحال، فكيف بنبيِّه؟».

ثم جعلَ يتخيل رسول الله ﷺ في قلبه من جانب آخر.

والسؤال هنا: كم يا تُرى تعبِّر الشمائل الشريفة المكتوبة عن حقيقة رسول الله ﷺ؟! الله أعلم، غير أننا نعلم يقينًا أنَّ كلَّ إنسان يستطيع أن يرسم الشمائل الشريفة على قدر محبة النبي ﷺ في قلبه وفي إطار المعاني المحدودة للكلمات.

---

٤١٦ وما زالت تلك الرسومات في متحف مولانا إلى يومنا هذا.



وقد رأينا أنه من المناسب أن ننقل لكم- مع عجزنا- الحليةَ الشريفةَ للنبي ﷺ تبرُّكًا على قدْر ما تعكسه الروايات على قلوبنا.



شمائله الشريفة المباركة

تذكر كثير من الروايات أن رسول الله ﷺ:

كان لا قصيرًا ولا طويلًا وهو إلى الطول أقرب، مُعتدل الخَلْقِ، عريضَ الصدر، بعيدَ ما بين المنكَبين، بين كتفيه خاتم النبوة، ضخمَ الكراديس(٤١٧)، أزهرَ اللون ليس بأبيض أمْهَق(٤١٨) ولا أَدَم(٤١٩)، كفُّه ألين من الديباج والحرير.

وكان يُعرف بريح الطيب إذا أقبل، لا تشم مسكًا ولا عنبرًا أطيبَ من رائحة النبي ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا صافحه الرجل وجد ريحه، وإذا وضع يده على رأس صبي، فيظل يومه يُعرَف من بين الصبيان بريحه على رأسه.

وعن أبي جُحيفة رضي الله عنه أنه قال:

«خرج رسول الله ﷺ بِالْهَاجِرَةِ إلى البطحاء، فتوضأ وصلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين... ثم قام الناس فجعلوا يأخذون يده

٤١٧ أي ضخم مفاصل العظام.

٤١٨ أمهق: ناصع البياض بغير حُمْرة وهو عَيبٌ في الإنسان.

٤١٩ الآدَمُ من الناس: الأَسْمَرُ.



فيمسحون بها وجوههم، فأخذت يده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحًا من المسك».[٤٢٠]

وكان العرق في وجهه كأنه اللؤلؤ، كَثَّ اللِّحيةِ، وعند وفاته لم يُرَ من الشيب إلا نحو سبع عشر أو عشرين شعرة في مقدم لحيته، زجَّ الحاجبين[٤٢١]، سابغهما من غير قرن بينهما، بينهما عِرْقٌ يُدِيرُهُ الغضبُ.

وكان النبي ﷺ أشنب الأسنان[٤٢٢]، يستاك كثيرًا ويوصي بذلك.

وكانت عيناه واسعتين جميلتين، شديدتي سواد الحدقة، ذات أهداب طويلة. إذا نظر إليه الشخص قال أكحل العينين وهو ليس بأكحل.[٤٢٣]

كان وجه رسول الله ﷺ يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر.

وكان بين كتفَيه عليه الصلاة والسلام خاتم النبوة الذي كان كثير من الصحابة يتشوَّقون لتقبيله طوال حياتهم، ولما رُفِعَ هذا الخاتم في وفاته، كان تصديقًا لوفاته.[٤٢٤]

---

٤٢٠ أحمد، جـ٤، ص٣٠٩.

٤٢١ زَجَّ الحاجِبُ: دَقَّ في طولٍ وتقوُّسٍ.

٤٢٢ الأشنب: هو الذي في أسنانه رقة وتحدد.

٤٢٣ انظر: الحاكم، جـ٣، ص١٠؛ أحمد، جـ١، ص٨٩، ٩٦، ١١٧، ١٢٧؛ جـ٤، ص٣٠٩؛ ابن سعد، جـ١، ص٣٧٦، ٤١٢، ٤٢٠- ٤٢٣؛ جـ٢، ص٢٧٢؛ ابن كثير، البداية، جـ٦، ص٣١-٣٣؛ الترمذي، الشمائل، ص١٥.

٤٢٤ الترمذي، الشمائل، ص١٥؛ ابن سعد، جـ٢، ص٢٧٢.



ولم يتغيَّر جسم رسول الله المبارك بعد وفاته. وقد نظر إليه سيدنا أبو بكر ﵁ وهو حزين أشد الحزن يذرف الدموع، ثم قبَّل جبهَته، وقال:

«ما أطيب محياك ومماتك».[425]



بعض من أحواله السامية

لقد كان وجه رسول الله ﷺ أجملَ الوجوه وأطهرها، فعن عبد الله بن سلام- وكان من أحبار اليهود - قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[426] الناس إليه... فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب». وأسلمَ حينها.[427]

وعن الحارث بن عمرو السهمي قال:

أتيت النبي ﷺ وهو بمنى- أو بعرفات- وقد أطاف به الناس، ويجيء الأعراب، فإذا رأوا وجهه قالوا:

«هذا وجه مبارك».[428]

---

٤٢٥ ابن سعد، جـ٢، ص٢٦٥؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٣، ص٥٧.

٤٢٦ انجفل: مضى وأسرعَ.

٤٢٧ الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥؛ ابن ماجة، الأطعمة، ١؛ الإقامة، ١٧٤.

٤٢٨ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ١١٤٨.



فقد كان رسول الله ﷺ جميلًا بهيَّ الطلعة، حتى إنه لم يكن ثمة حاجة إلى معجزة أو دليل أو برهان لإثبات أنه نبي مُرسَل من الله تعالى.

وكان رسول الله ﷺ إذا غضِبَ أعرضَ وأشاحَ، وإذا فرِحَ غضَّ طرفَه.

وكان نوره أول نور، وقد التقى في جسده الطاهر النشاطُ والحياء والعزيمة المدهشة، ولقد كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها.

إن الكلمات لَتعجزُ عن التعبير عن رقَّة قلبه.

وكان في وجهه جمال نوراني، وفي كلامه سلاسة، وفي حركاته لطافة، وفي لسانه طلاقة، وفي كلماته فصاحة، وفي بيانه بلاغة.

كلُّ كلامه حكمة ونصيحة، ليس في حديثه غيبة أو نميمة، يخاطب كل رجل على قدر عقله وإدراكه.

كان عليه الصلاة والسلام دائمَ البِشْرِ، سهل الخُلُقِ، ليِّنَ الجانِبِ، جُلُّ ضحكِه التبسُّمُ.

وكان مَن يراه فجأةً تُصيبه الخشية، ومَن يألفه ويصحبه يحبه ويتعلَّق قلبه به.

وكان عليه الصلاة والسلام يكرم كريم كل قوم ويولِّيه عليهم، وكان من سيرته إيثار أهل الفضل، وَقَسْمَهُ على قدر فضلهم في الدين.



وكان يُحسِن إلى خدَمه، يُطعِمهم مما يأكل ويَكسوهم مما يلبس. وكان كريمًا جوادًا رؤوفًا رحيمًا، جَسورًا عند الحاجة وحليمًا عند الضرورة.

وكان عليه الصلاة والسلام ثابتًا في عهده ووعده، صادقًا في قوله، لا يفوقه أحد من الناس في حُسن أخلاقه ورجاحة عقله، يليق بكلِّ مدحٍ وثناء.

وصفوة الكلام أنه عليه الصلاة والسلام كان حسن الصورة كامل السيرة، ليس مثله أحدٌ خَلقًا وخُلُقًا.

وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلام، فصلٌ لا فضول ولا تقصير، دَمِثًا ليس بالجافي ولا المَهين[٤٢٩].

لا تُغضِبُهُ الدنيا وما كان لها، فإذا تُعُوطي الحقَّ لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها.

كان دخوله لنفسه مأذونًا له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزَّأَ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزَّأَ جزءَه بينه وبين الناس، فيسرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئًا.

---

٤٢٩ رجل مَهين: قليل التمييز ضعيف الرأي.



وكان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكرٍ، لا يُوطِنُ الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قومٍ جلسَ حيث انتهى به المجلس، ويأمر بذلك.

من جالسه أو قاومه في حاجة صابَرَه حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وَسِعَ الناسَ منه بسْطُهُ وخُلقُهُ فصار لهم أبًا وصاروا في الحق عنده سواء، لا يفرِّق بين غني وفقير أو عالم وجاهل.

مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تُؤَبَّنُ(٤٣٠) فيه الحُرَمُ ولا تُنْثَى فلتاته(٤٣١)، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون أو يحوطون الغريب.

كان رسول الله ﷺ ليِّنَ الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّابٍ ولا فحَّاش ولا عيَّاب، يتغافل عما لا يشتهي ولا يدنس منه ولا يُجنِبُ فيه قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار ومما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

---

٤٣٠ أي لا تُذْكَر.

٤٣١ أي لا تُذْكَر زلاَّته.



إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده...، وقد كان الصحابة الكرام يتحلون بالأدب والحياء أمام النبي ﷺ حتى إنهم كانوا يستحيون أن يسألوه، وينتظرون حتى يأتي أعرابي فيسأله مسألة، فيستفيدوا بحديثه عليه الصلاة والسلام.[٤٣٢]



شجاعته وجسارته الفريدة

لا يمكن أن يتخيل المرء بطلًا مِقدامًا أعظم منه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يعرِف قلبُه الخوف والرعب من عدو أبدًا. وكان عليه الصلاة والسلام صابرًا ثابتًا أمام الشدائد والمصائب الجِسام، وكل حركة من حركاته إنما كانت تصدرُ عن تأنٍّ لا عجلة.

فهو عليه الصلاة والسلام الذي مرَّ من بين أولئك الذين أرادوا قتله دون خوف وهو يقرأ من أوائل سورة يس:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٤٣٣]

---

٤٣٢ انظر: ابن سعد، جـ١، ص١٢١، ٣٦٥، ٤٢٢ - ٤٢٥؛ الهيثمي، جـ٩، ص١٣.

٤٣٣ يس: ٨-٩.



وعن علي ﷺ قال:

«لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا».(٤٣٤)

فلقد كان عليه الصلاة والسلام يحارب في الصفوف الأولى دائمًا لإعلاء كلمة الله ﷻ، وفي غزوة حنين لما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، ينادي صحابته، حتى اجتمعوا فكان النصر للمسلمين.(٤٣٥)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لولا أن أشقَّ على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل».(٤٣٦)



إن هذه الخصال السامية والشمائل المباركة والأخلاق الحميدة لرسول الله ﷺ التي سعينا لجمعها والتعبير عنها في هذه الكلمات على قلتها وضيق معانيها، إنما هي على قَدْرِ إدراكنا له عليه الصلاة

٤٣٤ أحمد، جـ١، ص٨٦.

٤٣٥ مسلم، الجهاد، ٧٦-٨١؛ أحمد، جـ٣، ١٥٧، جـ٥، ص٢٨٦؛ ابن هشام، جـ٤، ص٧٢؛ الواقدي، جـ٣، ص٨٩٧-٨٩٩.

٤٣٦ البخاري، الإيمان، ٢٦؛ مسلم، الإمارة، ١٠٣، ١٠٧.



والسلام. فَسِرُّ الوصول إلى مرضاة الله تعالى اتباعُ كتابه وسنة نبيه بإخلاص وصدق وجِدٍّ، ومحبةُ ما يحبه الله ورسوله، وكره ما يكرهانه؛ والفرق بين المحبة والكره هنا كالفرق بين السموات والأرض وبين أعلى عليِّين وأسفل سافلين. والشرط الأساسي للاستفادة من روحانية رسول الله ﷺ محبتُه وكرهُ ما يكرهه.







أشعار وأقوال خالدة
في محبة النبي ﷺ



قال رسول الله ﷺ:

«من أشد أمتي لي حبًّا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»

(مسلم، الجنة، ١٢/ ٢٨٣٢؛ الحاكم، المستدرك، جـ ٤، ٩٥/ ٦٩٩١)



إن القدرة على فهم الحقيقة المحمدية يكون بالمحبة والعشق أكثر من العقل؛ فنيل شرف اتباعه عليه الصلاة والسلام والتلذذ بذلك أمرٌ عظيمٌ، حتى إنه ثمة أنبياء دعوا الله تعالى أن يكونوا من أمته عليه الصلاة والسلام.

فنورُ جماله عليه الصلاة والسلام في نظر صحابته الكرام حجبَ الرؤية عن المخلوقات كلها، لذلك كان جوابهم عن أصغر طلب طلبه:

«فداكَ أبي وأمِّي يا رسول الله!».

وتشريفه الكون في شهر ربيع الأول جعل من أيام هذا الشهر المبارك ولياليه أوقات رحمة ومغفرة للمؤمنين.

وقد بيَّن رسول الله عليه الصلاة والسلام دوام مُحبِّيه دون انقطاع إلى قيام الساعة بقوله:

«مِن أشدِّ أمتي لي حبًّا، ناسٌ يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله».[٤٣٧]

---

٤٣٧ مسلم، الجنة، ١٢/ ٢٨٣٢؛ الحاكم، جـ٤، ٩٥/ ٦٩٩١.



فنسأل الله تعالى أن يجعلنا- نحن العاجزين- من أهل هذا الحديث الشريف! آمين!



ولنذكر هنا مثالًا لهذه المحبة من أحد كبار شعراء القرن الماضي وهو الشاعر يامان دادا الذي كان نصرانيًّا، ثم لمَّا بلغ لذة إدراك الحقيقة المحمدية، صار مؤمنًا تائبًا متضرِّعًا عاشقًا للنبي الكريم، يقول شاعرنا:

لن أشعر بالألم ولو مكثتُ عطشانًا وخرجت روحي في المفازات الملتهبة

ولن أشعر بالماء ولو كنت في أعماق البحار، فالبراكين في أحشائي تنفجر

ولن أشعر بلهيب العشق ولو نزل عليَّ من السموات

فأَدخِل السرور في قلبي بجمالك، فإني المحترق شوقًا يا رسول الله!

وما أعظم أن تغلق العين بعشقك، وتُفدَى الروح في سبيلك

أفلا يكون لي نصيب يا سلطاني أن تخرج روحي في حرمك؟

عندما ينطفئ نور عيناي يسهل خروج روحي في حضرتك

فأَدخِل السرور في قلبي بجمالك، فإني المحترق شوقًا يا رسول الله!



طأطأت رأسي ذليلًا وعندك البلسم لهمومي

وسِرتُ وشفتاي محترقة بذِكرِك

فالطُفْ بقطميرك إن كان مُرادُه قلبك

وأدخِل السرور في قلبي بجمالك، فإني المحترق شوقًا يا رسول الله.

ويحدِّثنا أحد طلبة كاتب هذه الأبيات عن ذكرى تبيِّن درجة محبة أستاذه للنبي ﷺ، إذ يقول:

أنهيت دروسي في أحد الأيام، وخرجت من المدرسة وقت الظهيرة، وانطلقت إلى جهة منطقة «تقسيم» في إسطنبول، وكان هناك مسجد بجوار السفارة الألمانية، ومن ذلك المسجد كنت أصعد الدرجات نحو الأعلى، وإذ بي أرى أستاذي يامان دادا، مستندًا إلى حائط المسجد وكأنه يلفظ أنفاسَه الأخيرة، قد خارت قُواه وطأطأ الرأس.

فهرعت إليه وقلت:

«خيرًا إن شاء الله يا شيخي، شفاك الله، ما بكَ؟ أَأنت مريضٌ؟».

فرأيته يبكي، فقلت:

«لِمَ تبكي يا شيخي، أَنزلَت بكَ مصيبة؟».

فقال لي بصوت خافت مرتجف:



«كلا يا صغيري، كلا! إنه ليُغشَى عليَّ عندما أتذكر رسول الله ﷺ، ولا تبقى لي قوة تحمل جسمي، فإما أن أستند إلى شيء أو أجلس فورًا».(٤٣٨)



لقد جعل رسول الله ﷺ الصحابةَ الكرام يحبُّونه حتى إنه لتعجز الكلمات عن سبرِ أعماق تلك المحبة، ومثل هذه المحبة لا تكون إلا بمحبة إلهية وفيض ربَّاني، وإلا فلا.

ولمَّا كان يومُ أُحُد خاضَ أهل المدينة خيضةً، وقالوا: «قُتِل محمدٌ» حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة، وخرج الناس إلى الطرقات يسألون القادمين ما الخبر. وخرجت السميراء بنت قيس إحدى نساء بني دينار، وقد أصيب ابناها وزوجها وأخوها مع النبي ﷺ في أُحد، فلمَّا نُعيَت بهم قالت: «ما فعل رسول الله ﷺ؟».

قالوا: «خيرًا، هو بحمد الله صالحٌ على ما تحبِّين».

قالت: «أرونيه أنظر إليه!».

فلما رأت رسول الله ﷺ أخذَت بناحية ثوبه، ثم قالت:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذ سَلِمتَ من عطَبٍ».(٤٣٩)

---

٤٣٨ مصطفى أوزضامار، يامان دادا، ص١٩١-١٩٢، دار معرفة للنشر، إسطنبول ١٩٩٤.

٤٣٩ انظر: الواقدي، جـ١، ص٢٩٢؛ الهيثمي، جـ٦، ص١١٥.



ونرى محبة الصحابة العظيمة لرسول الله ﷺ بوضوح أيضًا في خشيتهم عند رواية الحديث الشريف، فالصحابة الكرام كانوا عندما يروون حديثًا عن رسول الله ﷺ، ترتجف أقدامهم، وتصفرُّ وجوههم خشية قول شيء خاطئ دون عمد، أو نسب حديث لرسول الله ﷺ.

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كانت ترتعد فرائصه عندما يقول: «قال رسول الله». وكان كثير من الصحابة الكرام عندما ينسبون قولًا لرسول الله ﷺ يقولون: «أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا بذلك»، لأنهم كانوا يدركون أن النسيان من ضعْفِ الإنسان.

فعن عمرو بن ميمون قال:

ما أخطأني[440] ابن مسعود عشية خميسٍ إلا أتيته فيه، فما سمعته يقول لشيء قط: «قال رسول الله ﷺ»، فلما كان ذات عشية قال: «قال رسول الله ﷺ»، فنكسَ، فنظرت إليه، فهو قائم مُحلَّلةً أزرار قميصه، قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه[441]، قال ابن مسعود: «أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا بذلك».[442]

---

٤٤٠ أي ما فاتني لقاؤه.

٤٤١ وَدَج: عِرقٌ في العنق ينتفخ عند الغضب.

٤٤٢ ابن ماجه، المقدمة، ٣.



لقد كان عليه الصلاة والسلام نبيًّا عظيمًا، فمن معجزاته أنَّ النخلة التي كان يستند إلى جذعها في خطبته بكَت حينما هجرها رسول الله ﷺ، ومن بين أصابعه الشريفة روى صحابته لما عطشوا، وشُفي المرضى الذين شربوا من الركوة[٤٤٣] التي توضأ منها عليه الصلاة والسلام، وسمعَ الذين كانوا على مائدته تسبيح الطعام وهو يؤكَل.[٤٤٤] وقد بقيت شعرات من رأسه ولحيته المباركة وحُفِظت في منابر المساجد، وصارت وسيلةَ بركةٍ لأمَّته من جيل إلى آخر.

إن رسول الله ﷺ إمام المحشر يوم القيامة...

وهو شفيع المذنبين...

وهو الذي سيشفع لأمَّته ويقول: «أمتي، أمتي»...

وهو الذي سيُمْسِك في يده لواء الحمد...

وهو الذي سيكون الأنبياء كلهم تحت ظلِّه...

وهو الذي سيحرك حِلَقَ باب الجنة بيديه...

ويعبِّر الشيخ غالب عن هذا المشهد أجمل تعبير في قوله:

خُطبَتُك تُقرَأ في منابر دار البقاء

وحُكمُك يسري في محكمة يوم القضاء

ولقدومك تُعدُّ المراسم في عرش رب الفضاء

---

٤٤٣ الرَّكوة: إناء من الجلد يُشَرب منه الماء.

٤٤٤ انظر للاستزادة في موضوع معجزات النبي: البخاري، المناقب، ٢٥.

وأسماؤك الشريفة تُذكَر في الأرض والسماء

فأنت أحمد ومحمد يا سيدي!

وأنت السلطان المؤيد من الحق يا سيدي!

وستستمر قافلة محبِّيه عليه الصلاة والسلام في المسير إلى يوم القيامة بمحبته والشوق إليه! ولا يمكن للمرء أن ينال سعادة الدنيا والآخرة إلا إن كان رأسماله محبته عليه الصلاة والسلام.

إن المحبة أساس النضج المعنوي، لكن هذا الأساس الذي يشبه الجبل في عظمَته تقابله هاوية سحيقة، ألا وهي الكره، فأحدهما يجاور الآخر. فعلينا أن نوجِّه المحبة لمن يليق بها والكره لمن يستحقه. ونحن مكلَّفون بكره ما هو ضد ما نحبه، لا محبة ما هو عكس ما نكرهه، لأن المحبة تسبق الكره وهي الجناح الأيمن، أما الكره فيلحق المحبة وهو الجناح الأيسر، والمسلم هو الذي يطير بهذَين الجناحَين، لكن لا بد من تحريك جناح المحبة أولًا قبل الطيران.

وقد لا يكون هناك فرق بين مَن نحب ونكره مَن الجانب المادي، لكن الفرق المعنوي كبير لا متناه بينهما، ذلك أن أحدهما نور والآخر قار.

ومن أعظم الدلائل على ذلك محبتنا لنور الوجود وكرهنا لما يكرهه.



وكانت العادة في الماضي أن تُوضعَ حكمة أو شعر في الأختام، وقد عبَّرت السلطانة الأم «بَزمي عالَم» والدة السلطان العثماني عبد المجيد الأول عن أن الله تعالى قد خلق العالَم لحبِّه النورَ المحمدي، فنقشَت على ختمِها الأبيات التالية:

من المحبة خُلِق محمد

وما المحبة بغير محمد؟!

ومن ظهوره وصَلَت «بَزمي عالَم»...

وعبَّر الشيخ محمد أسعد أربيلي- وهو أحد المشايخ الأجلَّاء في التاريخ الحديث- عن فيوضات المحبة في قلبه لرسول الله ﷺ في قوله:

يا حبيبي، إن الربيع الذي ظهر بتجلي جمالك نار،

والورد نار، والبلبل نار، والسنبل نار، والتراب والشوك نار

وذلك النور البراق مثل الشمس حرَقَ العاشقين كلهم

فالقلب نار، والصدر نار، وهاتان العينان اللتان تبكيان بعشقك نار

وأنَّى لهم غسل شهيد العشق بكل هذه النار؟

والجسم نار، والكفن نار، والماء العذب الذي سيغسل الشهيد نار.



أما الشاعر **فضولي**[٤٤٥] فيعبِّر عن فيوضات قلبه المليء بالشوق إليه عليه الصلاة والسلام في قصيدته المشهورة «**قصيدة الماء**» بقوله:

يا عيني لا تذرفي الدمعَ بالنيران الملتهبة في قلبي
إذ لا ينفع الماء تلك النار الملتهبة بحرارة العشق
أَألوانُ هذه القبة السماوية التي تدور زرقاء؟
أم أن الماء الذي ينزل من عيني قد أحاط بها
وليدَعْ ذلك الفلاح عنه سقاية بستان وروده
فلو سقى ألف وردة ما كانت أجمل من وجهه
فيا أصحابي، إن متُّ متمنِّيًا تقبيل يده
فاصنعوا من تراب قبري كوبًا تكرمون حبيبي به
والماء يجول بين الحجارة طوال عمره
علَّه يصل إلى تراب شرَّفته قدماه.



لقد كان عهد الدولة العثمانية أجمل صفحات التاريخ الإسلامي بعد عصر الصحابة، إذ كانت صفة الناس جميعًا محبةُ رسول الله عليه الصلاة والسلام من السلطان في قصره إلى الراعي في مرعاه.

---

٤٤٥ محمد بن سليمان [١٤٨٣-١٥٥٦م] شاعر تركي عُرِفَ بلقب فضولي البغدادي، يعد من أشهر الشعراء العثمانيين، وأحد رواد المدرسة الكلاسيكية للأدب التركي.



ومن أجمل الأمثلة التي تدل على مظاهر الاحترام الكثيرة التي جعلها سلاطين هذه الدولة العليَّة عُرفًا في المجتمع أنهم لم يكتفوا بالصلاة والسلام على النبي عند ذِكره، بل كانوا يزيدون في الاحترام بأن يضعوا أيديهم على قلوبهم، وكانوا وهم يستمعون إلى مناقبه عليه الصلاة والسلام حين تُذْكَر ولادته يقفون جميعًا تعظيمًا لنبيِّهم. وإذا بحثنا في حياة السلاطين العثمانيين فلن نجد أحدًا منهم قد استمع إلى البريد القادم من المدينة المنورة إلا جدَّد وضوءَه، وقبَّل الأوراق التي جاءت من تلك الديار المباركة، وكحَّل عينيه بالنظر إليها، ووقف باحترام أمامها.

ومن مظاهر الأدب والاحترام التي لم يُرَ مثلها أن العثمانيين لمَّا وسَّعوا المسجد النبوي، كان الصغير والكبير من العمال يتوضَّؤون ثم يعملون، ولم يضعوا حجرًا إلا بعد البسملة، ووضعوا لُبدَة[٤٤٦] على مطارقهم للتخفيف من أصواتها تأدُّبًا في ذلك المكان الذي يرقد فيه رسول الله ﷺ.

وكان الذين يحملون «الصُّرَّة المَلَكيَّة» إلى المدينة المنورة في عهد العثمانيين ينزلون في منطقة قريبة قبل المدينة، ويعدُّون أنفسهم لروحانيتها، وبعد صلاتهم الاستخارة يرتقبون إشارة معنوية للقرب من الروضة الشريفة فيزورونها، وفي أوبَتهم يحملون شيئًا من تراب المدينة المبارك بغية الشفاء والتبرك.

٤٤٦ لُبدَة: غطاء يُتَّخذ من الصوف المتلبِّد.



وأما «الباشوات» العثمانيون المكلفون بالدفاع عن المدينة المنورة فكانوا يوقِفُون عربَاتهم بعيدة عن المسجد النبوي، ويمشون إلى الروضة الشريفة بأدب واحترام.

ومن منَّا لا يعلم أن الريشة في عمامة السلاطين الظاهرة في لوحات المُنمنَمَات كانت قشَّة مكنسة؟ إذ كان كل سلطان يرى نفسه كنَّاسًا للحرمَين الشريفين وخادمًا لهما، وكانوا يعطون مراتب كنَّاسي الحرمَين من مالهم الخاص.

ومن الأمثلة الكثيرة التي تدل على هذا الأدب ما يلي:

رسمَ السلطان أحمد خان الأول على عمامته صورة «القدم الشريف» لرسول الله ﷺ، لعلَّه يستفيض منها، وكان يقول:

«ما يضرُّني حمل قدمَيه الطاهرتين تاجًا على رأسي!

وما يضرُّني أن أمسحَ وجهي بعطر بستان نبوَّته!

أما سلطان العالَم السلطان العثماني ياووز سليم خان، فقد رأى الوليَّ الوارثَ للنبي والذي يوصِل إلى حقيقة رسول الله ﷺ أعزَّ من نِعَم الدنيا كلها إذ قال:

مُلك العالَم صراع لا طائل فيه

وخدمة وليٍّ خير من الكون وما فيه

فبيَّن للناس قيمة أن يكون المرء قريبًا من وليِّ الله ووارثِ أنبيائه.



ويعبِّر الشيخ عزيز محمود هُدائي عن هذه المحبة بقوله:

قدومك رحمة ولذة وصفاء يا رسول الله!

ظهورك بلسمٌ لهموم العشَّاق يا رسول الله!

فاشفع لهُدائي ظاهرًا و باطنًا

فهو سائل ينتسب إلى بابك يا رسول الله!

ومما يُنسب إلى السيدة عائشة رضي الله عنها في وصف رسول الله عليه الصلاة والسلام أنها قالت:

ولو سمعوا في مصر أوصاف خدِّه

لما بذلوا في سوم يوسف من نقد

لواحي زُليخَا لو رأين جبينه

لآثرْنَ بالقَطع القلوبَ على الأيدِي [٤٤٧]

وكان الإمام النووي يحرص على الاستنان برسول الله ﷺ في كل حركاته وسكناته، حتى إنه لم يجد لذَّةً في البِطِّيخ لأنه لم يعلم كيف أكلها رسول الله ﷺ.

وأما الشيخ السيد أحمد اليسوي ولي الله الذي أحيا القلوب بنور الإسلام وفيوضاته من آسيا الوسطى حتى البلقان، فقد كفَّ عن التجول في الأرض بعدما بلغ الثالثة والستين من عمره لحُبِّه الشديد

٤٤٧ انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ٤ / ٣٩٠.



لرسول الله ﷺ، وظل يداوم على حياة الإرشاد في مخزن أشبه بالقبر عشر سنين حتى وفاته.

ولم يركب الإمام مالك رحمه الله دابةً في المدينة المنورة احترامًا للتراب الذي دعس عليه رسول الله ﷺ، ولم يلبس نعلًا فيها. وكان إذا جاءه ضيف يسأله عن حديث شريف توضَّأ، ولبسَ عمامته، وتطيَّبَ، وجلَسَ في مكان مرتفع ثم استقبلَ ضيفه، فكان يعدُّ نفسه لروحانية رسول الله ﷺ، ويحرص على الأدب لأنه ينقل كلامه المبارك عليه الصلاة والسلام. ولمَّا كان إمامًا في الروضة الشريفة كان يخفض صوته في حديثه، وذات مرة جاء الخليفة أبو جعفر المنصور وتكلم بصوت عالٍ هناك، فقال له الإمام مالك:

يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدَّبَ قومًا فقال:

﴿...لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [٤٤٨]

وسامحَ الإمام مالك والي المدينة الذي ظلمه وقال له:

«إني لأستحي أن أُخاصِم مَنْ هو من نسل رسول الله يوم الحشر!».

---

٤٤٨ الحجرات: ٢.



وقد حزن الشاعر العثماني يوسف نابي كثيرًا لما رأى أحد «الباشاوات» يمدُّ قدميه إلى جهة الروضة الشريفة بغفلة أثناء اقتراب قافلة الحج من المدينة المنورة، وعبَّر عن تعظيمه لشأن النبي ﷺ في حزن وأسف في الأبيات التالية:

حذارِ من ترك الأدب في بلد المحبوب

وموضع نظر الله، ومقام نبيِّه المصطفى

يا نابي، ادخل هذه الديار بأدب

فهو مطاف الملائكة ومقامٌ يُقبِّلُ أعتابَه الأنبياءُ.



وحتى الجمادات قد أحبَّته عليه الصلاة والسلام، يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله».[٤٤٩]

ويرى الشاعر العثماني سليمان شلبي أن نور رسول الله ﷺ نور عظيم حتى إن الشمس كأنها تدور حوله.

وما أجمل وصف الشاعر كمال أديب كوركشو أوغلو لاشتياق المخلوقات في السماء لرسول الله ﷺ بعد أن عُرِج به، إذ قال:

---

٤٤٩ الترمذي، المناقب، ٦/ ٣٦٢٦.



السماء تسجد شكرًا لله أن رأتْ ليلةَ المعراج مُحيَّاه

والروح القدس يُحرِم كل ليلة لينزل ضيفًا على تلك البلدة

من يرى جمال المصطفى يحار ويطمع أن يراه...

إن النبي ﷺ مركزُ تجلي المحبة الإلهية التي تُنضِج المحبَّات المجازيَّة في المخلوقات وتُعلي مقامها. ولا شك أن المؤمن حينما يحسُّ بتلك المشاعر البديعة والأحاسيس المرهفة أمام رسول الله ﷺ، ويُفرِغ روحَه من كلِّ ما يتعلق بأهواء نفسه، فهو حينئذ في طريق نيل نصيب من محبة نبيه والتخلق بأخلاقه والتأسي بأحواله.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«إن الدنيا والآخرة قد خُلقتا لأجل فؤادٍ واحد! فتفكر جيدًا في معنى قول: (لولاكَ، ولو لم تكن، ما خلقتُ هذا الكون)».





الخلاصة

نستخلص من كل ما ذكرناه أننا سنظل مقصِّرين مهما احترمنا رسولنا محمدًا ﷺ أو أي شيء- ولو صَغُرَ- يكون وسيلةً للتذكير به! فهو الذي خصَّه الله سبحانه وتعالى بقوله له: «حبيبي».

وعندما نقف أمام الحقيقة القرآنية التي تبيِّن أن الله سبحانه وتعالى مع ملائكته- الذين لا يُحصون عددًا- يصلُّون ويسلمون عليه، إذ يقول خالق الكون:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٤٥٠]

ندرك أنه لا يمكن وصف فضل هذا النبي العظيم وكماله، ولا إدراكه، ولا الإحاطة به في حدود هذه الكلمات، وليس لنا عندئذ مناص إلا السكوت أمام عظمته عليه الصلاة والسلام. وعندما تكون الألسنة كلُّ الألسنة عاجزةً عجزًا مطلقًا عن وصفه، فلن يكون وصفنا إلا غيضًا من فيض...

---

٤٥٠ الأحزاب: ٥٦.

ولم يفلح أحد في هذه الدنيا أن يصفه عليه الصلاة والسلام وصفًا كاملًا كما يليق به، ولم يدرك أحد سمو خلْقِه وخُلُقه كما ينبغي. وقد علِمَ العلماء والمفكرون وسلاطين القلوب وحتى جبريل عليه السلام أنَّ السيرَ على نهجه «عِزَّةٌ» وأنَّ الوقوفَ على بابه سائلًا «شرفٌ».

ويلخِّص هذه الحال الشاعر سليمان شلبي على أجمل صورة إذ يقول:

حسبنا شرفًا أننا من أمَّتك

وحسبنا عِزَّةً أننا نخدمك



فطوبى لأولئك المؤمنين الذين لا يطغى على أفئدتهم إلا محبةُ الله ورسوله، ولا يغترون بما لذَّ وطاب في هذه الدنيا الفانية!

فلنرجع إلى ربنا متنسمين روحانية نبي الرحمة بكل ذرة موجودة فينا...

ولنبتهل إلى ربنا مستشفعين بمحبته عليه الصلاة والسلام حجةً لنا لا علينا...

وليكن نبيُّنا عليه الصلاة والسلام بركةً ورحمةً للمخلوقات في الماضي والحاضر والمستقبل!

فالصلاة والسلام على محمد المصطفى سيد الكونَين!



والصلاة والسلام على محمد المصطفى رسول الثقلَين...

والصلاة والسلام على محمد المصطفى إمام الحرمَين...

والصلاة والسلام على محمد المصطفى جد الحسنَين...

اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلِّم.

ولتمتلئ الأيام والليالي بذِكرِه عليه الصلاة والسلام!

آمين! آمين! آمين [٤٥١]

فيا رب، احشرنا بهذا الإقرار في دار القرار!

آمين!



٤٥١ عارف نهاد آسيا، الأدعية، إسطنبول ١٩٧٣، ص١٢٢.





معجزات الأنبياء
والقرآن الكريم



قال الله ﷻ:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾

(البروج: ٢١-٢٢)



معجزات الأنبياء
والقرآن الكريم

لقد وضعَ الله تعالى مناقبَ سامية وخصالًا حميدة في فطرة عباده، وإضافة إلى ذلك خصَّ بعضًا من عباده الصالحين بمهمة إرشاد الناس كي يوصلوهم إلى الهداية، وخصَّ بعضًا من عباده الصالحين بالوحي، وهم الأنبياء عليهم السلام.

وقد بدأ إرسال الأنبياء مع بدء الخلق عونًا إلهيًّا لبني البشر، فكان أول البشر أول الأنبياء، لتكون الهداية من البدء إلى المنتهى.

وكانت سنة الله تعالى- عندما يُفسِد الناس ما جاء به الوحي الإلهي مع مرور الزمن- أن يرسِل نبيًّا يبلِّغهم من جديد رسالات ربه وأحكامه التي توافق التطور الاجتماعي للبشر، وقد استمر هذا الأمر على هذا المنوال من لدن آدم عليه السلام حتى آخر الأنبياء سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ولمَّا كان الله تعالى يرسل نبيًّا من بين عباده الصالحين، يقول الناس له:

«إن كنتَ تدَّعي أنك نبيٌّ، فأرِنا معجزةً تفوق قدرة البشر؟».



فكان النبي المُرسَل يُظهِر- بتأييد من الله تعالى- معجزةً تفوق طاقتهم فيما يبرعون فيه، فيؤمن جماعة بما جاء به، وأما من اسودَّت قلوبهم وأظلَمَت في عالم شهوات النفس وميولها وغوائلها، فيتهمونَه بالسحر ويعادونَه.

ومن حقائق التاريخ التي لا ينكرها إلا جاهل أن كلَّ نبيٍّ أظهر معجزات كثيرة على حسب عصره، فالطبُّ مثلًا كان أعظم العلوم في عهد سيدنا عيسى عليه السلام، والأطباءُ الذين يُبرِئُون المرضى كانوا أعزَّ الناس وأكثرهم جدارةً بالاحترام والتقدير، لذلك أكرمَ الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى عليه السلام بمعجزات أعجزَت الأطباء، فكان يُبرِئ الأكمَه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن ربه.

وأما في عهد سيدنا موسى عليه السلام فقد كان السِّحر مشهورًا، وقد أكرمَ الله تعالى موسى عليه السلام بمعجزة أعجزَت السَّحرة وأذهلَتهم.

وأما عهد سيدنا محمد ﷺ فقد تميَّز بالبلاغة والفصاحة والبيان والأدب، فكان المشهورُ في هذه الميادين يغبطه الناس وينال عظيم التقدير؛ لذلك أكرم الله تعالى نبينا الكريم ﷺ بمعجزة القرآن الكريم التي تفوق كل معجزاته الأخرى، وتُعجِز الناس إلى قيام الساعة، فغاية المعجزات التأثير في الناس وإبهارهم وجعلهم يطيعون أنبياءهم.

إن القرآن الكريم الذي هو كلام الله عز وجل والمصباح الذي ينير للناس دروبهم إلى الأبد، والمُنزَّل على سيدنا محمد ﷺ كي يبلِّغه



للناس، كان أعظمَ المعجزات تأثيرًا، معجزةٌ جعلت الإنسان الذي يدرك البلاغة والفصاحة في ذلك العصر يطيع رسول الله ﷺ. وخير مثال لذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما خرجَ في جاهليته يريد قتل رسول الله ﷺ، فلمَّا سمع مصادفةً آيات القرآن الكريم، انتقل من ظلمات الكفر إلى أنوار الهداية.

ولا بد لنا أن نوضِّح هنا أن معجزات الأنبياء الذين سبقوا رسول الله ﷺ مرتبطة بزمانهم فحسب، أما نبوة سيدنا محمد ﷺ فتشمل الأزمان والأماكن كلها إلى قيام الساعة؛ لذلك اجتمعت معجزات الأنبياء السابقين وقوَّتهم عنده ﷺ، لا بل أكثر وأعظم من ذلك كله، إذ ينبغي أن يرى الناس كلهم معجزاته ﷺ إلى قيام الساعة، لذلك أكرمه المولى عز وجل بأعظم المعجزات؛ القرآن الكريم الذي سيبقى محفوظًا حتى يرث الله الأرضَ ومَن عليها.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٥٢)

فنزلت هاتان الآيتان الكريمتان على العرب الذين طلبوا- بعدما عرفوا الوحيَ أول مرة- دليلًا من رسول الله ﷺ، فدُهِشوا

٤٥٢ العنكبوت: ٥٠-٥١.



وحاروا، وبيَّن لهم الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم أعظم دليل وأبلغ معجزة.

ويقول رسول الله ﷺ:

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمَنَ عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».(٤٥٣)

ومعجزة القرآن إنما تُدرك بالبصيرة، فيكون من يتْبَعه لأجلها أكثر.(٤٥٤)

وقد برزَ إعجاز القرآن- الكتاب السماوي الأخير والأكمل- أكثرَ ما برز في مضمار العقل والبيان لأنهما من الصفات الأساسية التي تميِّز الإنسان عن غيره من المخلوقات، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(٤٥٥)

وإلى جانب معجزة القرآن التي أكرمَ الله تعالى نبيَّه محمدًا ﷺ بها والتي ستستمر إلى قيام الساعة، أكرمَه المولى- كمَن سبقه من الأنبياء- بمعجزات كثيرة مقيدة بزمان ومكان، وقد كُتِبَت مجلدات

---

٤٥٣ البخاري، الاعتصام ١، فضائل القرآن ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٣٩/ ١٥٢.

٤٥٤ السيوطي، الإتقان، جـ٤، ص٣.

٤٥٥ الرحمن: ١-٤.

ضخمة تتحدث عن هذه المعجزات، وإن كان علينا أن نعرض بعضًا من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه، فيمكننا أن نذكر منها:

- انشقاقُ القمر شِقَّتَين لمَّا طلبت قريش منه معجزةً.[٤٥٦]
- إطعامُ الكثير من الناس على قلَّة الطعام.[٤٥٧]
- نبعُ الماء من بين أصابعه المباركة، وشربُ الجيش كله منه حتى ارتووا وقضوا حوائجهم.[٤٥٨]
- قبضه عليه الصلاة والسلام قبضةً من تراب الأرض ثم نثرها في وجوه الأعداء، فما بقي أحد منهم إلا أصابه تراب تلك القبضة، فولَّوا مدبرين.[٤٥٩]
- حنين جذع النخلة التي كان يستند إليها رسول الله ﷺ في خطبته، بعدما بنوا له منبرًا.[٤٦٠]

---

٤٥٦ القمر: ١-٣؛ البخاري، المناقب ٢٧، مناقب الأنصار ٣٨، التفسير ٥٤/ ١؛ مسلم، المنافقين، ٤٣، ٤٧، ٤٨؛ أحمد، جـ ١، ص٣٧٧، ٤١٣.

٤٥٧ البخاري، المغازي ٢٩، المناقب ٢٥، الأطعمة ٦؛ مسلم، الأشربة،١٤١، ١٤٢؛ الترمذي، المناقب، ٦؛ الموطَّأ، صفة النبي، ١٩.

٤٥٨ البخاري، المناقب ٢٥، الشروط ١٥، الجهاد ١٣٢؛ مسلم، الفضائل، ٦؛ الترمذي، المناقب، ٦.

٤٥٩ مسلم، الجهاد، ٨١.

٤٦٠ البخاري، المناقب، ٢٥؛ الترمذي، الجمعة ١٠، المناقب ٦؛ النسائي، الجمعة، ١٧؛ ابن ماجه، الإقامة، ١٩٩؛ الدارمي، المقدمة ٦، الصلاة ٢٠٢؛ أحمد، جـ١، ص٢٤٩، ٢٦٧، ٣١٥، ٣٦٣.



- رؤيته ما وراء ظهره.[٤٦١]
- رؤيته في الظلماء كما يرى في النور.[٤٦٢]
- أنه لم يكن يُرى له ظلٌّ في شمس ولا قمر.[٤٦٣]



المعجزة الكبرى: القرآن الكريم

لمَّا أعلنَ رسول الله ﷺ للناس أنه رسول من عند الله يُوحَى إليه، وشرعَ يبلِّغ الإسلام، صدَّه مشركو مكة وازدادوا عنادًا يومًا بعد يوم، وقالوا: ما نزَّل الله من شيء[٤٦٤]، وأن القرآن ليس كلام الله- حاشا لله- بل هو قول بشر، وأن رسول الله ﷺ افترى على الله كذبًا[٤٦٥]. واتَّهموا رسولَ الله ﷺ بتُهَمٍ شتَّى، من الجنون، إلى الشعر، والكهانة، والسِّحر.[٤٦٦]

---

٤٦١ البخاري، الأذان، ٨٨.

٤٦٢ البخاري، دلائل النبوة، ٧٥.

٤٦٣ السيوطي، الخصائص الكبرى، جـ١، ص١١٦.

٤٦٤ انظر: الملك: ٩.

٤٦٥ انظر: المؤمنون: ٣٨؛ المدثر: ٢٤- ٢٥.

٤٦٦ انظر: يونس: ٢؛ الحجر: ٦؛ الإسراء: ٤٧؛ الفرقان: ٨؛ الصافات: ٣٦؛ ص: ٤؛ الضحى: ١٤؛ الطور: ٢٩-٣٠؛ القلم: ٥١.



فبيَّن الله تعالى في آيات كتابه أن تُهَم المنكرين كلها باطلة[٤٦٧]، وأن القرآن الكريم نُزِّل على رسول الله ﷺ من رب العالمين خالق السماوات والأرض بواسطة جبريل عليه السلام.[٤٦٨]

ولما رأى المنكرون أنهم وقعوا في تناقضات كبيرة في ادعاءاتهم حول القرآن ومصدره، جعلوا يبحثون عن طرق أخرى. فعندما سمعوا قصص الأقوام الذين سبقوهم تُتلَى في القرآن، سعوا لتشويه صورة القرآن بأنه إفكٌ افتراه النبي وأنه أساطير الأوَّلين تُملَى عليه،[٤٦٩] وزعموا أن رجلًا أعجميًّا يعلِّم النبيَّ القرآنَ. فأبطلَ الله تعالى زعمَهم هذا مذكِّرًا إياهم ببطلان فكرة أن يستطيعَ رجلٌ أعجميٌّ تعليمَ النبيِّ كتابًا عربيًّا فصيحًا بيِّنًا مثل القرآن الكريم.[٤٧٠]

ولم يكن أحدٌ من منكري القرآن ودعوة النبي ﷺ يثق بصحة ادعاءاته، لذلك كانوا يغيِّرون آراءهم[٤٧١]، ويختلفون في اتهاماتهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

---

٤٦٧ انظر: الحاقة: ٤١-٤٢؛ التكوير: ٢٥؛ الشعراء: ٢١٠-٢١١.

٤٦٨ انظر: البقرة: ٩٧؛ الشعراء: ١٩٣- ١٩٤؛ طه: ٤؛ الشعراء: ١٩٢؛ السجدة: ٢؛ الواقعة: ٨٠.

٤٦٩ انظر: الفرقان: ٤-٥.

٤٧٠ انظر: النحل: ١٠٣؛ الشعراء: ٢١٠-٢١٢.

٤٧١ انظر: الأنبياء: ٥؛ سعاد يلدرم، مادة «القرآن»، موسوعة الشؤون الدينية الإسلامية، جـ٢٦؛ ص٣٩٣.



فكانت ثمة حاجة لبعض المعجزات التي تُثبِت لهؤلاء المشركين المنكرين أن القرآن كتابٌ من عند الله تعالى، فجعل الله سبحانه وتعالى القرآنَ الكريم معجزةً بحدِّ ذاتها من وجوه مختلفة، وصار القرآن الكريم بذلك دليلًا على صحة محتواه ونبوة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

إن القرآن قد سما في علوِّه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله؛ سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيباته، وهذا هو مصدر الإعجاز فيه.[٤٧٢]

ولم يزد المنكرون أنفسهم إلا خسرانًا حينما فاهُوا بادعاءاتٍ لا سند لها ولا دليل، مثل ادعائهم أن القرآن الكريم افتراه رسول الله عليه الصلاة والسلام. وهم- في الحقيقة- كانوا يعلمون في وجدانهم أن هذا الكتاب المُعجِز ليس إلا وحيًا من الله تعالى نزَّله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. فذلك النبي اليتيم الأُمِّي لم يأخذ درسًا من أحد قط، بل جاء معلِّمًا من المدرسة الربَّانية وترجمانًا لعالم الغيب كي يُخرِج البشر من ظلمات الجهل والظلم إلى أنوار العلم والعدل.

ولما بلغ رسول الله ﷺ الأربعين من عمره، كان ذلك العام من أعظم نقاط التحول في تاريخ البشر.

---

٤٧٢ محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، بيروت ١٩٩٦، ص١٢٥.



فلقد عاش عليه الصلاة والسلام أربعين سنة في مجتمع جاهلي، ثم جاء بأمور يجهل قومهُ أكثرها. ولم يكن يُعرَف أنه حاكم، أو واعظ، أو خطيب.

ولم يسمع أحدٌ منه قبل ذلك كلامًا عن الأمم السابقة والأنبياء والرسل السابقين، ولا عن يوم القيامة، ولا الجنة والنار، بل كان يعيش حياة سامية بأخلاق حميدة. لكنه عندما رجع من غار حراء تغيَّرت حياته- بأمر من الله- تغيرًا جذريًّا.

ولمَّا شرع رسول الله ﷺ يبلِّغ الناس، ارتجَّت جزيرة العرب كلها وأصابتها الخشية والدهشة، فكأنَّ بلاغته وخطابَته سخَّرتهم تسخيرًا، وأنهَت مسابقاتِ الشعر والأدب والبلاغة والفصاحة فجأةً. فما عاد أي شاعر بعد ذلك اليوم يعلِّق قصيدته التي فاز بها على ستار الكعبة، وصار ذلك العُرف الذي امتد لعهود طويلة صفحةً من صفحات التاريخ.



إن هذا الإنسان الأمِّي الذي وُلِد في مجتمع جاهلي بعيدٍ عن الحضارة أعجَز الناس في ذلك العصر بما وضعه بين أيديهم من علم وحكمة، وكذلك برز ببحر معجزاته التي لن يبلغها أحد حتى يوم القيامة، وذلك ثابت في أنَّ أيًّا من الكشوفات لم تُكذِّب القرآنَ الكريمَ منذ ١٤٠٠ سنة، ولن تستطيع، مع أن القرآن الكريم قد ذكر



كثيرًا من المسائل العلمية والوقائع التاريخية في الماضي والأحداث المستقبلية؛ في حين أننا عندما ننظر إلى أشهر الموسوعات اليوم نجد أنهم- بين الفينة والأخرى- يزيدون فيها وينقصون، ويصححون ويعدلون.

وقد علَّم سيدنا محمد ﷺ الناس تعليمًا فعليًّا حقيقةَ أنه خليفة الله في هذه الأرض، إذ وَضَعَ أكمل القواعد في الشؤون الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وإدراة المجتمعات، والعلاقات بين الأمم؛ هذي القواعد التي لا يصل أعظمُ العلماء إلى حكمتها الحقيقية إلا بعد أبحاث يجرونها طوال حياتهم، وتجارب كثيرة على الإنسان والأشياء. ولا جرمَ أن الناس سيدركون الحقيقة المحمدية إدراكًا أفضل كلما تطوَّرت معلوماتهم النظرية وتجاربهم العملية.



١. تحدي القرآن الكريم

لقد أثبت الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم كتاب معجزة بتحدِّيه منكريه.

وتحدي القرآن الكريم مرَّ بأربع مراحل كي لا يُحيِّر عقولَ منكريه بغتةً، ويعطيهم مهلةً ليستعملوا ما أوتوا من قوة بالقدر الكافي، فبذلك يثبت قطعًا أن ليس عندهم القوة الكافية للإتيان بما أتى به القرآن الكريم.



١ . ففي المرحلة الأولى أمرَ الله سبحانه وتعالى المشركين أن يأتوا بكتاب مثل القرآن:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٧٣)

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٤٧٤)

٢ . لما عجز المشركون عن أن يأتوا بكتاب مثل القرآن الكريم، ضيَّق الله عليهم في المرحلة الثانية، إذ أمرهم أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن تسهيلاً لهم، يقول الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٧٥)

لكن المشركين والمنكرين ما استطاعوا أن يجيبوا هذه الدعوة.

٣ . في المرحلة الثالثة أثبتَ الله تعالى حقيقةَ أن القرآن الكريم لم يفتريه أحد، وأنه تنزيل من الله تعالى رب العالمين بلا ريب، وأمرهم أن يأتوا بسورة واحدة فقط من مثل سُوَر القرآن، يقول الله تعالى:

---

٤٧٣ القصص: ٤٩.

٤٧٤ الإسراء: ٨٨.

٤٧٥ هود: ١٣.



﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤٧٦]

٤. ولمَّا عجز المنكرون مرة أخرى، دعاهم الله تعالى في المرحلة الرابعة لأن يأتوا بآية من مثل ما جاء به القرآن:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[٤٧٧]

فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بآية واحدة من مثله. فانظر كيف تنزَّل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل، كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة؛ بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، ربما يكون مثلًا على التقريب لا التحديد.[٤٧٨]

وفي الآية[٤٧٩] التي تلت التحدي حذَّر الله سبحانه وتعالى المنكرين وأخبرهم أنهم لن يأتوا بمثل القرآن أبدًا، وأن ترك عصيانه

---

٤٧٦ يونس:٣٨.

٤٧٧ [الطور: ٣٤] إذا أنعمنا النظر نجد أن الله تعالى يبيِّنُ بصورة قطعية أن القرآن الكريم ليس بكلام بشر حينما يمنحهم في كل مرة فرصة أن يأخذوا العون من أي مخلوق شاؤوا.

٤٧٨ دراز، النبأ العظيم، ص١١٣.

٤٧٩ انظر: البقرة: ٢٤.

والنجاة من غضبه خيرٌ لهم. فقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ في هذه الآية الكريمة فيه من الثقة واليقين التام ما يُشعِر القارئ أن من أصدر مثل هذا الحكم لا يحدُّ علمه وقدرته حدٌّ وأنه منزَّه عن العيوب والمثالب؛ أي أن هذا الحُكمَ من الله ﷻ. والحق أنه ليس هناك أحد سوى الله سبحانه وتعالى يُطلِق هذه الأحكام القطعية التي ستحدث في الغيب الذي لا يعلمه البشر.

«فقطعت [الآية الكريمة] لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله، ولا يقولها عربي في العرب أبدًا، وقد سمعوها واستقرت فيهم، ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفيًا، وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا. وطارت الآية بعجزهم وأسجلته عليهم ووسمتهم على ألسنتهم».[480]

ولو أن هؤلاء المخاطبين في هذه الآيات كان عندهم القوة لتحدي القرآن الكريم، لفعلوا ما استطاعوا مهما كلَّفهم، وبحثوا عن طرق لتحديه لحرصهم الشديد على تفنيد نبوة النبي ﷺ.[481]

لكن أولئك الشعراء والفصحاء الذين كان يشتد التنافس بينهم في أسواق الشعر وأندية الأدب لم يجرؤوا على الاتحاد والإتيان

٤٨٠ الرافعي، الإعجاز، ص١٤٢.

٤٨١ انظر: الصابوني، العقيدة الماتريدية، ص٤٧، ١١٣.



بكلمة مثل القرآن، ورفضوا القرآنَ الكريمَ اتباعًا لأهواء نفوسهم مع أنهم عرفوا بوجدانهم أنه الحق كل الحق.

ولما عجز المشركون عن تحدي القرآن الكريم، لم يجدوا في أيديهم إلا التكذيب والاستفزاز والتحقير والافتراء، وانشغلوا بافتراءات تنافي الحقيقة ولا أصل لها، وتُظهِر عجزهم وتخبُّطهم وتناقضهم، فقالوا عن القرآن الكريم إنَّه:

﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٤٨٢)

﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (٤٨٣)

﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ (٤٨٤)

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٤٨٥)

وفي نهاية المطاف قال الذين كفروا:

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٤٨٦)

فأقرُّوا بهزيمتهم الساحقة أمام القدرة الإلهية وآثارها الصمدانية مهما أنكروا القرآن الكريم.

---

٤٨٢ المدثر: ٢٤.

٤٨٣ القمر: ٢.

٤٨٤ الفرقان: ٤.

٤٨٥ الأنعام: ٢٥؛ الأنفال: ٣١؛ وغيرهما من السور.

٤٨٦ فصلت: ٢٦.

إن تحدي القرآن الكريم أظهر خسران جميع المنكرين وعجزَهم إلى يومنا هذا، ولم يقدروا على الإتيان بسورة من مثل سُوَره. ولم يستطع أي مخلوق تحدي القرآن الكريم منذ ١٤٠٠ عام ولن يستطيع إلى قيام الساعة، وبذلك سيستمر الإعجاز في لغة القرآن إلى أبد الآبدين.

ولا ريب أن القرآن الكريم كتاب مُعجِز لم يفقد تأثيره حتى يومنا هذا، وأن جانبه الإعجازي يتضح أكثر مع ازدياد الاكتشافات العلمية، ولم يستطع أحد حتى تقليدَ سورة من سُوَر القرآن منذ نزوله إلى وقتنا الحاضر. ومن حاول أن يعارضه وأتى بكلام زعمَ أنه قد حاكى به كلام الله ﷻ، جاء مرذولًا سمجًا لا قيمة له. وما إن أقدموا على ذلك حتى نزلوا عن المستوى الذي كانوا يقدرون عليه، وجاؤوا بكلام بارد مضحك يسخر بعضه من بعض، فأُحمِلُوا بذلك عارًا لا ينفك عنهم إلى قيام الساعة.[٤٨٧]



ومن صور تحدي القرآن الكريم أن في أوائل بعض من سوره حروفًا مقطَّعةً مثل: «**الم – الر – حم – يس**»، ومنها ما هي آية بذاتها، ولا يعلم أحدٌ إلا الله سبحانه وتعالى معنى هذه الآيات التي تُسمَّى

٤٨٧ انظر: البوطي، روائع، ص١٢٦، ١٢٩، ١٣٠؛ إسماعيل قرهشام، القرآن المعجزة الأبدية، إسطنبول ١٩٨٧، ص١٥٩–١٧٥؛ نصر الله حجي مفتي أوغلو، عن بلاغة القرآن وإعجازه، أررضروم ٢٠٠١، ص٥٨–٦٢، ٩٠.



«**الآيات المتشابهات**» [٤٨٨]. وقد وضع بعض العلماء الأفاضل آراءً حول الحروف المقطعة منها:

١. أن الله تعالى حينما وضع هذه الحروف كأنَّه تحدى بها الإنس والجن، فقال لهم إن هذا القرآن الكريم الذي بين أيديكم قد تكوَّن من هذه الحروف، فهلموا ورتِّبوا هذه الحروف، وأتوا بكتاب مثل القرآن إن كنتم تستطيعون.

٢. هذه الحروف فنٌّ أدبيٌّ يجذب الانتباه إلى ما يتلوه من موضوعات، فالشروع في الكلام عن مسألة بغموض أحيانًا، وإيضاحها بعد إيماء مليء بالأسرار يجعل الاهتمام بها أكثر.

٣. هذه الحروف إشارة إلى أن التعلم يبدأ بالحروف، ذلك أن العرب آنذاك لم تكن تعلم قراءة الحروف بصورة منفردة، فكان القرآن الكريم أولَّ من علَّمهم ذلك.

ونستخلص من ذلك أن الحروف المقطَّعة إعجاز قرآني يُعجِز البشر جميعًا ولا يعلم سرَّها إلا الله سبحانه وتعالى.



---

٤٨٨ المتشابهات: هي الكلمات أو الآيات ذات المعنى الغامض في القرآن الكريم، والتي قد يكون لها معانٍ كثيرة، ويجد المفسرون صعوبة في تفسيرها، فهذه المتشابهات لا يمكن فهم معناها بحق دون دليل خارجها.



٢. تنزيه القرآن عن التدخل البشري

لم يتدخَّل سيدنا محمد ﷺ بالقرآن الكريم قط، وثمة أحداث مهمة كثيرة تُثبِت هذا الأمر في حياة رسول الله صلى الله عليه سلم، ونذكر منها ما يلي:

أ. القرآن ثمرةُ الوحي

الوحي تعليمُ الله سبحانه وتعالى الناسَ أوامره ونواهيه التي تحدِّد معالم طريق الهداية، وذلك بواسطة الأنبياء بطرق يجهل الإنسان ماهيتها. وقد علَّمَ الله تعالى الحقائق الإلهية بوحيه إلى الأنبياء لعجز الناس بعقولهم المحدودة عن دركِ تلك الحقائق، فالقرآن الكريم على هذا النحو مجموعة معجزات تظهر فيها الحقائق الإلهية على أعمِّ صورة.

ولمَّا كان يُوحَى إلى رسول الله ﷺ، كان يظهر عليه شيء من خوارق العادات لخروجه من حالته البشرية الطبيعية وارتقائه إلى الطبيعة الملائكية؛ إذ كان يثقل جسمه المبارك، وإن كان على ناقته، بَرَكَت، وإن ظلَّ واقفًا انحنت ساقَاه، فكأنها للكسر أقرب.

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال:

«كنت قاعدًا إلى جنب النبي ﷺ يومًا إذ أوحيَ إليه، وغشيته السكينة، ووقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة، فلا والله ما وجدت شيئًا قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ».(٤٨٩)

---

٤٨٩ أحمد، جـ٥، ص١٩٠-١٩١.



وكان رسول الله ﷺ ينكس رأسه تارة حينما يأتيه الوحي، وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين يسمعون عند وجهه دويًّا كدوي النحل، وكان جبينه المبارك يفيض عرقًا حتى في اليوم الشديد البرد.

وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا هذه الأحوال التي كانت تظهر على رسول الله ﷺ بمرض الصرَع، مع أن الأحوال التي كانت تُرَى عليه ﷺ أثناء نزول الوحي لا تشبه البتة أعراض مرض الصرع، وفيما يلي بيان ذلك:

أ. إن المصاب بالصرع يُرهَق إرهاقًا شديدًا ويتألَّم أشد الألم، وتضطرب أحواله الروحانية بعد أن تصيبه النوبة، فيتمنى أن يتخلص منها أبدًا، أما رسول الله ﷺ فكان يرى المدَّةَ بين نزول الوحي مرتَين فترةً[٤٩٠]، ويترقَّب نزول الوحي بشوق وحماسة وكأنه لم يعش ما ذكرناه من شدائد، ويُسرُّ ﷺ بنزوله سرورًا عظيمًا يفوق الوصف.

ب. إن هذه الأحوال التي كانت تظهر على رسول الله ﷺ أثناء نزول الوحي لم تكن دائمة، فأحيانًا كان ينزل الوحي إليه وتكون أحواله طبيعية.

---

٤٩٠ الفَتْرةُ: الانكسار والضَّعف. والفترة: المدة ما بين الرسولَين من رسل الله ﷻ [مختار الصحاح].

ج. من المعروف في الطب أن مريض الصرع حينما تصيبه النوبة يفقد القدرة على التفكير والإدراك تمامًا، ولا يعلم ما يحدث حوله، فينقطع إحساسه بمحيطه انقطاعًا تامًّا؛ أما رسول الله ﷺ فكان يبلِّغ بالوحي الذي ينزل إليه آياتِ القرآن الكريم التي تعلِّم البشر أمورًا عظيمة، مثل الحقوق والأخلاق والعبادات والقصص والعِبَر.

فلا مناص لنا هنا من أن نتساءل: هل يمكن أن يكون هذا الكلام الذي يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثل أصغر سورة فيه صادرًا عن مريض مصابٍ بالصرع!؟

د. إن عدم رؤية الارتعاش الشديد لمريض الصرع في النبي ﷺ أثناء نزول الوحي يُظهِر بوضوح بُطلان هذا الاتهام.

هـ. إن مريض الصرع أثناء نوبته يصدر عنه الهَذَرُ من الكلام، أما رسول الله ﷺ فلم يصدر عنه مثل ذلك، بل إن إعجاز القرآن الكريم البشرَ كلهم لأوضَحُ دليل على افتراء المعارضين والمنكرين.

و. من الحقائق التي يُثبِتها الطب أنه ليس ثمة جسم بشري يتحمل الصرعَ مدَّةً طويلةً تعادل مدة نزول ما يزيد على ست آلاف آية.

في سنة ١٨٤٨م انطلق أحد الرهبان إلى أكاديمية الطب الوطنية الفرنسية يريد أخذ تقرير يبيِّن فيه أن ما جاء به محمد ﷺ ليس وحيًا- وحاشا أن يكون ذلك صحيحًا- بل نتيجة نوبات الصرع، وكأنه بذلك



كمَن يريد تثبيت دعوى في محكمة. لكن العلماء في تلك الأكاديمية أنصفوا بعد أبحاث طويلة، وقدَّموا للراهب تقريرًا يبيِّن له أن النبي ﷺ لم يكن مصابًا بالصرع، مثبتين بالأدلة العلمية أنه لا يمكن لجسم بشري أن يتحمل هذا المرض المدة التي يقتضيها نزول ما يقرب من ست آلاف آية، ورفضوا الدعوة التي جاء بها الراهب.[٤٩١]

ولنتأمل في الحقيقة التالية التي لا تخفى على أحد: ليس ثمة أحد في الكون، لن نقول بين مرضى الصرع بل بين أعظم العلماء في العالَم وحتى بين الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء التربية وعلماء الاجتماع، مثل رسول الله ﷺ في وضعه نظامًا حياتيًا كاملًا تامًا يبقى إلى قيام الساعة، ويلبي حاجات البشر جميعًا، ويجعلهم يحيون في سعادة وطمأنينة.

إن كل هذه التُّهم الصادرة عمدًا ليس فيها أي ذرة من منطق، وليست إلا نتيجة عدم القدرة على إدراك حقيقة رسول الله ﷺ.

فالوحي وحيٌ إلهيٌّ خارق للعادة يفوق أحوال البشر وسلوكهم، ولا يمكن أن يكون حادثة مصطنعة أبدًا.



٤٩١ انظر للاستزادة في هذه الحادثة: الكتاب الذي ترجمه الأستاذ د. فريدون نافذ أوزلاق ونشره باسم «التقرير»، وقد طبع هذا الكتاب دار سبيل للنشر في إسطنبول سنة ١٩٩٦م.

كان رسول الله ﷺ في بداية نزول الوحي إليه يكرِّر الآيات التي تنزل عليه بعَجَلة ويحرِّك لسانه كي لا ينساها. فلو كان القرآن الكريم من عند رسول الله ﷺ، أَكانَ ثمةَ حاجة للعجلة وتحريك اللسان؟ وقد منعه الله سبحانه وتعالى في الآيات التاليات عن هذا السلوك، وتكفَّل له بحفظ الوحي وبيانه إذ يقول المولى ﷻ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٤٩٢)

﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٤٩٣)

فهذه الآيات الكريمات دليل على أن القرآن من مصدر إلهي لا من عند رسول الله ﷺ.



ومن الدلائل على أن القرآن ثمرة الوحي أنَّ المُخاطِب دائمًا في الآيات الكريمة إنما هو الله تعالى. فربُّنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الآمِرُ والناهي، والمعلِّم نبيَّه ما يقول، والمحِبُّ والغاضب، والراضي والساخط، ومن أجلى مظاهر هذه الحقيقة ورود عبارة: «قُلْ» و«قُولُوا» مئات المرات في القرآن الكريم.

---

٤٩٢ القيامة: ١٦-١٩.

٤٩٣ طه: ١١٤.



وثمة- إضافة إلى هذا الأمر- آلاف الأوامر التي تبيِّن ما يريده الله سبحانه وتعالى من عباده، حتى إننا إذا أنعمنا النظر نجد أن الآية الأولى التي نزلت في القرآن الكريم كانت أمرًا، فبذلك يخاطب الله تعالى مخاطبَه من البداية على أنه مخلوقه، ويبيِّن له أنه خالق كل شيء، ويُشعِره- بهذا الخطاب- أنه الإله الوحيد الذي يليق بالعبودية.

ويثبت هذا الأسلوب الآمر في القرآن الكريم كرَّةً أخرى أن الوحي ليس مصدره رسول الله ﷺ، ولا شيئًا من عنده، بل أُنزِل من الخارج على قلبه الطاهر بتجليات إلهية، وأنه ليس له علاقة أبدًا بالفراسة والحدس،[٤٩٤] ولا يتوافق مع «ضوابط الأحاسيس الظاهرة» التي تكشف المجهول بالأدلة العقلية والأفكار التي تنضج بمرور الوقت؛ ففي مرحلة الوحيِ هناك ذاتٌ تتحدث وتأمر وتعطي، وذاتٌ مُخَاطبَة تتلقَّى وتأخذ وتنفِّذ الأوامر.

وقد وصفَ رسول الله ﷺ نزول الوحي على قلبه كما يلي:

«أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي المَلَكُ رجُلًا فيكلِّمني فأعي ما يقول».[٤٩٥]

---

٤٩٤ انظر للاستزادة في هذا الشأن: مسلم دميرجي، حقيقة الوحي، إسطنبول ١٩٩٦، ص٦٩-٧١.

٤٩٥ البخاري، بدء الوحي، ١/ ٦.

ويوضِّح رسول الله ﷺ في الحديث أنه في كلتا الحالَين يكون دقيقًا أشد الدقة كي يعي جيدًا ما يأتي به الوحي، وأنه يكون شاعرًا تمامًا أثناء نزول الوحي سواء كان خفيفًا عليه أم ثقيلًا، ويتلقَّى منه بوعي تام ويفهمه فهمًا تامًّا. ولم يخلط رسول الله ﷺ قط نتيجة هذا الشعور القوي بين شخصيته البشرية التي تتلقى الأمر، والخالق الآمر القادر الذي يرسل الوحي، ذلك أن رسول الله ﷺ كان أبدًا يشعر أنه إنسان ضعيف في حضرة الله تعالى، وهو الذي فضَّل العيش عبدًا متواضعًا،[٤٩٦] وكان يدعو الله كثيرًا بالدعاء التالي:

«يا مقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك».[٤٩٧]

إن قارئ الآيات الكريمة التي تصوِّر النبي ﷺ في حضرة الله ﷻ وهو يطلب العون منه، ويرغب في الهداية والعفو، وينفِّذ ما أُمِرَ به، ويُعاتَب عتابًا شديدًا أحيانًا، سيرى بلا شك الفرقَ الكبير بين الخالق والمخلوق من حيث الصفة والذات والأسلوب. فحال النبي ﷺ التي يبيِّنها القرآن الكريم إنما هي حال عبد يخاف من عذاب ربه أن يخالف أوامره؛ حالُ عبدٍ يخشى خالقه، وينفذ أحكامه، ويرجو رحمته؛ حال عبد مطيع لا يمكن أن يغير حرفًا واحدًا من كتاب الله ﷻ.[٤٩٨]

٤٩٦ انظر: أحمد، جـ٢، ص٢٣١؛ الهيثمي، جـ٩، ص ١٨، ٢٠، ٢١.

٤٩٧ الترمذي، القدر ٧/ ٢١٤٠، الدعوات ٩٠، ١٢٤؛ أحمد، جـ٤، ص١٨٢، جـ٦، ص٩١، ٢٥١، ٣١٥.

٤٩٨ انظر: يونس: ١٥- ١٦.



ومن أوضح الواضحات التي لا مجال للشك فيها أو التردد أن رسول الله ﷺ بشرٌ كغيره من البشر، وأنه مكلَّفٌ بالتبليغ فحسب، وليس عنده خزائن ربه ولا يعلم الغيب، ولم يدِّعِ يومًا أنَّ له سلطة تتجاوز حدود البشر والخلق.[٤٩٩]

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٠٠]

ولما جاء جبريل عليه السلام على هيئة رجل فسأل رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، متى الساعة؟»

قال رسول الله ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**».[٥٠١]

ولمَّا توفِّي عثمان بن مظعون رضي الله عنه في بيت أم العلاء الأنصارية في المدينة، قالت:

رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريكِ؟**» فقالت: لا أدري والله، قال عليه الصلاة والسلام:

---

٤٩٩ انظر: الكهف: ١١٠؛ الأعراف: ١١٨؛ الأنعام: ٥٠.

٥٠٠ الأحقاف: ٩.

٥٠١ مسلم، الإيمان، ١، ٥؛ البخاري، الإيمان، ٣٧.

«أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري- وأنا رسول الله- ما يُفعل بي ولا بكم».[٥٠٢]

فنرى أن رسول الله ﷺ كان في حال من الدعاء وشعور بالعجز والتسليم، مع أن الذي يريد أن يعزِّز شأنه ويثبت أن كل شيء يصدر عنه كلامُه، يتكلم بيقين كل حين؛ فما أشدَّ التناقض في ادَّعاء أن رسول الله ﷺ قد كتب القرآن الكريم الذي يحتوي أخبارًا كثيرة عن الغيب، وهو في الوقت ذاته يبيِّن بوضوح أنه لا يعلم الغيب!

كما أن رسول الله ﷺ كان يفرِّق بوضوح بين الآيات التي تُوحَى إليه والأحاديث الشريفة التي ينطق بها بإلهام من الله سبحانه وتعالى، وقد نهى عن كتابة أي شيء سوى القرآن منذ أول يوم بدأ الوحي فيه كي لا تختلط الآيات بالأحاديث.[٥٠٣] ولما كانت تنزل عليه آية أو بضع آيات، كان رسول الله ﷺ ينادي على أحد كتبة الوحي، ويُكتِبه ما نزل عليه،[٥٠٤] وثمة دلائل أخرى كثيرة مشابهة تبيِّن بوضوح أن الوحي مستقل تمامًا عن أحوال رسول الله ﷺ الروحية والنفسية.[٥٠٥]

---

٥٠٢ البخاري، التعبير، ٢٧.

٥٠٣ مسلم، الزهد، ٧٢.

٥٠٤ انظر: أبو داود، الصلاة، ١٢٠-١٢١/ ٧٨٦؛ الترمذي، تفسير، ٩/ ٣٠٨٦؛ أحمد، جـ٤، ص٢١٨؛ علي المتقي، كنز العمال، جـ٢، ١٦/ ٢٩٦٠.

٥٠٥ صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، ص٢٧-٣٣.



ولا يخفى على أحد أن أسلوب القرآن يختلف كثيرًا عن أسلوب رسول الله ﷺ في الأحاديث الشريفة، ولو كان القرآن كلام نبينا محمد ﷺ لتشابه مع أحاديثه من كل جانب، لكن ليس بينهما مثل هذا التشابه قط، فالفضل بين الكلام الإلهي وكلام البشر قد بيَّنه رسول الله ﷺ أنه كبير «كفضل الله على خلقه».[٥٠٦]

ولا يمكن أن نقارن بلاغة الكلام الإلهي وفصاحته بأحاديث النبي ﷺ، مع أن هذه الأحاديث أجودُ كلام البشر وأفصحه وأبلغه.

ويقول الشيخ عبد العزيز الدبَّاغ في كتاب (الإبريز):

«للقرآن والحديث القدسي والحديث الشريف أنوار مختلفة، أما كلام البشر فلا نور فيه... إن الشخص في الشتاء إذا تكلم خرج من فمه الفوار، وإذا تكلم في الصيف لا يخرج من فمه فوار، وكذلك من تكلم بكلام النبي ﷺ خرج النور مع كلامه، ومن تكلم بغير كلامه خرج الكلام بغير نور. وكل من له عقل وأنصت للقرآن ثم أنصت لغيره أدرك الفرق لا محالة، والصحابة ﷺ أعقل الناس وما كانوا ليتركوا دينهم الذي كانت عليه آباؤهم إلا بما وضح من كلامه تعالى، ولو لم يكن عند النبي ﷺ إلا ما يشبه الأحاديث القدسية ما آمن من الناس أحد، ولكن الذي ظلت له الأعناق خاضعة هو القرآن العزيز الذي هو كلام الرب سبحانه وتعالى».[٥٠٧]

---

٥٠٦ الترمذي، فضائل القرآن، ٢٥/ ٢٩٢٦؛ الدارمي، فضائل القرآن، ٦.

٥٠٧ أحمد بن المبارك، الإبريز، بيروت ٢٠٠٤، ص٥٨-٦١.

وحسبنا أن نتفكر في ما ذكرناه هنا لندرك أن القرآن الكريم لم يتدخل فيه أي بشر، وأنه تنزيل من ربِّ العالمين.



ب. تأخر الوحي

لقد أرادَ رسول الله ﷺ أن ينزل الوحي عليه لما تأخر عنه في بداية نبوَّته وعندما واجهته بعض المواقف المختلفة فيما بعد، لكن لم يكن الوحي لينزلَ إلا بأمرِ الله تعالى.

وكان رسول الله ﷺ يرغب في نزول الوحي إليه ليطمئن قلبه سواء أثناء مقارعة المشركين وتبليغهم الدين، أم أثناء دعوة أهل الكتاب المعاندين،[٥٠٨] لكن الوحي كان ينزل بأمر الله تعالى، وعلى قدْر المدة التي أَذِنَ الله بها، فكان نبينا الكريم ﷺ في مقام المُخاطَب فحسب، ولم يكن له الخيرة في عدم تبليغ الوحي النازل عليه، ويبيِّن الله ﷻ الدقة في هذا الشأن في قوله واصفًا نبيَّه:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٥٠٩]

---

٥٠٨ لم يكن النبي ﷺ يُسرُّ بنزول الوحي وارتباطه بالله سبحانه وتعالى في أوقات الضيق فحسب بل في كل حين. [انظر: البخاري، تفسير، ١٩/ ٢؛ الترمذي، تفسير، ١٩/ ٣١٥٧؛ الزرقاني، مناهل، جـ ١، ص٥٣]. والصحابة الكرام كذلك كانوا يفرحون بنزول الوحي فرحًا عظيمًا. [مسلم، فضائل الصحابة، ١٠٣].

٥٠٩ التكوير: ٢٤.



والرواية التالية التي نقلها لنا الصحابي ابن عباس ﵄ خير دليل في هذا الموضوع، إذ قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل:

«**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟**»، قال: فنزلت:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[٥١٠].[٥١١]



كان رسول الله ﷺ يمرُّ بأحداث تفرض عليه تقديم جواب حينها، لكن الوحي كان يتأخر، فعلى سبيل المثال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجَا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فَرُوا فيه رأيَكُم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث

٥١٠ مريم: ٦٤.

٥١١ البخاري، تفسير ١٩/ ٢، بدء الخلق ٦، التوحيد ٢٨؛ الترمذي، تفسير، ١٩/ ٣١٥٧؛ القرطبي، جـ١١، ص١٢٨- ١٢٩.



عجيب، وسلوه عن رجل طوَّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها. فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أخبركم غدًا بما سألتم عنه**» ولم يستثنِ، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسولَ الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٥١٢]. [٥١٣]

---

٥١٢ الإسراء: ٨٥.

٥١٣ انظر: الطبري، جـ١٥، ص٢٣٨ – ٢٣٩، [الإسراء: ٨٥]؛ الرازي، التفسير الكبير، جـ٢١، ص٢٠٤، [مريم: ٦٤].



وكذلك نزل الوحي في شأن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بأمر من الله تعالى، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان يقع في رَوْعه، ويأمل من ربه ﷻ أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قِبلةُ إبراهيمَ عليه السلام، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتُهم ومزارُهم ومَطافُهم، ولمخالفة اليهود، فكان يُراعي نزولَ جبريلَ بالوحي بالتحويل.(٥١٤)

لكن الأمرَ بتحويل القبلة جاء بعد انتظار ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا بناءً على حِكَم كثيرة، ونزل قول الله سبحانه تعالى:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٥١٥).(٥١٦)



ولم ينزل الوحي على سيدنا محمد ﷺ إلا بإذن الله سبحانه وتعالى في حادثة الإفك، مع أن النبي ﷺ انتظر الوحي ما يقرب من شهر، وكانت ثمة حاجة كبيرة لبيان واضح حول الحادثة.

---

٥١٤ أبو السعود، جـ١، ص١٧٤، [البقرة، ١٤٤].

٥١٥ البقرة: ١٤٤.

٥١٦ البخاري، الإيمان، ٣٠؛ تفسير، ٢/ ١٢، ١٨؛ الصلاة، ٣١؛ مسلم، المساجد، ١١؛ النسائي، القبلة، ١، الصلاة، ٢٢؛ ابن سعد، جـ١، ص٢٤١- ٢٤٢.



وذلك أن جيش المسلمين لما كان يرجع من غزوة بني المصطلق، افترى المنافقون على السيدة عائشة ﵂ واتهموها في شرفها وعِرضِها، وانتشر الخبر في أرجاء المدينة انتشار النار في الهشيم، وعاش رسول الله ﷺ أشدَّ أيامه وأصعبها، إذ افتُرِيَ على زوجه وشرفه، وكان يودُّ أن ينجو من هذا الموقف العصيب فورًا، لكن الوحي لم يأتِ حينما أراد النبي ﷺ، لأنه لم يكن ليأتِ إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، فخضع الصحابة الكرام أيضًا لامتحان عصيب.

أما رسول الله ﷺ فلم يفعل شيئًا، وإنما اكتفى بقوله:

«**والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا**».

وبعد التدقيق في الأمر والبحث فيه واستشارة أصحابه الكرام قال ﷺ: «**يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب، تاب الله عليه**».

فكان هذا القول قول إنسان لا يعلم الغيب إلا إن نبَّأه الله العليم الخبير. وفي النهاية نزلت آيات من سورة النور تزيل الشُّبَه في هذا الموضوع، وتضع الحقائق أمام الأعين بوضوح، وظهرَ للناس براءة أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂.(٥١٧)

---

٥١٧ انظر: النور: ١١-٢١؛ البخاري، الشهادات، ١٥، ٣٠، الهبة ١٥، الجهاد ٦٤، المغازي ١١، ٣٤، التفسير ١٢/ ٣، ٢٤/ ٦، ١١، الأيمان ١٨، مسلم، التوبة، ٥٦.



ولو أن رسول الله ﷺ تدخَّل في القرآن الكريم، لتحرَّك على هواه، وأضافَ قوله إلى الوحي دون أن ينتظر نزول آيات في هذه الحادثة، لكن كلَّ الوقائع والحوادث التي تجري في هذا الكون تظلُّ خاضعة للإرادة الإلهية، فحتى الورقة التي تسقط من غصنها في الخريف لا تسقط إلا بإرادة الله ﷻ، ولو لم يكن الحال كذلك، لعمَّت الفوضى أرجاء الكون. وأفعال الأنبياء كلها إنما هي بإرادة الله ﷻ القائل في كتابه العزيز:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (٥١٨)

ولا يمكن البتة الحديث عن تدخل البشر في الكتب التي نزلت على الأنبياء على مدى حياتهم، وإنما كان تحريف الكتب السماوية على يد البشر بعد وفاة الأنبياء.

ولم يتكفَّل الله تعالى بحفظ أي كتاب ما عدا القرآن الكريم الذي قال فيه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٥١٩)

فتكفَّل سبحانه بحفظه من تدخل البشر إلى يوم القيامة.

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم لم يتدخل فيه أي إنسان بقوله:

---

٥١٨ النجم: ٣- ٤.

٥١٩ الحجر: ٩.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٥٢٠)

لقد نال رسولنا محمد ﷺ التأييدَ الإلهي مع أنه بشر، فأدَّى بذلك مهمة النبوَّة على أفضل صورها. وتشير هذه الآيات الكريمة إلى أن رسول الله ﷺ قد أظهر الطاعة والتسليم لأمر الله سبحانه وتعالى حتى أمام الابتلاءات والمصائب التي تعرَّض لها، وبلَّغ القرآن الكريم بتمامه دون أي تنازل أو تقصير.



ج. آيات العتاب

لقد جاء الوحي تارة بما لم يرغبه رسول الله ﷺ، وبيَّن الخطأ في آرائه، وأمرَه تارة أخرى بأشياء لا يميل إليها رسولُ الله ﷺ، ولو تأخر في تنفيذها قليلًا عُوتِب عتابًا شديدًا.

إذ لمَّا علِمَ رسول الله ﷺ بالوحي أن ابنة عمَّته زينب بنت جحش زوج زيد بن ثابت ستكون زوجه بعد مدة، أخفى ذلك عن الناس خشية من سوء ظنهم، فنزلَ قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ

٥٢٠ الحاقة: ٤٤- ٤٥.



وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا(٥٢١) **وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾** (٥٢٢)

وبيَّنَ لنبيِّه خطأ إخفاء ما أراده الله تعالى، وأمره بأن يُظهِرَه للناس.(٥٢٣)

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«لو كان النبي ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية»(٥٢٤) وذكرت الآية السابقة.



---

٥٢١ إن في أمرِ الله تعالى بهذا الزواج أسبابًا وحِكماً كثيرة، منها أن التبنِّي عادة جاهلية، فلمَّا أمرَت الآية الكريمة رسولَ الله ﷺ بالزواج من زوجة زيد بن ثابت الذي تبنَّاه، أُبطِل التبنِّي في الإسلام. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿...**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤]

٥٢٢ الأحزاب: ٣٧.

٥٢٣ انظر: البخاري، تفسير، ٣٣/ ٦؛ الترمذي، تفسير، ٣٣/ ٣٢١٢- ٣.

٥٢٤ انظر: الترمذي، تفسير، ٣٣/ ٩.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٦٧]». [مسلم، الإيمان، ٢٨٧].



وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

إن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة أنَّ أيَّتَنَا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير[525]، أكلتَ مغافيرَ؟ فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال:

«**لا، بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له**»

فنزلت:

﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[526].[527]

فلو أن في القرآن الكريم أي تدخل بشري، لبلَّغ رسول الله ﷺ على هواه هذه الآية الكريمة التي لم تأتِ كما شاءَ.



ولمَّا قبِلَ رسول الله ﷺ عذر الثمانين رجلًا الذي لم يشتركوا في غزوة تبوك لذرائع وحُجَجٍ واهية، وأذِنَ لهم في المكث، نزلَ قول الله سبحانه وتعالى:

---

٥٢٥ مغافير: جمع مغفور وهو صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه الشجر يقال له العرفط يكون بالحجاز.

٥٢٦ التحريم: ١.

٥٢٧ البخاري، الطلاق، ٨/ ٥٢٦٧؛ مسلم، الطلاق، ٢٠/ ١٤٧٤.



﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٥٢٨].[٥٢٩]



وعندما دعا رسول الله ﷺ ربَّه ﷻ بالمغفرة لعمِّه أبي طالب، نزلَ قوله سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [٥٣٠].[٥٣١]

ولما صلَّى رسول الله ﷺ على زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَي بن سلول بعد إلحاح ولده عبد الله، نزلَت الآية الكريمة:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٥٣٢].[٥٣٣]

---

٥٢٨ التوبة: ٤٣.

٥٢٩ انظر: السيوطي، لباب النقول، ص١٢٦.

٥٣٠ التوبة: ١١٣.

٥٣١ البخاري، تفسير، ٩/ ١٦؛ الواحدي، ص٢٦٦– ٢٦٧.

٥٣٢ التوبة: ٨٤.

٥٣٣ البخاري، تفسير، ٩/ ١٢؛ مسلم، المنافقين، ٣؛ الترمذي، تفسير، ٩/ ٣٠٩٧– ٨؛ النسائي، الجنائز، ٤٠، ٦٩.



وهذي الآيات الكريمات التي ذكرناها هنا كافية لإظهار أن القرآن الكريم بعيد أشد البعد عن تدخل البشر.



ولما كان النبي ﷺ يدعو رجلًا من عظماء قريش إلى الإسلام، إذ جاءه الصحابي عبد الله بن أم مكتوم- وكان أعمى- يطلب إرشاده، فجعل النبي ﷺ يُعرِض عنه ويُقبل على الآخر، وعندما أصرَّ ابن أم مكتوم على طلبه، عَبَسَ النبي ﷺ، فنزل قول الله تعالى معاتبًا إياه:

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٥٣٤]. [٥٣٥]. [٥٣٦]

---

٥٣٤ عبس: ٥- ١٢.

٥٣٥ إن العتاب والانتقاد في هذه الآيات الكريمة لزلَّةٍ صدرَت عن النبي ﷺ. والزلَّةُ خطأٌ غير إرادي صدرَ عن الأنبياء بإرادة الله تعالى للمقاصد التالية:
- جَعْل الأنبياء الذين ضمنوا دخول الجنة يدركون عجزهم.
- جَعْلهم يُظهِرون الاهتمام اللازم بمهمتِّهم مدركين اللطف الإلهي المحيط بهم.
- جَعْل الزلَّة وسيلة إرشاد للأمة.
- ضمان الرقة القلبية عند عباد الله الخواص أمام هذه التنبيهات الربانية، والتخلق بأخلاق القرآن بالابتعاد عن مثل هذه الأفعال.
إظهار أن الأنبياء بشر، ومنع الناس من إضافة صفة الألوهية إليهم كما فعل النصارى.

٥٣٦ انظر: الترمذي، تفسير، ٨٠/ ٣٣٣١؛ موطأ، القرآن، ٨.



فلو كان القرآن الكريم كلام رسول الله ﷺ، لما استعمل مثل هذه العتاب الشديد في حقِّه، بل سكتَ عن مثل هذه الأحوال، وسعى لإخفاء عيوبه.

ونفهم من الروايات التي ذكرناها في الأعلى أن الوحي تجلَّى تمامًا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ولم يأتِ أحيانًا كما أراد رسول الله ﷺ أو حينما أراد، وجاء أحيانًا أخرى معاتبًا إياه ومنبِّهًا. وقد نقلَ رسول الله ﷺ إلى الناس ما أُوحيَ إليه دون أن يُخفي حتى الحرف الواحد منه، فكان القرآنُ كتابًا من الله تعالى ليس له أي علاقة البتة بما يؤلِّفه البشر، إذ لا يمكن إيجاد أي كتابٍ وضعه إنسان يعاتب نفسه فيه مثل ذلك العتاب.



د. الإجمال في الوحي

كانت الأوامر تنزل على رسول الله ﷺ مجملةً[٥٣٧] أحيانًا. فلم يكن رسول الله ﷺ يوضِّح المواضيع المجملَة من عنده إن لم يوضِّحها اللهُ سبحانه وتعالى. ومثال ذلك الآية الكريمة التالية:

﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ...﴾[٥٣٨]

---

٥٣٧ المجمل ما يكون معناه خفيًّا لا يمكن فهمه تمامًا ما لم يوضَّح.

٥٣٨ البقرة: ٢٨٤.

فلمَّا نزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة الكرام خوفًا شديدًا من أن يكونوا مسؤولين عما تحدِّثهم نفوسهم به بغير إرادتهم، واشتدَّ ذلك عليهم. فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزِلَت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ:

«أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلَّت بها ألسنتهم، وألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبهم.

ولمَّا كان معنى الآية الكريمة مجملًا عجز رسول الله ﷺ عن إيضاحها لصحابته، وأمرَهم أن يتوكلوا على الله تعالى ويسلِّموا أمرهم له، فأنزل الله سبحانه وتعالى في إثرها:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا



تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٥٣٩]. [٥٤٠]

ففهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من هاتَين الآيتَين أنهم مسؤولون «على قدر طاقتهم» في موضوع خواطر القلب.

ومن حقائق النبوة أن رسول الله ﷺ لم يكن يوضِّح الآيات المجملة حتى تنزل آية أخرى توضِّحها، وهو دليل لا يدع مجالًا للاعتراض على أن القرآن الكريم من مصدر إلهي. ولو لم يكن الحال كذلك، لما نزلت هذه الآيات أصلًا، أو نزلت ففسَّرها رسول الله ﷺ من عنده، وعدم وجود مثل هذه الحال برهان آخر على إعجاز القرآن الكريم وأنه من لدن حكيم عليم.



لقد ظهرت أسباب علو الحق على الباطل في السنة السادسة للهجرة، وأراد المسلمون الذهاب إلى مكة التي كانت بيد المشركين والطوافَ حول الكعبة، ولما وصلوا إلى الحديبية قرب مكة بَرَكَت القصواء ناقة النبي ﷺ، فأراد الصحابة الكرام أن يوجهوها تلقاء الحرم لكنهم لم يفلحوا، فقالوا:

---

٥٣٩ البقرة: ٢٨٥-٢٨٦.

٥٤٠ انظر: مسلم، الإيمان، ١٩٩- ٢٠٠؛ الترمذي، تفسير، ٢/ ٢٩٩٢؛ أحمد، جـ١، ص ٢٣٣؛ جـ٢، ص٤١٢؛ الواحدي، ص٩٧.



«خلأت[٥٤١] القصواء، خلأت القصواء». فقال رسول الله ﷺ:

«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل».

فكان بَرْكُ الناقةِ إشارةً من الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ، وكأن النبي ﷺ يريد أن يقول للصحابة أن الذي جعل الناقة تبرك وجعل فيلَ أبرهة الحبشي يبرك إنما هو الله سبحانه وتعالى، وعَلِمَ رسول الله ﷺ يقينًا أنه لم يُؤذَن لهم دخول مكة بالقتال سواء هجومًا أم دفاعًا.

وحارَ الصحابة الكرام وتحدثوا فيما بينهم لأنهم لم يطَّلعوا على حقيقة الأمر، فقرار عدم دخول مكة كان لغير صالح المسلمين ظاهرًا، لكن رسول الله ﷺ لم يأذَن لصحابته بالمضي إلى مكة، متَّبعًا الإشارة الإلهية التي لم يعلم حكمتها آنذاك.

ولمَّا أراد سيدنا عمر رضي الله عنه أن يعبِّر عن رأيه في هذه الواقعة التي كان ظاهرها هزيمة المسلمين، قال رسول الله ﷺ:

«يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيِّعَني الله أبدًا».[٥٤٢]

وحتى بنود صلح الحديبية مع المشركين كان ظاهرها لغير صالح المسلمين، ولم يدرك الصحابة الحِكَم العظيمة والبشارات

٥٤١ حرنت وبركت من غير علة.

٥٤٢ البخاري، المغازي، ٣٥؛ مسلم، الجهاد، ٩٠- ٩٧.

الكبرى في هذا الشأن حتى نزلت سورة الفتح، وعلموا فيما بعد أن الهزيمة الظاهرة كانت تحمل وراء طيَّاتها فتحًا عظيمًا ونصرًا مؤزرًا...

ولم تتضح هذه الحادثة المجملة التي عجز رسول الله ﷺ عن إيضاحها في البداية إلا بعد سنتَين، فبعدَ هذا الصلح تشرَّفت كثير من القبائل بالإسلام، وكان عدد الذين دخلوا الإسلام في هاتين السنتَين أضعاف عدد الذين كانوا قد آمنوا بالله ورسوله.

وبهذا الصلح اعترف الجميع بوجود الإسلام، واستطاعت القبائل العربية أن تدخل في حماية المسلمين، وذلك كان يعني فقدان قريش نفوذها، وانتشارَ دعوة الإسلام بيُسر وراحة.

وكان من أسباب ترجيح رسول الله ﷺ الصلحَ وجودُ مسلمين في مكة لم يستطيعوا إظهار إسلامهم، فلو قاتل المسلمون المشركين، لقُتِل هؤلاء بغير علم ولَحزِنَ المسلمون عليهم.(٥٤٣)

وثمة أمثلة كثيرة مشابهة في القرآن الكريم، ولسنا نريد هنا أن ندخل في التفاصيل، لأننا نسعى لعرض معجزة القرآن بصورة ملخَّصة، فكل معجزة في القرآن يحتاج عرضها لِما يزيد حجمه عن حجم كتاب.



٥٤٣ انظر: الفتح: ٢٤- ٢٥.



والأمثلة التي ذكرناها حتى الآن تثبت بصورة قطعية أن القرآن منزَّه عن تدخل البشر، وأنه كتابٌ سماويٌّ أنزله الله تعالى بالوحي، فعلى كل عاقل مُنصِف أن يصدِّق هذا الحُكم. وما يلفت الانتباه في (الموسوعة الكاثوليكية الجديدة)- تحت مادة القرآن- قولهم:

«لقد وضِعت نظريات كثيرة حول مصدر القرآن عبر العصور، لكن لا يمكن لأي عاقل اليوم أن يصدِّق أيًّا منها».

ولا شكَّ أن الكنيسة الكاثوليكية يَسُرُّها أن تأتي بدليل يثبت أن مصدر القرآن غير الوحي، غير أنها لا تستطيع إلى ذلك سبيلًا، ولا تستطيع حتى تقديم تفسير منطقي. وهي تنصف- ولو قليلًا- في أبحاثها حينما ترفض الافتراءات التي ما فتئت تُقدَّم إليها منذ القديم والتي تفتقد إلى حجج وبراهين.[٥٤٤]



٥٤٤ غاري ميلر «عبد الأحد عمر»، القرآن المعجزة، «ترجمة: د. أردوغان باش»، إسطنبول ٢٠٠٧، ص٦١.



٣. جوانب القرآن الإعجازية

لقد بيَّن رسول الله ﷺ أن القرن الكريم الذي نزلَ عليه هديةً ربَّانيةً للبشر مليءٌ بالمعجزات الكثيرة، ونودُّ هنا أن نقف على أربعة من الجوانب الإعجازية الكثيرة للقرآن الكريم التي ستدوم إلى قيام الساعة، وهذه الأربعة هي:

أ. الإعجاز اللغوي.

ب. الإنباء بالغيب.

ج. الإعجاز العلمي.

د. الإعجاز التشريعي.



أ. الإعجاز اللغوي

١. الأسلوب الرائع

القرآن الكريم كتابٌ عظيمٌ لا هو بالشعر ولا هو بالنثر، إذ للقرآن أسلوب فريد يجمع بين مزاياهما، أسلوب فيه الانسجام الرائع والموسيقا الربَّانية، فكلما قرأ الإنسانُ القرآنَ، شَعَرَ بتأثير هذه الموسيقا في إعماق روحه.

وستجد في القرآن اتساقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقا والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقا ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئًا آخر لا تجده في الموسيقا ولا في الشعر. ذلك



أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة من الموسيقا فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا. فلا يلبث سمعك أن يمجها[٥٤٥]، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبدًا في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كلُّ وَتَر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده مَلالةٌ ولا سأمٌ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.[٥٤٦]

وللقرآن الكريم أسلوب خاص يختلف عن أسلوب الأنواع الأدبية، وهو مع ذلك يستعمل هذه الأنواع الأدبية نفسها على أكمل صورة، فهو يعبر عن القصص والمواعظ والتاريخ والتشريع والجدل والمناظرة ومواضيع الآخرة والجنة والنار، وآيات الترهيب والتبشير، بفصاحة وبلاغة ضمن أسلوب متكامل يتنوَّع على حسب المعنى، وذلك لطبيعة الكلام الإلهي.

أ. الدقة في اختيار الكلمات

إن القرآن يتناول من الكلمات المترادفة أدقها دلالةً، وأتمَّها تصويرًا بالنسبة إلى نظائرها.[٥٤٧]

---

٥٤٥ يمجُّها: يستكرهها ويرفضها.

٥٤٦ دراز، النبأ العظيم، ص١٠٢.

٥٤٧ البوطي، روائع، ص١٤٠.



وأقل تقديم أو تأخير في نظم القرآن أو تغيير فيه يُفسِد انسجامه وتناغمه فورًا، ويقول ابن عطية الأندلسي في كتابه:

«كتاب الله لو نُزِعَت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد».[٥٤٨]

وينقل لنا الشيخ الجليل محمد حميد الله- أحد أعلام الإسلام المعاصرين- الحادثةَ التاليةَ التي تبيِّن الانسجام والتناغم في القرآن، فيقول:

قال لي موسيقار فرنسي مسلم في أحد لقاءاتي معه أن وجود الفاصل بين آيتَي سورة النصر:

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

تستكرهه الآذان من الناحية الموسيقيَّة. فأوضحتُ له أنه ليس عليه أن يقف عند كلمة «**أفواجًا**» بل لا بد أن يصل بينها وبين كلمة «**فسبِّح**»، فلمَّا سمع الموسيقار مني ذلك حارَ ودُهِش، وقال:

«أهوَ كذلك؟! إن كان حقًّا ماقلتَه، يستوي الأمر، وعليَّ الآن أن أجدِّد إيماني، وأطلب العفو من الله تعالى».[٥٤٩]

---

٥٤٨ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت ١٤١٣، جـ١، ص٥٢.

٥٤٩ انظر للاستزادة في هذه الحادثة: محمد حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، إسطنبول ١٩٩٣، ص٩٤-٩٥.

فأدرك هذا الموسيقار الفرنسي بهذا الإيضاح أنه لن يكون لديه بعد ذلك اليوم أي اعتراض على القرآن الكريم من الناحية الموسيقيَّة.

والحق أن البشر يعجزون عن وصف انسجام القرآن، فهو كأنه لا يبيِّن لهم الانسجام فحسب، بل يعرض لهم عظمة الانسجام، فمَن ذا الذي يُساوي في ميزان عقله بين القرآن الكريم وكتابٍ بشري؟!

ب. تأثيره في القلوب

لقد كان للقرآن الكريم تأثيرًا عظيمًا في قلوب الناس، إذ دخل العرب في دين الإسلام أفواجًا مستمعين لآياته من فمِ رسول الله عليه الصلاة والسلام. واعترف المشركون في أنفسهم ببلاغة القرآن وفصاحته بعد أن لم يستطيعوا الإتيان بمثله، لكنهم رفضوه لما ثقُل عليهم أن يجعلوا رغبات أنفسهم تتَّبع يتيمًا جاء من بينهم.

وكان من المشركين الذين يمنعون أهل مكة من الاستماع إلى القرآن أبو سفيان، وأبو جهل، والأخنس بن شَريق. وقد خرج هؤلاء الثلاثة ليلةً سرًّا ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا.

فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: «لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا»، ثم انصرفوا.



حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض:

«لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود»، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.[٥٥٠]

وقد كانوا يلغون فيه أو يمنعون تلاوة القرآن كي لا يسمعه الناس لشدة تأثير أسلوبه.[٥٥١]

فنغمات القرآن عندما تدخل الآذان، يتَّجه القلب بكل صفائه إليها، ويجد فيها لذة عظيمة؛ وعندما يقترب منها قليلًا يغرق في المهابة والخشية. وحينما تصل بعض الآيات إلى الآذان يتلذَّذ الإنسان بها، ويرق قلبه، وينشرح فؤاده، ويزيد إيمانه؛ وبعض الآيات فيها من الخوف والخشية ما يجعل القلوب تفزع وترتعد، ولم يجد المنكرون والملحدون مناصًا من الاعتراف بذلك.[٥٥٢]

وقد أسلمَ كثير من الناس بتأثير القرآن الكريم:

---

٥٥٠ ابن هشام، جـ١، ص٣٣٧- ٣٣٨.

٥٥١ انظر: ابن هشام، ص٣٩٥- ٣٩٦.

٥٥٢ انظر: عبد القادر عطا، عظمة القرآن، ص٨٧.

فالصحابي جبير بن مطعم ﷺ لمَّا سمع رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور، قال:

«فكأنما صدع عن قلبي»[٥٥٣]، وفي رواية أخرى: «كاد قلبي أن يطير»[٥٥٤].

ومما يدل على تأثير القرآن في القلوب:

أن النجاشي أصحمة ملك الحبشة لما سمع القرآن تأثَّر كثيرًا[٥٥٥].

وأن سيدنا عمر ﷺ الذي كان قاسي الطبع في الجاهليته لما سمع آيات الله تتلى رقَّ قلبه، ووقع الإسلام من قلبه كلَّ موقع، وأسلم[٥٥٦].

وأن الشاعر طفيل بن عمرو الدوسي لمَّا طلب من رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعرض عليه الإسلام وسمع القرآن قال:

«والله ما سمعت قولًا قط أحسن من هذا، ولا أمرًا أعدل منه»[٥٥٧].

---

٥٥٣ أحمد، جـ٤، ص ٨٣، ٨٥.

٥٥٤ البخاري، تفسير، ٥٢.

٥٥٥ الطبري، جـ٧، ص ٤، [المائدة: ٨٣].

٥٥٦ أحمد، جـ٢، ص١٧؛ ابن هشام، جـ١، ص٣٦٩-٣٧١؛ الهيثمي، جـ٩، ص٦٢.

٥٥٧ ابن هشام، جـ١، ص٤٠٧-٤٠٨؛ ابن سعد، جـ٤، ص٢٣٧- ٢٣٨.



وأن أهل مكة من المشركين نهوا سيدنا أبا بكر ﵁ عن قراءة القرآن خشية على صبيانهم ونسائهم أن يفتنهم[٥٥٨].

وقول نفر من الجن لمَّا سمعوا القرآن:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[٥٥٩]. [٥٦٠]

يقول جون ديفينبورت[٥٦١] في موضوع تأثير القرآن الكريم:

«إن القرآن أعظم كتب الشرق أدبًا، وليس ثمة شك أن القرآن الكريم حجة للِّسان العربي، وكما قال غوته[٥٦٢]: (القرآن يسحر قلوب قرَّائه بجماله وروعته)».

إن مصدر الانسجام والتناغم والتأثير في تعابير القرآن الكريم ذلك النظامُ الصوتي الموجود فيه؛ أي تراصفُ الكلمات والحروف والحركات والسكنات والمقاطع القصيرة والطويلة وتتابعها على أنسب صورة. والقرآن الكريم مليء بصور الانسجام والتناغم التي

---

٥٥٨ ابن هشام، جـ١، ص٣٩٥- ٣٩٦.

٥٥٩ الجن: ١- ٢.

٥٦٠ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص٦٤- ٦٥.

٥٦١ مستشرق إنكليزي عاش في أواخر القرن التاسع عشر.

٥٦٢ يوهان فولفغانغ فون غوته: شاعر وروائي ومن عظماء الأدب الألماني عاش بين عامَي ١٧٤٩-١٨٣٢م.

لا تنفد، فهو غالبًا ما يحرِّك القلوب بتلك الصور الناشئة عن الانتقال من صوت إلى آخر، وحتى الذين لا يعلمون معناه يجدون اللذة في الاستماع إليه.

ج. انسجام اللفظ والمعنى

ثمة توازن بين اللفظ والمعنى في أسلوب القرآن الكريم، فإن أراد أن يعبِّر عن معنى استعمل أنسبَ لفظة وأفضلها بحيث لا يمكن تغييرها بلفظة أخرى. فبذلك يؤسس التوازن بين اللفظ والمعنى بصورة توافق صاحب صفة «الكلام»، وفي هذا الأمر يظهر عجز أعظم الأدباء وأشعر الشعراء.

فالمعنى واللفظ كطرفَين متقابلين يصعب على الإنسان أن يعطيهما حقَّهما بعدل، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره، وإبراز كل دقائقه بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه لا يجد له بدًّا من أن يمد في نفسه مدًّا؛ لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة. فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال... فمنهم من يذهب إلى التكليف والتفصح باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب، فيكلفك أن تبدي وتعيد وتقبل وتدبر حتى تهتدي إلى وجه مراده،



وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضيقًا عن الفهم... وآية ذلك أنك تراه حين تعقب كلام نفسه في الفَيْنَة بعد الفينة يجد فيه زائدًا يمحوه، وناقصًا يثبته؛ ويجد فيه ما يهذب ويبدل، وما يقدم أو يؤخر، حتى يسلك سبيله إلى النفس سويًّا، ولعله لو رجع إليه سبعين مرة لكان له في كل مرة نظرة. وكلما كان أنفذ بصرًا وأدق حسًّا، كان أقل من ذلك قناعة وأبعد همًّا [٥٦٣]. أما القرآن فلا حاجة فيه لتغيير المعنى واللفظ مهما مرَّ الزمان عليه.

والجانب المبهر والبارز في لغة القرآن وأسلوبه أنه يختار أجمل شيء وأنسب تركيب للمعنى المقصود مهما كان الذي يذكره، وأنه يضع كل حرف في مكانه الصحيح فلا يزيد في المقصود ولا ينقصه. والقرآن لا يهمل المعنى حينما يذكر قصة أو خبرًا، وبالمثل فإنه لا يسرف في الكلمات في المواضع التي يجب ذكر تفاصيل محتواها.

د. خطابه لمستويات شتَّى

يخاطب القرآن الكريم الناس جميعًا مهما اختلف أماكنهم وأزمانهم، ومهما كان مستواهم العلمي، فعندما تُتلى آيات القرآن الكريم في مجلس فيه كثير من الناس بمستويات مختلفة، يفهم كل واحد منهم شيئًا من معانيه على قدْر إدراكه، فإيجاد مثل هذه الصفة في كتاب بشري يفوق طاقةَ الإنسان وقدرتَه.

---

٥٦٣ دراز، النبأ العظيم، ص ٩٢.



والآية الواحدة التي رأتها الأجيال السابقة على قدْر فهمها لها، ستراها الأجيال اللاحقة على قدْر المستوى العلمي الذي وصلوا إليه. وفي القرآن الكريم علوم ومعارف أكثر مما قد يبلغها الناس في كل عصر، فهو كلام الله ﷻ العليم بأسرار السماوات والأرض.(٥٦٤) وآيات القرآن إنما هي نوافذ علم الله المفتوحة لنا، فكلما تفتَّحت عيون قلوبنا وتعمق إدراكنا ازددنا أخذًا للعلوم من آيات القرآن الكريم.

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي في هذا الشأن:

«من معجزات القرآن الكريم أنه يدَّخِر في الألفاظ المعروفة في كل زمن، حقائق غير معروفة لكل زمن، فيجليها لوقتها».(٥٦٥)

ويقول الأستاذ الأديب عباس محمود العقاد:

«وليس الخطاب مقصورًا على العرب الأميِّين ولا هو بمقصور على أبناء القرن العشرين، ولكنه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان، إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد في جميع العصور».(٥٦٦)

وليس لنا بد هنا من أن نذكر أن القرآن الكريم يقدِّم لكل قارئ الطمأنينة والسكينة والسرور، لأن أسلوبه يخاطب العقل والقلب في آن معًا.

---

٥٦٤ انظر: الفرقان: ٦.

٥٦٥ مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، جـ٢، ص٦٦.

٥٦٦ عباس محمود العقاد، موسوعة، جـ٤، ص٢٠٣.



هـ . الحكمة من التكرار

إن التكرار في إسلوب القرآن يجعل من الحقائق التي يُراد التأكيد عليها تُنقَش في القلوب والأذهان. وهذا التكرار موجود على قدْر الحاجة والضرورة وفي إطار قواعد البلاغة لإيصال مقاصد كثيرة، منها: التأكيد، والتعليم، والتهديد، والتحذير من ارتكاب الذنوب وعصيان الله تعالى، وحث الإنسان على التفكر والاعتبار[٥٦٧]، وجعل الأذهان تفهم الموضوع بتصويره، فثمة نكتٌ بلاغية شتى للتكرار في القرآن.

ولا يأتي التكرار نفسه بالضبط في القرآن الكريم، فالمعنى يكون نفسه لكن يختلف القالب والتعبير، ويكون بتفصيل تارةً وبتلميح تارةً أخرى، فالغرض هنا إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب. وفي بيان هذه الحكمة يقول الله ﷻ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[٥٦٨]

---

٥٦٧ انظر: طه: ١١٣؛ القصص: ٥١.

٥٦٨ طه: ١١٣.

أي إن القرآن الكريم يكرِّر اللفظ نفسه أو يأتي بصورة أخرى تفيد المعنى نفسه لتقرير المعنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به، وهي من الطرائق التربوية التي سلكها هذا الكتاب المبين.

ومن هنا، كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، بل لا بدَّ أن تجده في كل مرة يلبس ثوبًا جديدًا من الأسلوب وطريقة التصوير والعرض، بل لا بدَّ أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة.

فإنك إن تأملت في ذلك جيدًا تخيلت أنك إنما تقرأ في كل مرة خبرًا جديدًا يشوقك أمره وتفجؤك أحداثه، وشعرت أن النفس بحاجة إلى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين وبكلا الأسلوبين.

على أن هذا الغرض يعود إلى ما ذكرناه من كون القرآن خطابًا للناس كلهم، ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول والخلاصة في الحديث، حتى ينصت إلى الأمر مفصلًا مطنبًا، وفي الناس من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز، فاقتضى الأمر أن تتصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان.[٥٦٩]

---

٥٦٩ البوطي، روائع، ص١١٨– ١٢٠.



يقول طاش كوبري زاده[٥٧٠] في هذا الشأن:

«وإذا رأيت في القرآن تكرارًا للَّفظ، فذلك لا يعني تكرار المعنى. فعندما تجتمع لفظتان مترادفتان يظهر معنى لن تجده إذا افترقتا».[٥٧١]

وقد أظهرت الاكتشافات العلمية في عصرنا الحالي أن الأصول التي يتبعها القرآن الكريم أنفع الأصول، وبيَّنت التجارب أن التكرار بأسلوب لطيف يُشعِر الإنسان بالأُنس والأُلفة، أما التكرار بالأسلوب نفسه والمبالغة فيه فيبعث السأم في نفس الإنسان. فلماذا لم يستطع الناس إدراك علة تكرار القرآن الكريم بعض القصص بأسلوب مختلف، وفهم أهمية ذلك على مدى العصور؟

والأسوء من ذلك كله أن بعض المنكرين الأعداء عملوا على جعل ذلك نقصًا وعيبًا في القرآن. وكان أقصى ما وصل إليه العلم في القرن العشرين الأصول التي وضعها القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ عام، فمَن ذا الذي يعلم فطرة العباد ومزاياهم سوى الله ﷻ؟..

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٥٧٢]

---

٥٧٠ أحمد أفندي طاش كوبري زاده: من عظماء علماء العثمانيين عاش بين عامَي ١٤٩٥-١٥٦١م. أبوه أستاذ السلطان ياوز سليم. وقد عمل أحمد أفندي مدرسًا في خلافة السلطان سليمان القانوني في بورصا وأدرنة وإسطنبول ومدن أخرى، وتولى القضاء في بورصا وإسطنبول، وله مؤلفات كثيرة.

٥٧١ طاش كوبري زاده، موضوعات العلوم، إسطنبول ١٩٧٥، جـ١، ص٤١٢؛ شاكر كوجا باش، الخلق في القرآن، ص٤٧.

٥٧٢ الملك: ١٤.

و. كثرة المعاني مع قلَّة اللفظ

يعبِّر القرآن الكريم عن أعمق المعاني وأوسعها بأقلِّ الكلمات.

وذكروا أن الكِندِيَّ الفيلسوف قال له أصحابه: أيها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه. فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج، فقال:

«والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلَّلَ تحليلًا عامًّا، ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد».(٥٧٣)

ز. الانسجام بين الآيات والسور

ثمة انسجام رائع بين آيات القرآن الكريم وسوره، ففي نصه وحدة وانسجام جاء على أجمل صورة مع أن القرآن نزل منجَّمًا في أزمان وأماكن مختلفة وذكر موضوعات شتى. ونرى في جميع أجزائه تشابهًا في الأسلوب وكمالًا في المنطق. والقرآن كالسورة الواحدة لا بل كالآية الواحدة في دلالة البعض على البعض.(٥٧٤)

٥٧٣ أبو حيان، البحر المحيط، جـ٣، ص٤١١؛ ألماليلي محمد حمدي، جـ٣، ص١٥٤٦، [المائدة: ١].

٥٧٤ انظر: القرطبي، جـ١٩، ص٢٧١، [الانشقاق: ٥]؛ السيوطي، الإتقان، جـ٣، ص٣٦٩؛ السامرائي، التعبير القرآني، ص١٩.



ولسنا نبالغ إن قلنا إن القرآن كله كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظِمة المباني.[٥٧٥]

ومن عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه... تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.[٥٧٦]

ويلخِّص الشيخ سعيد النورسي هذا الموضوع في قوله:

«إن ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجمًا نجمًا لمواقع الحاجات نزولًا متفرقًا متقطعًا، مع أنه يُظهر من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة.

وأيضًا إن ذلك القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة لأسباب نزول مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التساند التام كأنه نزل لسبب واحد.

وأيضًا إن ذلك القرآن جاء جوابًا لأسئلة مكررة متفاوتة، مع أنه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن سؤال واحد.

وأيضًا إن ذلك القرآن جاء بيانًا لأحكام حوادث متعددة متغايرة، مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة.

---

٥٧٥ انظر: الرازي، جـ٢، ص ١٤٧، [البقرة: ٣٠]؛ السيوطي، الإتقان، جـ٣، ص٣٦٩؛ محمد حمدي يازر، جـ١ـ ص٤٧ «تفسير البسملة».

٥٧٦ دراز، النبأ العظيم، ص١٤٢.

وإيضًا إن ذلك القرآن نزل متضمنًا لتنزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصرون، ومن حالات من التلقي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاسة اللطيفة والتماثل الجميل، كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاسة كالماء السلسبيل.

وأيضًا إن ذلك القرآن جاء متوجهًا في خطابه إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الأفهام كأن المخاطبين صنف واحد، بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة».[٥٧٧]

ويقول الشيخ محمد حمدي يازر ألماللي في هذا الشأن:

«إن سور القرآن وآياته ليست ديوانًا شعريًّا مختلطًا ظهر مصادفةً أو بمَلَكَةٍ شعرية، إنما هي من بدايتها إلى خاتمتها كلامٌ إلهيٌّ نزلَ بأسلوب وبيان كثير الحِكَم، متين الانسجام، في نظام جملة واحدة عميقة المعاني مثل (بسم الله الرحمن الرحيم)، أو حتى في نظام كلمة فصيحة واحدة».[٥٧٨]



٥٧٧ النورسي، كليات، «الكلمة ٢٥»، جـ١، ص٥٢٦.

٥٧٨ محمد حمدي يازر، جـ١، ص٤٧ [تفسير البسملة].



٢. فصاحته وبلاغته

إن فصاحة القرآن الكريم وبلاغته أعظم جوانب إعجازه، والبلاغة النطقُ بأفضل الكلام على حسب المحتوى والمقصود والموضوع والمخاطَب، وآيات القرآن الكريم قائمة على هذه البلاغة في جميع الموضوعات التي تتناولها.

والقرآن الكريم تحفة أدبية من حيث الفصاحة، إذ لا نستطيع أن نجد فيه أقل نقص في الألفاظ التي يختارها، والجمل التي يركِّبها، والمعاني التي تفيدها تلك الألفاظ والجمل.

لقد كانت لغة أهل البادية لغة الفصاحة والكمال، فكأنها بذلك كانت إعدادًا لمعجزة النبي ﷺ. وقبل مجيء الإسلام كانت ثمة مسابقات وأسواق للأدب يشترك فيها قرابة مئة شاعر، فينال الشعراء السبعة الأوائل لقبَ «أشعر الشعراء»، وتعلَّق أشعارهم على أستار الكعبة. لكن ما إن نزلت آيات القرآن الكريم حتى اندثرت تلك الأسواق ولم يبقَ لها أي ذكر. وكانت أخت الشاعر امرؤ القيس مطَّلعة على الشعر، ولمَّا سمعت قول الله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٧٩]

٥٧٩ هود: ٤٤.

قالت:

«لا يقدر أحد على مجاراة هذا القرآن، وليس أي شعر مدعاة للفخر بعد اليوم، حتى شعر أخي!». وذهبت فأنزلت معلَّقة أخيها امرؤ القيس التي كانت على رأس المعلقات في أستار الكعبة، ثم أنزلت ما تحته من معلقات واحدة تلو الأخرى. (٥٨٠)

ولما سمِعَ سيد الشعراء الوليد بن المغيرة من رسول الله ﷺ آية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨١)

أدرك الأسرار الإلهية في القرآن ولم يجد مناصًا من الاعتراف بحقيقة هذا الكتاب المُعجِز، فقال لقريش:

«والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا. ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته». (٥٨٢)

---

٥٨٠ أحمد جودت باشا، قصص الأنبياء وتاريخ الخلفاء، إسطنبول ١٩٧٦، جـ١، ص٨٣.

٥٨١ النحل: ٩٠.

٥٨٢ الحاكم، جـ٢، ص٥٠٦-٥٠٧/ ٣٨٧٢؛ السيوطي، الإتقان، جـ٤، ص٥.



ولمَّا قال الوليد بن المغيرة:

أَيُنزَّل على محمد وأُترَك وأنا كبير قريش وسيدها! ويُترَك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيمَا القريتَين! فأنزل الله تعالى فيه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٥٨٣]. [٥٨٤]

أي إن الوليد قد أقرَّ في وجدانه بأن القرآن حق، لكنه وقع في أسفل سافلين لمَّا نسب الخطأ إلى إرادة الله تعالى اتباعًا لأهواء نفسه وغلبة الكِبر عليه كما فعل إبليس.

وكان الجواب الربَّاني أفضل جواب إذ قال المولى عزّ وجلّ:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ...﴾ [٥٨٥]

وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم.[٥٨٦]

ومهما أُعطيَ الإنسان من طاقات، فلن يكون له سبيل لبلوغ ذروة البلاغة، فمردُّ البلاغة الكلامية إلى الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى،

---

٥٨٣ الزخرف: ٣١.

٥٨٤ ابن هشام، جـ١، ص٣٨٥.

٥٨٥ الزخرف: ٣٢.

٥٨٦ الرماني، النكت، ص٦٩–٧٠.

وإنما سبيل ذلك أن تتسارع إلى الذهن جميع ألفاظ هذه اللغة ومترادفاتها لينتقي منها ألصقها بالمعنى المراد والصورة المتخيلة. فبمقدار ما يتم التوافق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن واللفظ الدَّال عليه والمصوَّر له، يتسامى الكلام في درجات البلاغة والبيان. ولكن هل يتسنى للإنسان أن يحقق هذا التوافق بمعناه الكلي الدقيق؟

لن يتسنى للإنسان أيًّا كان تحقيق هذا الهدف مهما بذل من تحايل أو جهد، وذلك لسببين اثنين:

١ - **أولهما**: أن المعاني والتصورات أغزر من الألفاظ وقوالب التعبير، ذلك لأن المعاني والأفكار والتصورات إنما تنبعث من داخل النفس الإنسانية، وهي منبع ثرٌّ لا يكاد ينضب لمختلف المعاني والتصورات والمشاعر، أما الألفاظ والتعابير فإنما تقبل على الإنسان من الخارج، وهي بالإضافة إلى ذلك محصورة ومتناهية، لذا كان من المتفق عليه أن اللغة- مهما كان نوعها- لا تغطي إلا جزءًا يسيرًا من المعاني والمشاعر.

ألا ترى أن كلمة «الألم» تُستعمل للدلالة على أنواع شتى من المشاعر والأحاسيس والمعاني، دون أن تنجدك اللغة بأي دلالات لفظية يمكن أن تستعمل للتفريق بين تلك الأنواع، وإنما أنت منها أمام هذه الكلمة أو ما قد يشبهها؟

وإن أحدنا ليستعمل كلمة «الجمال» للتعبير عن عالم واسع من المشاعر والصور والمعاني، وهو يعلم أنها صور ومعان متنوعة



متخالفة، وإن من الجدير أن يلقى الإنسان لكلٍّ منها تعبيرًا مستقلًّا. ولكن أحدنا لا يملك مع ذلك أن يعبِّر عن هذه الصور والمعاني المتخالفة بأكثر من كلمة «الجمال» ومشتقاتها.

وكذلك شأن أكثر كلمات اللغة، ما من واحدة منها إلا وتستعمل لِطائفة من المعاني المتغايرة، وإنما القاسم المشترك بينهما علاقات سطحية تصل ما بينها. فأنت لا تملك من اللغة إلا ما يعبِّر عن هذه المعاني السطحية القريبة، بحيث إذا أردت الغوص على دقائق المعاني المتشعبة تخلفت عنك طاقة التعبير وبقيت مع مشاعرك الصامتة.

٢- ثانيهما: أننا نقف من اللغة العربية أمام بحر عظيم من الكلمات والألفاظ- على ما فيها من القصور الذي ذكرناه- ومعظم هذه الألفاظ مما يسمى بالمترادف. ومهما كان الكاتب أو المتكلم بليغًا، ومهما كان يحفظ في ذهنه من متن اللغة وألفاظها ومترادفاتها، فلا يمكن أن تنتصب هذه المترادفات جميعها مكشوفة واضحة أمام خياله، كما تنتصب مضارب الأحرف من الآلة الكاتبة أمام ضاربها، لكي يلتقط من مجموعها ما هو أقرب إلى المعنى الذي يبغيه والشعور الذي يجول في صدره، وإنما هو- عند التعبير- إنما يلقي حبال تفكيره إلى هذا اليم المتلاطم من الكلمات، ليلتقط منه ما قد يتسارع إليه ويسهل على لسانه. وفي اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينجده لغرضه ويقوم بعضه مقام بعض في التعبير العام عن مقصوده.



بيد أن هذه الألفاظ إنما تعدُّ مترادفة، إذا ما أريدت منها الدلالة الإجمالية على المعنى، وهي التي يقتنع بها العامة من المتكلمين، وهم الذين لا يطمعون في أكثر من إيصال خلاصة إحساساتهم وأفكارهم إلى الآخرين.

أما عند من يسبر أغوار هذه الكلمات ويستخرج ما يمتاز به كلّ منها من الخصائص والفروق، فهي ليست من المترادفات في شيء. بل لكلٍّ منها دلالته الخاصة وإشارته المتميزة وإيحاؤه الذي لا يشترك فيه غيره، وتصويره الذي ينفرد به عن سائر نظائره.[٥٨٧]

إن القرآن يتناول من الكلمات المترادفة أدقَّها دلالة، وأتمَّها تصويرًا بالنسبة إلى نظائرها. فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود اللغة، اتسعت لها الكلمة القرآنية وشملتها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع. ولن تعثر مهما حاولت على أي ضابط لهذا الجرس والوزن والإيقاع، مؤملًا أن تطبقه في كلامك وتعبيرك. إنما هو الإحساس الذي يفيض به شعور القارئ عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرآني الفريد.[٥٨٨]

---

٥٨٧ البوطي، روائع، ص١٣٦–١٣٧؛ طاش كوبري زاده، موضوعات العلوم، جـ٢، ص٨٤٩.

٥٨٨ البوطي، روائع، ص١٤٠.



وما أعظم العِبَر في المثال التالي الذي يوضِّح اختيار القرآن لأفضل الكلمات وأجملها واستخدامها في أنسب مواضعها بفصاحة وبلاغة:

في سورة عبس يقول الله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٥٨٩)

أما في سورة المعارج فقال:

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾ (٥٩٠)

بدأ في سورة «عبس» بذِكر الأخ فالأم فالأب فالصاحبة ثم الأبناء في الأخير. وفي سورة المعارج على عكس ذلك، فقد بدأ بالأبناء، فالصاحبة فالأخ فالفصيلة، ثم انتهى بأهل الأرض أجمعين.

وسبب ذلك- والله أعلم- أن المقام في «عبس» مقام الفرار والهرب، قال تعالى: **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾** والإنسان يفرُّ من الأباعد أولًا، ثم ينتهي بألصقِ الناس به وأقربهم إليه، فيكونون آخر مَن يفر منهم. والأخ أبعد المذكورين في الآية من المرء، وإنَّ ألصقهم

٥٨٩ عبس: ٣٣-٣٧.

٥٩٠ المعارج: ١١- ١٥.

به زوجهُ وأبناؤه، فنحن ملتصقون في حياتنا بأزواجنا وأبنائنا أكثر من التصاقنا بإخواننا وآبائنا وأمهاتنا. فقد تمر شهور بل ربما أعوام ونحن لا نرى إخواننا في حين نأوي كل يوم إلى أزواجنا وأبنائنا.

والإنسان قد يترك أمه وأباه ليعيش مع زوجه وأبنائه وهو ألصق بأبنائه من زوجه، فقد يفارق زوجه ويسرِّحها ولكن لا يترك ابنه. فالأبناء آخر مَنْ يَفرُّ منهم المرءُ ويهرب.

وهكذا رتب المذكورين في الفرار بحسب العلائق، فأقواهم به علاقة هو آخر من يفر منه، فبدأ بالأخ ثم الأم ثم الأب. وقدم الأم على الأب، ذلك أن الأب أقدر على النصر والمعاونة من الأم، وهو أقدر منها على الإعانة في الرأي والمشورة، وأقدر منها على النفع والدفع، فالأم في الغالب ضعيفة تحتاج إلى الإعانة بخلاف الأب. والإنسان هنا في موقف خوف وفرار وهرب، فهو أكثر التصاقًا في مثل هذه الظروف بالأب لحاجته إليه، ولذا قدَّمَ الفرار من الأم على الفرار من الأب، وقدَّمَ الفرار من الأب على الفرار من الزوجة، لمكانة الزوجة من قلب الرجل وشدة علاقته بها، فهي حافظة سره وشريكته في حياته، ثم ذكر الفرار من الأبناء في آخر المطاف، ذلك لأنه ألصق بهم وهم مرجوون لنصرته ودفع السوء عنه أكثر من كل المذكورين.

هذا هو السياق في «عبس» سياقُ الفرار من المعارف وأصحاب العلائق أجمعين لِلخُلُوِّ إلى النفس، فإنَّ لكل امرئ شأنًا يشغله وهمًّا يُغْنيه.



أما السياق في سورة «المعارج»، فهو مختلف عما في «عبس» ذلك أنه مشهد من مشاهد العذاب الذي لا يُطاق، فقد جيء بالمجرم، لِيُقذفَ به في هذا الجحيم المستعر، وهذا المجرم يودُّ النجاةَ بكل سبيل ولو أدى ذلك إلى أنْ يبدأ بابنه، فيضعه في دركات لظى. فرتَّب المذكورين ترتيبًا آخر يقتضيه السياق، وهو البدء بالأقربِ إلى القلب والأعلقِ بالنفس فيفتدي به فضلًا عن الآخرين.

لقد وردت في السياق جملة أمور تقتضي هذا الترتيب منها:

١. إنه ذكر أن هذا المفتدي «مجرم» وليس امرءًا عاديًا، والمجرمُ مستعدٌّ لفعلِ أيِّ شيء لينجو ولو أن يبدأ بأقرب المُقَرَّبين إليه وأحبهم إلى قلبه فيضعه في السعير. وهو لا يهمه أن يفتدي بالناس أجمعين فيضعهم مكانه في أطباق النيران بذنب لم يرتكبوه وإنما ارتكبه هو.

٢. جرى ذِكْرُ القرابات قبل هذا المشهد، فقال: ﴿**وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا**﴾[٥٩١]. والحميم القريب، فبدأ بأقرب القرابة وهم الأبناء، ثم انتهى إلى الأباعد وهم مَن في الأرض عمومًا.

٣. ذكر بعد هذه الآيات أن الإنسان ﴿**خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾[٥٩٢]، فلما أدرك المجرم

٥٩١ المعارج: ١٠.

٥٩٢ المعارج: ١٩- ٢١.

العقاب، وأيقن أنه مُواقِعهُ لا مَحالةَ أدركه الهلعُ والجزع، ومن أظهر مظاهر هذا الهلع والجزع أن يبدأ بأقرب الناس وأحبِّهم إليه فيفتدي به.

٤. إن البدء بأقرب الناس وأحبهم إليه وألصقهم بقلبه ليفتدي به، يدل على أن العذاب فوق التصور، وهولُهُ أبعدُ من الخيال بحيث جعله يبدأ بأقرب الناس إليه، وأن يتخلى عن كل مساومة.

وثمة لمسة فنية أخرى، وهي وضع كل مشهد في السورة المناسبة له، فقد وضع مشهد الفرار في السورة التي تبدأ بـ ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾.

والتولِّي نوع من أنواع الفرار من الشيء والانصراف عنه. والعبوس أيضًا هو نوع من أنواع الفرار النفسي من الشيء بعكس الألفة والانشراح له...

ووضعُ مشهد العذاب الأكبر الذي ذكره بقوله:

﴿**كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى**﴾[٥٩٣] في سورة المعارج التي تبدأ بقوله: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ**﴾، أنسبُ شيء وأحسنه.

٥٩٣ المعارج: ١٥-١٨.



فوضعَ مشهدَ العذاب في السورة التي تبدأُ بالعذاب، ووضعَ مشهدَ الفرار في السورة التي تبدأ بنوعٍ من أنواع الفرار.

فما أحسنَ التناسب والاختيار في الموطِنَين![٥٩٤]

فنرى في هذا المثال وغيره من الأمثلة أن الفصاحة لم تغب قط في القرآن الكريم، وما يشذ في القرآن الكريم حرفٌ واحدٌ عن قاعدة نظمه المعجِز؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجِهَات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروف ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يُوجِد شيئًا فيما ليس فيه شيء.[٥٩٥]



٥٩٤ فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية، عمان ٢٠٠٣، ص١٩٣-١٩٧.

٥٩٥ الرافعي، إعجاز القرآن، ص١٩٢-١٩٣.



ب. الإنباء بالغيب

إن القرآن الكريم ينقل أخبار الغيب، وهذه الأخبار تُثبِت أنه معجزة واضحة.

والقرآن الكريم يذكر أخبار الماضي بصورة تناسب الحقيقة. إذ لم يكن في مكة في القرن السابع الميلادي أي مؤسسة علمية أو إنسان مثقَّف عنده شيء من هذه الأخبار، ولم تتجاوز أخبار الماضي آنذاك بضع حكايات من فارس نقلها التجار بصورة متناقضة وبالغوا في شأنها. أما القرآن الكريم فقد عرض أخبار الماضي بتمام وكمال ولم تكن أخبارًا يستطيع أي إنسان أن يأتي بها بعقله وفراسته وبصيرته.

إذًا فليتفكَّر العاقل وليسأل نفسه السؤال التالي: أنَّى لهذا الإنسان الأُمِّي الذي ظهر في مجتمع جاهلي بعيد عن الحضارة أن يأتي بمعاني القرآن من مصدر سوى الله سبحانه وتعالى؟! فالواضح للأذهان أن الأخبار التي جاء بها رسول الله ﷺ إنما هي وحي من المولى ﷻ القائل في كتابه العزيز:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٥٩٦]

٥٩٦ آل عمران: ٤٤.



﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (٥٩٧)

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٥٩٨)

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٥٩٩)

والحق أنه كان ثمة بعض الأخبار عن هلاك قومَي عاد وثمود وطوفان نوح في ذلك الحين، لكنها لم تكن أكثر من أساطير الأوَّلين. غير أنه عندما نزل القرآن الكريم، عرضَ هذه الأخبار للبشر بصورة يقرُّ بها علماء التاريخ والباحثون في فلسفة التاريخ في أيامنا هذه.

فأهل الكتاب يرون أن أهل الكهف مكثوا في كهفهم ثلاثمئة سنة شمسية، أما القرآن الكريم فقد ذكر أنهم مكثوا ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعًا، وهذه التسع سنين إنما هي الفرق بين السنة الشمسية والقمرية في ثلاثمئة سنة، يقول الله سبحانه وتعالى:

---

٥٩٧ يوسف: ١٠٢.

٥٩٨ العنكبوت: ٤٨.

٥٩٩ يوسف: ٣.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٦٠٠)

لقد كان أهل مكة في القرن السابع الميلادي في حضيض الجهل بالعلوم ما خلا الفصاحة والبلاغة. فلم يكن عندهم مثلًا في الرياضيات شيء اسمه الجمع والطرح، ولم يعرفوا آنذاك مفهوم الأرقام، بل كانوا يعبِّرون عنها بالكلمات ويكتبونها على تلك الصورة. فكيف لنبيٍّ أُمِّيٍّ خرج من بينهم أن يعلَم دقائق الحساب التي وردت في تلكم الآية الكريمة وأهل مكة جميعًا يجهلون الكتابة وعلم الحساب؟

وثمة كثير من الأخبار النقلية التي لا يمكن أن يعلمها الإنسان بذكائه ومحاكماته العقلية، فكيف لهذه الأخبار أن تصدر من مجتمع جاهل وإنسان أمِّي؟

إن الله سبحانه وتعالى معلِّمُ رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذلك كان معلِّمه جبريل عليه السلام «**الرسول الأمين**» بأمر من الله سبحانه وتعالى، إذ كانت مهمَّته أن ينقل ما يوحيه الله إلى رسوله عليه الصلاة والسلام حرفًا حرفًا.



وقد وردَ في القرآن الكريم أخبار عن الغيب، وتحقَّقت هذه الأخبار مع مرور الوقت، وكذلك ستتحقَّق في المستقبل؛ أي إن

٦٠٠ الكهف: ٢٥.



أحكام القرآن لا تُلغَى أبدًا، فالقرآن يفوق العلوم والفنون دائمًا، يقول الله تعالى:

﴿...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٦٠١)

وكم من حضارة ظهرت ثم انهارت فلم يبقَ لها وجود على وجه الأرض، وصفحات التاريخ مليئة بأنبياء قُتِلوا وكتب سماوية حُرِّفت أو ضاع كلها أو بعضها. غير أن الله تعالى قد تكفَّل بحفظ القرآن مما تعرضت له الكتب السماوية الأخرى، وضَمِنَ انتقاله من جيل إلى آخر إلى قيام الساعة، فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٦٠٢)

ولم يتخيَّل نبينا صلوات الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحي أن يكون نبيًّا، وقد عرضَ المولى ﷻ هذه الحقيقة في قوله:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٦٠٣)

والله تعالى الحامي والكافل الوحيد لهذا الدين المبين:

---

٦٠١ فصلت: ٤١- ٤٢.

٦٠٢ الحجر: ٩.

٦٠٣ القصص: ٨٦.

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٦٠٤)

فالآيتان الكريمتان تبيِّنان بوضوح أن السبب الوحيد الذي منعَ تحريف القرآن إنما هو «حفظُ يد العناية الربَّانية لهذا الكتاب المبين».



وقعت حرب بين الروم والفرس فغلبَ الفرسُ الرومَ، وعندها فرح مشركو مكة بذلك لأنهم والفرس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، وأرادوا أن يوهِنوا عزيمة المسلمين. وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفرس لأنهم وإياهم أهل كتاب، فنزل قول الله ﷻ:

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦٠٥)

ووقع الروم في ضعف، ولم يظن أحدٌ أن الروم لديهم القدرة على الغلبة بعد تلك الهزيمة التي قصمت ظهرهم. ونزل قول الله تعالى تأكيدًا لما ذُكِر في الآيات السابقة:

---

٦٠٤ الإسراء: ٨٦ – ٨٧.

٦٠٥ الروم: ١– ٥.



﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦٠٦]

فأنجز الله وعدَه بعد بضع سنين، واتفق المؤرِّخون على أن ظهور الروم على الفرس كان في أقل من تسع سنين، وكان ذلك اليوم يوم نصرَ الله المسلمين في غزوة بدر، ففرح المسلمون بذلك.[٦٠٧]



ولما غلبت قريشٌ النبي ﷺ واستعصوا عليه في مكة قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، فنزل قول الله تعالى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٦٠٨]

فأخذتهم سَنَةٌ أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع.[٦٠٩]

ويقول الله تعالى:

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[٦١٠]

---

٦٠٦ الروم: ٦.

٦٠٧ الترمذي، تفسير، ٣٠/ ٣١٩١-٣١٩٤؛ أحمد، جـ١، ص٢٧٦؛ القرطبي، جـ١٤، ص٣.

٦٠٨ الدخان: ١٠-١١.

٦٠٩ البخاري، تفسير، ١٢، ٣٠، ٤٤؛ مسلم، المنافقين، ٤٠؛ أحمد، جـ١، ص٤٣١، ٤٤١.

٦١٠ الدخان: ١٥-١٦.



وفي هاتين الآيتَين ثلاثة أخبار عن الغيب:

١. أن الله تعالى سيخفِّف عنهم، إذ جاء المشركون إلى النبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منه أن يدعو الله تعالى كي يغيثهم، ثم فتحوا أيديهم وتضرعوا إلى الله أن: ﴿**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**﴾[٦١١] فسقاهم الله تعالى قليلًا.

٢. أخبرهم أنهم سيرجعون إلى الحيلة والمكائد مرة أخرى. إذ نكث المشركون بعهودهم ولم يؤمنوا، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وأعدُّوا العدَّة لقتال المسلمين في بدر.

٣. أخبرهم أنه سينتقم من المشركين بعد كل ذلك. فقد حقَّ عليهم عذاب الله سبحانه وتعالى يوم بدر، وهُزِموا في ذلك اليوم هزيمة نكراء، إذ قُتِل من زعماء المشركين سبعون رجلًا، وأُسِر سبعون آخرون.

وقبل غزوة بدر نزل قول الله تعالى في الوليد بن المغيرة الذي كان من رؤوس الكفر:

﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾[٦١٢]

---

٦١١ الدخان: ١٢.

٦١٢ القلم: ١٥- ١٦.



وقد أُصيبَ أنفُ الوليد يوم بدر فبقي أثره طوال حياته، فألحقَ اللهُ تعالى به عارًا لا يفارقه في الدنيا والآخرة.(٦١٣)

وفي ذلك اليوم أيضًا أنجز الله سبحانه وتعالى وعدَه المذكور في الآية الخامسة والأربعين من سورة القمر التي يقول فيها:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية:

«لما نزلَتْ قلتُ: وأيُّ جمع يُهزَم ومَنْ يُغلَب؟، فلما كان يوم بدر نظرت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يَثِبُ في الدرع وَثبًا وهو يقول: **﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾**، فعلمت أن الله تبارك وتعالى سيهزمهم».(٦١٤)



كان النبي عليه الصلاة والسلام يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: **﴿...وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾**(٦١٥)، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة، فقال لهم:

«يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله».(٦١٦)

---

٦١٣ البيضاوي، جـ٥، ص١٤٤؛ القرطبي، جـ١٨، ص٢٣٦-٢٣٧.

٦١٤ ابن سعد، جـ٢، ص٢٤؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٣١٢.

٦١٥ المائدة: ٦٧.

٦١٦ الترمذي، تفسير، ٥، ٤/ ٣٠٤٦.



وعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال:

كنَّا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه[٦١٧]، فقال لرسول الله ﷺ: تخافني؟ قال: «**لا**»، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «**اللهُ**» فشَامَ السيفَ[٦١٨] ثم قعد.[٦١٩]

ولم يُعاقِب رسول الله ﷺ الرجلَ الذي أراد أن يقتله، بل دعاه للإسلام. ولمَّا جاء الرجلُ إلى قومه، لم يجد بدًّا من قوله لهم:

«جئتكم من عند خير الناس».[٦٢٠]

فكان رسول الله ﷺ واثقًا متوكِّلًا على ربِّه حتى في أشد الأوقات خطرًا.

ووقعت حادثةٌ أخرى مشابهة في غزوة حنين، إذ خرج شبَّان أصحابه وأَخِفَّاؤُهم[٦٢١] حُسَّرًا[٦٢٢] ليس بسلاح إلى حيٍّ من هوازن، وهم قوم رماة، فرموهم برشق من نبل كأنها رِجلٌ من جَرَاد[٦٢٣]،

٦١٧ اخترط السيفَ: سلَّه من غمده.

٦١٨ شامَ السيفَ: أدخله في غمده.

٦١٩ البخاري، الجهاد، ٨٤، ٨٧؛ المغازي، ٣١، ٣٢؛ مسلم، فضائل، ١٣؛ المسافرين، ٣١١.

٦٢٠ الحاكم، جـ٣، ٣١/ ٤٣٢٢.

٦٢١ المسارعون المستعجلون.

٦٢٢ جمع حاسر أي بغير دروع.

٦٢٣ يعني كأنها قطعة من جراد، كناية عن الكثرة.



فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، والعباس آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ يكفُّها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركِابِ رسول الله ﷺ. ثم نزل رسول الله ﷺ ودعا واستنصر، وهو يقول:

«**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزِّلْ نصرك**».

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه راوي الحديث:

«كنا والله إذا احمَرَّ البأسُ[٦٢٤] نتَّقي به، وإن الشجاع منَّا لَلَّذي يحاذي به- يعني النبي عليه الصلاة والسلام-».[٦٢٥]

فلم يستطع المشركون الذين دُهِشوا لشجاعة رسول الله ﷺ أن يضرُّوا به، وقد أمدَّ الله تعالى نبيَّه الكريم بجيش لا تراه العيون، ودفعَ الأعداء عن المسلمين.



ولمَّا قدم النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه المدينةَ، وآوتهم الأنصار، رمتهم العربُ عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يُصبِحون إلا فيه، فقالوا: أَترونَ أنَّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنِّين لا نخاف إلا الله عز وجل؟، فأنزل الله تعالى:

---

٦٢٤ احمرار البأس كناية عن شدة الحرب.

٦٢٥ انظر: مسلم، الجهاد، ٧٦، ٧٩/ ١٧٧٦؛ البخاري، المغازي، ٥٤؛ الجهاد، ٥٢، ٦١، ٩٧، ١٦٧.

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٦٢٦].[٦٢٧]

وقد استطاعت جيوش الإسلام بعد مدة قصيرة أن تزحفَ في أرجاء الأرض لإعلاء كلمة الله، فهزَمت الروم، وجعلَت ذِكْرَ الفرس صفحة من صفحات التاريخ.



ولمَّا أراد فرعون أن يدخل في الإيمان حينما أدركه الغرق في البحر الأحمر، قال الله تعالى:

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٦٢٨]

أي إنك قد تعقَّلت لما ابتُليتَ، وعصيتَ حينما سلمتَ! فلم يقبل الله تعالى إيمانه في حال اليأس، وقال:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[٦٢٩]

٦٢٦ النور: ٥٥.

٦٢٧ الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص٣٣٨.

٦٢٨ يونس: ٩١.

٦٢٩ يونس: ٩٢.



ويقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«نلقيك بناحية مما يلي البحر، في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملًا سويًّا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عريانًا لست إلا بدنًا من غير لباس... لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك».[٦٣٠]

ولما قذف البحر بدنه وجدوه قريبًا من الساحل في حال السجود، أي في اللحظات الأخيرة قبل موته. لقد أراد فرعون في الدقائق الأخيرة أن يؤمن بالله بعدما شعرَ بالخوف والعذاب، لكن إيمانه لم يُقبَل لأنه جاء في حال اليأس. ثم يقال أنهم حنطوه ليبقى بدنه على تلك الحال سليمًا لآلاف السنين، وظهرَ ليعتبرَ منه البشر كما ورد في القرآن الكريم. وبدنه اليوم في متحف القاهرة في صالة المومياوات الملكية معروضة للزائرين. وهذه الحقيقة ليست إلا واحدة من معجزات الله تعالى التي بيَّنها في القرآن الكريم والتي ستظل إلى قيام الساعة.

ومن أخبار الغيب التي ذكرها القرآن الكريم: دخول المسلمين المسجد الحرام آمنين،[٦٣١] ودخول الناس في دين الله أفواجًا،[٦٣٢]

---

٦٣٠ الزمخشري، جـ٣، ص٢٤.

٦٣١ انظر: الفتح: ٢٧.

٦٣٢ انظر: النصر: ٢.

وإظهار الإسلام على الأديان الأخرى،[٦٣٣] وانتصار المسلمين وفتحهم مكة،[٦٣٤] وعجز البشر عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم،[٦٣٥] والحفاظ على هذا الكتاب المبين،[٦٣٦] وأخبار كثيرة أخرى. وكان من المحال أن يتنبَّأ رسول الله عليه الصلاة والسلام بمثل هذه الأخبار التي كانت غيبًا له بغير الوحي، ويمكن لنا أن نذكر الآيات التالية في هذا الشأن:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [٦٣٧]

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٦٣٨]

وكذلك الأخبار التي جاءت عن اليهود من الأخبار الغيبية ومنها:

---

٦٣٣ انظر: التوبة: ٣٣؛ الفتح: ٢٨؛ الصف: ٩.

٦٣٤ انظر: الفتح: ١٦، ٢٧.

٦٣٥ انظر: البقرة: ٢٣- ٢٤.

٦٣٦ انظر: الحجر: ٩.

٦٣٧ البقرة: ٩٤- ٩٥.

٦٣٨ النحل: ٨.



﴿...وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٣٩)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٤٠)

ومن أخبار الغيب الأخبارُ اليقينية حول القوانين الكونية والطبيعية، ومنها:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٤١)

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (٦٤٢)

---

٦٣٩ المائدة: ٦٤.

٦٤٠ الأعراف: ١٦٧- ١٦٨.

٦٤١ يس: ٦٨.

٦٤٢ المؤمنون: ١٨.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ (٦٤٣)

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٦٤٤)

إن هذه الأحكام ذات الأسلوب القطعي غير المقيَّد بزمان ومكان، يستحيل أن تصدر عن إنسان لا يعلم ما يخبِّئه الغد وما ستكشف عنه العلوم.

يقول المولى عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٦٤٥)

وثمة معجزات غيبية أخبر بها رسول الله ﷺ، منها:

«يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا». (٦٤٦)

---

٦٤٣ الإسراء: ٨٥.

٦٤٤ الزخرف: ٣٢.

٦٤٥ ص: ٨٨.

٦٤٦ البخاري، الفتن، ٢٤/ ٧١١٩؛ مسلم، الفتن، ٢٩-٣٢/ ٢٨٩٤؛ أبو داود، الملاحم، ١٣؛ الترمذي، صفة الجنة، ٢٦.



«لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مئة، تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلِّي أكون أنا الذي أنجو».(٦٤٧)

وقد ورد في الصفحة الأولى من صحيفة «يني شفق» بتاريخ ٢٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢م الخبر التالي الذي جاء مصداقًا للأحاديث الشريفة:

«أثبتت الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية الإنجليزية والإمريكية وجود مخزون كبير من الذهب في نهر الفرات. وذُكِر أن سبب غزو الولايات المتحدة الأمريكية العراقَ قد يكون السيطرة على بترول الشرق الأوسط والوصول إلى المخزون السري من الذهب في نهر الفرات».

ونستخلص مما ذكرناه أن القرآن معجزة من حيث أخباره الغيبية أيضًا، فتلك الأخبار تتحقق كما وردت. ولعلَّ كتبًا أخرى تتحدث عن مثل هذه الأخبار، لكن لا أحد منها يصل إلى قيمة القرآن الكريم وعلو شأنه. والتاريخ شاهد على أن أخبار الغيب في أي كتاب، لم تكن مثل الأخبار في القرآن الكريم في ثبوتيَّتها ويقينيَّتها.



٦٤٧ البخاري، الفتن، ٢٤؛ مسلم، الفتن، ٢٩/ ٢٨٩٤.



ج. الإعجاز العلمي

ثمة آيات كثيرة في القرآن الكريم تلقي الضوء على التطورات والاكتشافات العلمية، وهي معجزة غيبية من معجزات القرآن؛ أي إن القرآن الكريم دائمًا يكون في المقدمة، والعلم يسير وراءه.

لكن الغاية الأساسية للقرآن الكريم تثبيت التوحيد في القلوب وهداية الناس، فجميع الموضوعات الأساسية التي يقدِّمها القرآن مبنيَّة على هذه الغاية. ومع ذلك فإن القرآن عندما يتناول موضوعات لها علاقة بالعلوم الطبيعية تكون المعلومات التي يقدمها ليعتبرَ منها الناسُ مطابقةً للحقيقة تمامًا. وهذا إعجاز آخر للقرآن الكريم لا ينقطع في أي زمان ومكان إلى قيام الساعة، ودليلٌ على عظمة القرآن الكريم. فالتطور العلمي الذي لا يتوقف يؤيِّد تلك المعلومات المذكورة في القرآن ويثبتها، ولنا أن نذكر ما يلي أمثلة لهذا الموضوع:



١. علم الأحياء

أ. خلق الإنسان

ذكرَ القرآن الكريم معلومات في موضوع تكاثر الإنسان وتشكُّل الجنين لم يكتشفها العلم إلا من عهد قريب، وذكرَها بالتفصيل في سورة الحج والمؤمنون:



﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٦٤٨)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٦٤٩)

إن بُنية الإنسان الروحانية فيها قدرةٌ وطاقةٌ تبلِّغه الوصول إلى مرضاة الحق تعالى، وأما بنيته الماديَّة فهي أعجوبة وإبداع إلهي عظيم، ويلفت اللهُ تعالى الانتباهَ في هذه الآيات إلى ذلك الإبداع المُبهِر. ومن حِكَم هذه الآيات أن المولى ﷻ قد جعل صورة الإنسان في أحسن صورة.

٦٤٨ الحج: ٥.

٦٤٩ المؤمنون: ١٢- ١٤.

يقول رسول الله ﷺ موضِّحًا الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان:

«إن أحدكم يُجمَع في بطن أمِّه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربع: برزقِهِ وأَجَلِه، وشَقِيٌّ أو سعيد».[٦٥٠]

يوضِّح الحديث أن الإنسان يكون نطفةً في أول أربعين يوم في رحم أمه، وكلمة «يُجمَع» في قول رسول الله ﷺ تصِف حقيقةَ أن في هذه المدة تظهر العلامات الأولى لكثير من أعضاء الجسم.

ثم تصبح النطفة علقة من أربعين إلى ثمانين يومًا، ثم مضغة من ثمانين إلى مئة وعشرين يومًا. وبعد ذلك، أي في أوائل الشهر الرابع بعد التلقيح، يُرسَل مَلَكٌ إلى الجنين وتنفخُ فيه الروح.[٦٥١]

٦٥٠ البخاري، القدر، ١؛ مسلم، القدر، ١؛ أبو داود، السنة، ١٦/ ٤٧٠٨.

٦٥١ للإنسان روحان: فالجنين في الأيام الأولى في رحم أمه يحيا بالروح التي جاءت من عالَم الخلق كما تحيا النباتات، وهذه الروح تنتهي بموت الجسم. أما الروح الأخرى فهي من عالَم الأمر، وهي على هيئة ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**...﴾ [الحجر: ٢٩]. فهذه الروح أبدية لا تموت، وستلبَس جسماً جديدًا يوم القيامة. وهي تُلقَى في الجسم في اليوم المئة والعشرين كما ذُكِر في الحديث الشريف؛ فالجسم إذًا ينمو كما ينمو النبات حتى اليوم المئة والعشرين، وبعد نفخ الروح من الله تعالى في يوم المئة والعشرين تتشكل الصفات الإنسانية والروحانية.



وعندما نقارن بين ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وما وصل إليه علم الأحياء نرى تطابقًا تامًّا بينها، مع أن ما ذكره القرآن الكريم لم يكن معلومًا في أي مكان على وجه الأرض قبل القرن التاسع عشر. فهذه الحقائق حول تكاثر الإنسان التي وصلَت إليها العلوم الحديثة بعد قرون طويلة ذكرها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرن بأسلوب صريح وصورة واضحة. فلا غرْوَ إن قلنا إن كثيرًا من علماء الأجنَّة من غير المسلمين صدَّقوا القرآن بعدما علموا هذه الحقيقة، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور كيث ليون مور الأستاذ في علم الأجنة في جامعة تورنتو بكندا.(٦٥٢)

واعترف الأستاذ الدكتور كيث ليون مور في كتابه عن علم الأجنَّة بمطابقة العلم للقرآن الكريم بعد أن وصفَ مراحل نمو الإنسان في الرحم وقارنها مع الآيات الكريمة، لا بل إن القرآن أوسع وأشمل من علم الطب من حيث الأمثلة والتعريفات التي ذكرها.

وذكرَ أن كلمات «نطفة» و «علقة» و «مُضغة» أي خصائص المراحل الثلاثة توافق الحقائق العلمية وتفتح الطريق للطِّب. فالمرحلة التي عبَّر عنها القرآن بالنطفة تشمل جميع ما احتوته

٦٥٢ إن أغلب ما نذكره من عبارات تبينِّ دهشة العلماء الأجانب وحيرتهم أمام القرآن الكريم، والمقابلات معهم، أخذناه مما جُمِع من المؤتمرات العلمية لعبد المجيد الزنداني.

الأبحاث العلمية، وأما العَلقة فتكون قطعة دم مجمدة معلَّقة، وتُخزَّن في هذه الخثرة أعضاء الجنين كلها، وأما المضغة فلها شكل قطعة لحم ممضوغة كأنَّ عليها آثار الأسنان. وبعد هذه الأبحاث شعرَ الدكتور كيث بالدهشة والإعجاب أمام القرآن الكريم والنبي العظيم، وصدَّق مطمئنًّا معجزةَ القرآن هذه التي ذُكِرت قبل ١٤٠٠ سنة، ووضع ما تعلَّمه من القرآن في الطبعة الثانية من كتابه «قبل أن نُولَد».

ولمَّا سُئِل: «كيف تفسِّر وجود هذه المعلومات في القرآن؟» قال:

«إن هذا القرآن ليس إلا وحيٌ من عند الله تعالى».[٦٥٣]

إن هذا الإقرار والتصديق وما شابهه ذكَرَه الله تعالى معجزةً أخرى من معجزات القرآن في قوله:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٦٥٤]

واعترف الدكتور كيث في أحد المؤتمرات العلمية حول الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم في موضوع علم الأجنَّة، فقال:

---

٦٥٣ غاري ميلر، القرآن الـمُعجِز، ص٣٤- ٣٩.

٦٥٤ سبأ: ٦.



«إنني سعيد أن أشارك في مؤتمر أذكر فيه معجزات القرآن والسنة! وإنني لَأشعرُ بالدهشة والإعجاب والحيرة الشديدة عندما أعلم أن إنسانًا أُميًّا قد ذَكَر قبل أربعة عشر قرنًا الحقائق التي اكتشفها العلم والتقنيات من عهد قريب، وتدفعني جميع الأبحاث التي قمت بها إلى القناعة التامة التي لا يساورها شكٌّ أن القرآن محصول الوحي».

وإضافة إلى الآيات الكريمة التي ذكرت خلقَ الإنسان، ذكرَ القرآن الكريم في الآية السادسة من سورة سبأ أن مراحل خلق الإنسان في بطن أمه تكون في ثلاث مناطق مختلفة:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

وهذه الظلمات الثلاث في علم الأجنَّة إنما هي المناطق الثلاث التي ينتقل بينها الجنين أثناء نموِّه.



ومن العلماء الذين حاروا بما جاء في القرآن الكريم الأستاذ الدكتور مارشال جونسون رئيس قسم التشريح في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ أُعجِب بمراحل خلق الإنسان المذكورة في القرآن، ولفت انتباهَه الحقائقُ التي تحتويها «المضغة».

فشكْلُ المضغة كقطعة لحم عليها آثار أسنان... وطولها سنتمتر «أي بحجم لقمة».



إن جميع أعضاء الإنسان موجودة في المضغة، لكن بعضها تكون نشيطةً وبعضها خاملةً! فلم يجد الطب مصطلحًا لهذه الحال، فإن ذكرَ أن الأعضاء تعمل، وجد بعضها لا تعمل؛ وإن ذكرَ أنها لا تعمل، وجد بعضها تعمل. غير أن القرآن وصف هذه الحال بدقَّة حينما قال عنها: ﴿...**مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**...﴾[٦٥٥]، فحلَّ هذا اللغز منذ ما يزيد على ١٤٠٠ سنة.

وقد رفضَ الأستاذ الدكتور مارشال ما ذُكِر في القرآن في البداية، ثم لم يجدْ بُدًّا من قبوله تمامًا، حتى إنه رأى في القرآن حقائق جديدة كثيرة، فقال:

«نعم، إن هذا القرآن الذي ينير درب أهل العلم مُنزَّل من عند الله، وحقائقه ستظهر واحدة تلو الأخرى بمرور الزمن، وسيتجلَّى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾[٦٥٦]».



لقد كانَ أرباب العلوم التجريبية في القرن السابع عشر- أي قبل اكتشاف المجهر، يرون أن الحيوان المنوي له شكل إنسان عندما

---

٦٥٥ الحج: ٥.

٦٥٦ الأنعام: ٦٧.



يدخل في الرحم، ولم يكونوا يعلمون مراحل خلق الإنسان، وظلَّ هذا الرأي سائدًا في القرن الثامن عشر. ولم يصل العلماء إلى حقيقة أن خلق الإنسان يكون على مراحل إلا في منتصف القرن التاسع عشر. ومع التطور الكبير للأجهزة مؤخرًا استطاع العلماء أن يقوموا بأبحاث كافية في هذا الشأن، ووصلوا في نهاية المطاف إلى الحقيقة التي ذكرها القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ سنة.

فيمكن القول هنا إنه عند وصول الأبحاث العلمية إلى نتيجة، فإن الحقيقة التي تظهر ليست إلا تصديقًا للقرآن الكريم؛ فالقرآن- على سبيل المثال- ذكرَ أن «الشمس تجري»، أما العلماء فكانوا يرون في الماضي أن الشمس ثابتة، ولكنهم لمَّا بلغوا الحقيقة قالوا: «نعم، إن الشمس تجري». وكذلك الأمر في جميع الحقائق الأخرى المذكورة في القرآن التي سيصل العلم إليها مع تطوره، وسيخضع كل إنسان يحترم الحقيقة للقرآن الكريم.

إن هذا التنظيم الإلهي في خلق الإنسان والحقائق العلمية التي عَلِمناها في إطار معجزةٍ تتعلق بعلم الأحياء وتتكشف لنا صورتها الكاملة مع مرور الوقت، ذَكَرَهَا القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرن حينما لم يكن هناك أي حقيقة لها علاقة بعلم الأحياء، وذلك ليس إلا دليلًا واحدًا من الدلائل التي تُظهِرُ عظمة القرآن وإعجازه.



ب. كل شيء خُلِق من ماء

يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٦٥٧]

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ...﴾[٦٥٨]

فيفهم من هاتَين الآيتَين أن كل كائن حي قد خُلِق من ماء من حيث مادته الأصلية، وأن الماء موجود في مصدر كل كائن حي، وكل المعاني التي يمكن فهمها هنا توافق تمامًا الحقائق العلمية. فكما أن مصدر الحياة الماء، فإن العنصر الأساسي في كل خلية حيوية إنما هو الماء، ولا يمكن أن يكون ثمة حياة بغير ماء.

ولو قيل لأي إنسان قبل أربعة عشر قرن إن الماءَ يكوِّن الجزء الأكبر من جسمه لما صدَّق بل لربما أعرضَ وكذَّب، لكن عندما اختُرِع المجهر، واكتُشِف أن الماءَ يكوِّن ثمانين بالمئة من هَيُولَى الخلية «السيتوبلازم»- المكوِّن الرئيس الذي يملأ الخلية- صار فهم الآيتَين السابقتَين أيسرَ للعقل البشري.

وتشمل عبارة ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ في الآية حتى النباتات، ذلك أن دوام حياتها مرتبط بالماء، وبراعمها وبذورها وثمارها من الماء.

---

٦٥٧ الأنبياء: ٣٠.

٦٥٨ النور: ٤٥.



وقد وصلت الأبحاث في الفضاء اليوم إلى نتيجة أنه لا حياة في الكواكب الأخرى لعدم وجود بخار الماء فيها، وهذه النتيجة تُظهِر العلاقة الوطيدة بين الماء والحياة.

ويمكن أن نستخلص من هذا التوضيح أن الآية في سورة الأنبياء توضِّح أن الماء أساس الحياة، وأن الكائنات الحية كلها نشأتها من الماء، أما الآية في سورة النور فتوضِّح أن الأحياء[٦٥٩] كلها- العاقلة وغير العاقلة- قد خُلِقت من نطفة خاصة بها، وكل ذلك يوافق ما أثبتَه العلم في أيامنا.

ويمكن القول هنا أن الحياة بدأت بالماء وتدوم به، ولعلَّ كل شيء في الأرض ينتهي بزوال الماء، إذ يقول الله تعالى في معرض ذكره أحداث القيامة:

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[٦٦٠]

و «سُجِّرت» هنا تعني اشتعلت نارًا، غير أن هيئة الاشتعال هذه مجهولة اليوم، وهذه الآية تذكِّرنا أن الهيدروجين الموجود في تركيب الماء مادةٌ محترقة، أما الأوكسجين فمادةٌ حارقة، والله سبحانه وتعالى قد جعل من هاتَين المادتَين المُخرِّبتَين تركيبًا هو

---

٦٥٩ المقصود هنا الإنسان والحيوان، لأن الآية ذكرَت كلمة «دابة»، والدابة كل ما يدبُّ على الأرض، ولا تشمل النباتات.

٦٦٠ التكوير: ٦.



أساس الحياة، ويمكننا أن نتوقع انفصال هاتَين المادتَين عندما يحين وقته.

ونرى في هذه الأمثلة التي ذكرناها أن القرآن الكريم قد أقنعَ الناس في زمان نزوله وطمْأَن قلوبهم، وكذلك الناس في هذه الأيام التي تشهد تقدمًا علميًا سريعًا في مجال الاكتشافات.

ج. تشكُّل الحليب

إن ما ذكره القرآن الكريم عن المكان الذي تخرج منه عناصر الحليب في جسم الحيوان، إنما هو نفسه ما وصلت إليه العلوم في أيامنا هذه، يقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [٦٦١]

إن حقيقة كلمَتي «دم» و «فرث»[٦٦٢] المذكورتَين في الآية الكريمة قد فُهمت حديثًا في أيامنا مع تقدم علم الكيمياء والاكتشافات في الجهاز الهضمي. ولم يكن في زمان رسول الله ﷺ علوم تجريبية تُثبت الحقائق في هذا الشأن، فظلَّت مجهولة حتى بدايات القرن العشرين، وأما اكتشاف «هارفي» لدورة الدم فقد كان بعد عشرة قرون من نزول القرآن.

٦٦١ النحل: ٦٦.

٦٦٢ الفَرَث: بقايا الطعام في الكرش.



ولم يكن معلومًا في زمان رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الدَّمَ يحمل الغذاء المنحل من الطعام المهضوم إلى غدد إفراز الحليب، وأن هذه الغدد الإفرازية تعالج هذه المواد الخام لتُنتِج الحليب. وليس يخفى على أحد أن الناس في زمان نزول القرآن الكريم لم يكن عندهم القدرة على معرفة هذه المعلومات التي تحتاج إلى أهل الاختصاص.

وإن تدبَّر الإنسان في وجود آية في القرآن الكريم تشير إلى هذه المعلومات وفي الوقت الذي نزل فيه القرآن، فلن يستطيع أن يوضِّح هذا الأمر بأي مصدر بشري.

د. حليب الأم

ويصح المقام هنا لذِكر حقيقة تتعلق بحليب الأم، إذ يوصي القرآن الكريم بإرضاع الأم ولدها حولَين كاملَين:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...﴾ (٦٦٣)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ...﴾ (٦٦٤)

---

٦٦٣ البقرة: ٢٣٣.

٦٦٤ لقمان: ١٤.

وقد أثبت الطب المتطور اليوم أن إرضاع الأم ولدها له أهمية عظيمة لسلامة الأم والولد.

ففي حليب الأم من الكمال ما يدلُّ على عظمة الخالق ﷻ، إذ يحتوي على ما يحتاجه الرضيع في حياته من فيتامينات، وحاثَّات «هرمونات»، ومواد وقاية، وإنزيمات لمقاومة الجراثيم، أما معنويًّا ففيه عناصر تكوِّن شخصية الأم في ولدها.

وفي حليب الأم البروتينُ الذي هو العنصر الأساسي في غذاء الإنسان، والسكر، والدهون، والفوسفور، والفيتامينات كلها؛ وكل هذه المكوِّنات موجودة بتوازن ونسبة دقيقة توافق بُنيَة الرضيع، فقد نظَّمها الله تعالى الذي أحسن كل شيء خلقَه.

وفي حليب الأم مواد المناعة التي تحمي الرضيع من الأمراض التي تُسبِّبُها جميع الجراثيم في الشهور الستة الأولى؛ لهذا السبب وأسباب أخرى من الضروري صحيًّا تغذية الرضيع بحليب الأم فقط، لا سيما في هذه الشهور.

ويرى الطب المتطور أن الرضاعة لا بد أن تستمر سنتَين، فالحاجة ضرورية لحليب الأم في هاتَين السَّنتَين لأن الكبد خلالها ينتج الدم، وتكون الأعضاء الأخرى في مرحلة النمو، كما أنَّ مدة الاحتياج للمواد الحيوية الأصلية في المرحلة الأهم في نمو الرضيع سنتَان كاملتَان، فالطب يؤكِّد مطلقًا أن أول سنتَين- التي ينمو الإنسان فيها - هي المرحلة الأهم في حياته.



ويرى الطب أن الأمهات اللواتي يُرضعنَ أولادهنَّ سنة أو سنتَين يتجدد عندهن النشاط الحيوي، فيكون احتمال تعرِّضهن لسرطان الثدي أقل؛ أما اللواتي لا يُرضعنَ أولادهنَّ فأجسادهنَّ أضعف صحيًّا.

فلا بد من إرضاع الأم ولدها حولَين كاملَين إن أرادت أن تجد الفوائد الصحية على أكمل وجه، وذلكم معجزة قرآنية عظيمة.

ويذكر القرآن الكريم في الآية الثالثة والعشرين من سورة النساء أن من المحرَّمات الزواج منهن «الأخواتُ من الرضاعة».

و إنما تكون الحرمة من الرضاعة إن كانت الرضاعة خلال أول سنتَين، أما إن كانت بعد سنتَين فلا يترتب على الرضاعة حرمة كحرمة النسب؛ وهذا يعني أن حليب الأم بعد سنتَين يفقد الخصائص الأصلية التي يحملها.

إن حليب الأم يتكوَّن في جسمها عندما تحمل بولدها، فلو رضع ولد آخر منها خلال هاتَين السنتَين- ولو كان قليلًا- تحقَّقت الأخوة في الرضاعة، لأن هذا الحليب لم يتكوَّن في جسم الأم إلا لوجود جنين في رحمها؛ ومن هنا جاء تحريم الإسلام الزواج من الأخوات من الرضاعة كما ذُكِر في الآية الكريمة، فتحريم أخوة الرحم والرضاعة إذًا سواء.

ولا شك أن لتحريم الأخوة من الرضاعة حِكَمٌ كثيرة منها ما علمناها ومنها ما نجهلها إلى يومنا هذا.



هـ. حرمة الدم

حرَّم الله تعالى «الدم» في كتابه العزيز إذ قال:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٦٦٥]

ويغفل الناس عن أهمية هذا التحريم، فتحليل الدم يُظهر أهمية التحريم الإلهي وفوائده لصحة الإنسان، ذلك أن الثابت أن الدم يحتوي على حمض البول بكميات كبيرة، وهذه المادة إن استُخدِمت في غذاء الإنسان فسيكون لها تأثير سام في صحَّته. وهذا سرُّ أمر الإسلام بذبح الحيوان بطريقة تُخرِج الدم من جسم الحيوان المذبوح.[٦٦٦]

ويمكن أن يكون هناك أسباب وحِكَمٌ أخرى لتحريم الدم ستظهر مع مرور الوقت ليراها كل ذي بصر وبصيرة.



٢. علم البصمات

أظهر علم البصمات حقيقة أن بصمات الإنسان تبقى نفسها دون أن تتغير طوال عمره، وأن بصمة كل إنسان لا تشبه بصمة

٦٦٥ البقرة: ١٧٣؛ انظر أيضًا: المائدة: ٣؛ النحل: ١١٥.

٦٦٦ انظر: وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص ٢٠١.



غيره أبدًا؛ لذلك فإن البصمة أفضل وسيلة لمعرفة هوية الإنسان في مؤسسات الأمن والحقوق. وقد اكتُشِفَت هذه الحقيقة في نهايات القرن التاسع عشر، وبدأ الناس بالانتفاع منها، لكن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الحقيقة قبل قرون طويلة في الآيتَين التاليتَين:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [٦٦٧]

وكما أن لكل إنسان وجهًا يميِّزه، كذلك له خطوط وأشكال في بصمات أصابعه تميِّزه تمامًا عن غيره؛ فهذه النقوش الدقيقة البديعة في هذا الجزء الصغير الضيق من جسم الإنسان إنما هي أثرٌ من آثار الله تعالى القدير العليم، الذي لم يُعجِزه خلقُ كل شيء من الذرات إلى المجرَّات، والذي لا يخفى إبداعه ونظامه الكامل في مخلوقاته.

وانظروا إلى تجليات عظمة الله تعالى في الكون، هل تجدون تؤمَان يتشابهان ظاهرًا وباطنًا؟!

يُروَى أن واحدًا قال في حضرة عمر:

«إني أتعجب من أمر الشطرنج، فإن رقعته ذراع في ذراع، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة، فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد».

---

٦٦٧ القيامة: ٣- ٤.



فأجابه عمر:

«هاهنا ما هو أعجب منه، وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر، ثم إن موضع الأعضاء التي فيها كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا يتغير البتة، ثم إنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يشتبهان، فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التي لا حد لها».[٦٦٨]



٣. علم الجلد وأمراضه

عندما ذُكِر للأستاذ الدكتور تاجاتات تاجاسون عميد كلية الطب في جامعة شيانغ ماي بتايلاند بعضُ الحقائق العلمية المذكورة في القرآن الكريم في أحد المؤتمرات الطبية، لم تلفت انتباهه في البداية، وقال:

«ثمة معلومات مشابهة لهذه في الكتب المقدسة للبوذيين عندنا».

غير أنه لما طُلِب منه إثبات ما يدَّعيه لم يجد بعد البحث أي شيء حقيقي في تلك الكتب، ثم رجع فنظر فيما يذكره القرآن الكريم، وندِم على ما قاله، ولم يجد بُدًّا من الاعتذار لعلماء المسلمين الذين ناقشوه في هذا الموضوع.

---

٦٦٨ الرازي، جـ٤، ص١٧٩- ١٨٠. [البقرة: ١٦٤].



ووصل تاجاسون إلى النتائج التالية بعد الأبحاث التي قام بها حول العذاب:

لا بد من تبديل الجلد بعد أن يحترق ويفقد الإحساس كي يستمر العذاب لمدة طويلة، لأن العذاب يكون في الجلد، وعندما يحترق الجلد تتضرَّر الأعصاب، وتفقد وظيفتها، فلا يشعر الجسم بأي ألم. فالدماغ يتلقَّى الإحساس بواسطة الأعصاب الموجودة في الجلد، لذلك عندما يحترق الجلد لا يمكن للأعصاب أن تؤدي وظيفتها، فلا بد من إلباس الجسم جلدًا جديدًا؛ أي إن الشعور بالعذاب لا يكون إلا بخلق جلد آخر وإلباسه للجسم.

وقد تُليَت الآية التالية على تاجاسون الذي وصل إلى هذه النتائج العلمية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٦٦٩)

فأدهَشته واعترف أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون كلامَ بشر، ولمَّا رجع إلى بلده، أسلمَ خمسةٌ من طلابه في أول مؤتمر عقده. وفي المؤتمر الطبي الثامن الذي انعقد في الرياض نطقَ

٦٦٩ النساء: ٥٦.



بالشهادتَين، وصاح فرحًا: «أسلمتُ أنا أيضًا!» وقضى عمره بعد ذلك اليوم متدبِّرًا آيات القرآن الكريم.



٤ . علم النبات

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦٧٠]

فيبيِّن ربنا ﷻ أنه خلَقَ المخلوقات كلها أزواجًا، منها ما عرفها الإنسان وكثير منها لا علمَ له بها.

وقد أدرك الإنسان اليوم أن جميع المخلوقات أزواج أو لها وظيفتان سواء الحيَّة منها أم الجامدة، بدءًا من الذرات على صغرها وانتهاءً بالمجرَّات على كبرها.

وصفوة الكلام أننا لن نجد أي تناقض بين الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم والنتائج العلمية التي وصلنا إليها اليوم. والله سبحانه وتعالى خلقَ مخلوقاته كلها من جمادات ونباتات وحيوانات وإنس وجن أزواجًا، لأنه الفرد الصمد الوحيد. فعلى سبيل المثال: عندما يلتقي التيار الموجب بالسالب يضيء المصباح، وعندما تلتقي

٦٧٠ يس: ٣٦.



السحب الموجبة بالسالبة يهطل المطر؛ فسُنَّة الله هذه قانونٌ إلهيٌّ يشمل المخلوقات كلها.

وتذكر الآية الكريمة أن النباتات أيضًا خُلِقَت أزواجًا:

﴿...وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ...﴾ (٦٧١)

فالأزهار تكون مذكرة أو مؤنثة، والثمرة لا تكون إلا إن حدث التلقيح بين تلك الأزهار. لكن هذا الإخصاب والتلقيح يكون بواسطة الرياح، وهذه الحقيقة التي وصلنا إليها من عهد قريب أخبرنا بها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا في قوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٦٧٢)

فالرياح تلقِّح السُحب كما تُلقِّح الأزهار، وقد وصلت الأبحاث العلمية اليوم في هذا الموضوع إلى النتائج التالية:

إن الرياح التي تدفع السُحب الثقال التي تزن أطنانًا في طبقات الجو، تُلقِّح الموجب منها بالسالب بالاحتكاك، أي إن الرياح تجعل السُحب المتشكلة من بخار الماء تتصادم، وبهذا التصادم يحدث انتقال الإلكترونات الموجبة والسالبة في السحب، ويحدث البرق.

---

٦٧١ الرعد: ٣.

٦٧٢ الحجر: ٢٢.

وفي الوقت نفسه ترفع الرياح هذه السحب، فتضمن برودتها وتكثفها وتحول بخار الماء فيها إلى مطر؛ فهطول المطر يلزمه برودة بخار الماء الذي يشكِّل الغيوم، وذلك يكون بانتقال السحب من المياه الدافئة بشكل أفقي نحو اليابسة الباردة أو بارتفاعها نحو الأعلى.

ونستطيع أن نوضِّح هذه العملية على النحو التالي:

تنشأ الفقاعات الهوائية لوجود الزَّبد على سطح البحار أو البحيرات والأنهار، وعندما تختلط هذه الفقاعات بالغبار الذي تجلبه الرياح من اليابسة تنطلق إلى طبقات الجو العليا، وتتحد هذه الجزيئات التي رفعتها الرياح مع بخار الماء، فيتكثف بخار الماء حول هذه الجزيئات؛ أي إن تشكل السُّحب يكون نتيجة تلقيح الرياح لبخار الماء الموجود في الهواء بصورة حرة بالجزيئات التي تحملها، لكن وظيفة الرياح لا تنتهي هنا؛ ذلك أنها تنقل السُّحب التي تزن أطنانًا في الجو إلى حيث ما شاء الله، فلولا الرياح لما كانت السحب، وحتى لو فرضنا أنها وجدت، فإن بخار الماء الذي سيتكثف فوق المحيطات والبحار سيتساقط فوقها، وسيُحرَم ما على الأرض من بشر وحيوانات ونباتات منها، ولن يكون على سطحها حياة. وقد دبَّر الله تعالى هذا الأمرَ أيضًا مثلما دبَّر كل أمر على أكمل صورة.

ويمكن لنا أن نستنتج مما ذكرنا أنَّ القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى عبادة الله تعالى بذِكرِه نِعمَ الله على عباده، ويشير من جهة



أخرى إلى حقيقةٍ علميةٍ- تدخل في موضوعات أبحاث علوم الأحياء والنبات والجغرافية- بكلمةٍ واحدةٍ ألا وهي: «لواقح». وحتى لو عُرِفَ أن الرياح تُلقِّح السحب والأشجار منذ القديم استنادًا إلى المعاني التي تفيدها هذه الكلمة، إلا أن الإيضاح العلمي في هذا الشأن لم يبدأ إلا بعد القرن الثامن عشر. وثمة توافق تام بين المعنى الذي أشار إليه القرآن الكريم والإيضاحات العلمية في هذا الموضوع، فالقرآن الكريم ذكر هذا الموضوع بأنسب صورة تناسب مقصده، والعلوم التجريبية أوضحت هذا الموضوع على حسب مقصدها.



٥. علم الفلك

يضرب القرآن الكريم أمثلة كثيرة من السماء كي نصل إلى أعماق الأحاسيس ونشعرَ في قلوبنا بعظمة الله وجلاله، ففي سورة المُلك يقول المولى عز وجل:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [٦٧٣]

---

٦٧٣ الملك: ٣- ٤.



فالقرآن يسألنا هنا: هل ترون في السماء حادثة تصادم أو انفجار؟ أَكنتم شاهدين على صدام النجوم ووقوعها؟ فكلُّ ذلك نظام إلهي بديع.

والله تعالى يضرب في القرآن الكريم الشمسَ والقمر مثلًا لنا، ويشير إلى دوران الشمس حول محورها، مع أن العلم لم يثبت هذه الحقيقة إلا مؤخرًا. لذلك كان الناس في القرنَين السادس عشر والسابع عشر يجادلون فيما بينهم ويتساءلون: هل الأرض ثابتة أو متحركة، كروية أو مسطَّحة؛ وهل الشمس تدور حولها أم أنها تدور حول الشمس.[٦٧٤]

---

٦٧٤ عندما قال غاليلو أن الأرض تدور حول الشمس في القرن السادس عشر جُرَّ إلى محاكم التفتيش، وهناك قرروا إعدامه لأنه جاء بشيء يخالف معتقدات النصرانية. لكن غاليلو تراجعَ عن قوله في المحكمة كي ينجو بنفسه، ولما خرج من المحكمة قال لأصدقائه: «الأرض تدور سواء أثبتُّ ذلك أم أنكرته».

لقد عرف غاليلو هذه المعلومة من اكتشافات المسلمين في العصر العباسي، ففي ذلك الوقت كان الأخوان موسى يبحثان ويعملان التجارب في منطقة سنجار، فأثبتوا أن قوس خط الزوال ٢٦٠ درجة، وكل درجة تقابل مسافة ١٠٦-٢/ ٣ كيلومتر، وأن محيط الأرض ٨٠٠٠ فرسخ «قرابة ٣٩٠٠٠كم». وقد وجد العلماء اليوم مستخدمين الأجهزة الحديثة أن محيط الأرض ٤٠٠٠٠كم، وهذا الفارق الصغير بين الرقمَين يُظهِر درجة العلم العظيمة التي وصل إليها المسلمون آنذاك. [انظر: محمود قايا، «بيت الحكمة»، موسوعة الشؤون الدينية الإسلامية، إسطنبول ١٩٩٢، جـ٦، ص٨٩؛ إسماعيل حقي إزميرلي، مقارنة بين مفكِّري الإسلام ومفكِّري الغرب، أنقرة ١٩٧٧، ص١٦؛ شمس الدين سامي، قاموس العالَم، دار كاشغر للنشر، أنقرة ١٩٩٦، جـ٦، ص٤١٩٤.



أ. خلق السموات والأرض

لقد وُضِعَت نظريات منذ القديم حول نشأة الكون والمادة الأولى فيها، وتجادل الناس بآرائهم المختلفة حول الفلك، ويمكن بالنظريات المتطورة فهمُ الحقيقة التي عرضها القرآن في هذا الشأن وإعجازه بصورة أفضل.

يقول المولى عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٧٥)

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (٦٧٦)

إن ما وصل إليه علماء الفلك الفيزيائيِّين في هذا الموضوع اليوم يوافق تمامًا الإطار الذي وضعَته هاتان الآيتان.

لمَّا عُرِضَ للأستاذ الدكتور يوشيلي كوزاين مدير مركز الأبحاث العلمية في طوكيو ما ذُكِر في القرآن الكريم حول نشأة الأرض، سألَ:

«متى أُنزِل هذا الكتاب؟»، فقيل له:«قبل ١٤٠٠ عام».

---

٦٧٥ الأنبياء: ٣٠.

٦٧٦ فصلت: ١١.

فحارَ الأستاذ ودُهِش، وقال:

«لا ريب أن هذا الكتاب ينظر إلى الكون من علٍ. وانظروا فيه تجدون أنه يرى كل شيء بأدق تفصيلاته، ويصفه وصفًا كاملًا لا يفوقه أحد، ولا شيء يخفى عليه!».

وقد تحدَّث الأستاذ الدكتور يوشيلي في أحد المؤتمرات عمَّا أثبته العلم اليوم بوضوح حول نشأة الأرض والأجسام الأخرى في الفلك، وشرحَ أن نشأتها كانت نتيجة انفجار لكتلة من الغاز ثابتة. وفي تلك الآونة ذُكِرَت له المعلومة القرآنية التي أوقعته في الحيرة، فالقرآن يصف مرحلة النشأة تلك بكلمة «دخان»، هذه الكلمة أثَّرت في الأستاذ تأثيرًا عظيمًا، لأن العلم إلى ذلك اليوم كان يُطلِق كلمةَ «ضباب» على تلك الهيئة التي بدأت تتشكل بعد انفجار كتلة الغاز، فكلمة «ضباب» كانت بعيدة عن إيضاح مثل هذه الحقيقة، لأن الضباب يتصف بالبرودة وله خصائص مثل خصائص الماء. لكن حينما استعملَ القرآن الكريم كلمةَ «دخان» وضعَ التعريف الصحيح، وأشار إلى الحرارة الناتجة عن الانفجار بتسليطه الضوء على رد الفعل الموجود. ففتح القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ سنة البابَ الذي كان موصدًا أمام العلم، وقدَّم للبشر حقيقة كاملة أدركوها حديثًا.

وسُئِل الأستاذ الدكتور يوشيلي عن قدرة القرآن على تقديم مثل هذه الحقيقة بدِقَّة، مع أن العلم التجريبي لم يثبت ولم يكتشف إلا أجزاءً منها، فقالَ:



«لا يمكن أن تكون هذه الحقائق المذكورة في القرآن كلامَ إنسان! لأننا- أرباب العلم- لا نستطيع أن نتعمق إلا في موضوع واحد، لكن القرآن يحتوي على معلومات في مجالات الكون كلها، لا بل حتى وراءها، ويوضِّحها ويقدِّمها على أكمل صورة! ولا يمكن لأي من البشر أن يكون لديه قدرة علمية تشمل مثل هذا المجال الواسع ويعرضه بصورة كاملة صحيحة! ومن هذا اليوم سيكون القرآن الكريم مسارَ حياتي العلمية، وسأوسِّع بالقرآن الإطار الضيِّق الذي كنت فيه قبل هذا اليوم».

ب. الغلاف الجوي

كانت ثمة قناعة من وقت قريب أنه يمكن الحياة على أي كوكب فيه درجة حرارة مناسبة. وأظهرت الأبحاث أنه من المستحيل أن يكون للكواكب غلاف جوي، لأن هناك تناقض كبير لا يدركه العقل بين الكواكب والغلاف الجوي.

إن الغلاف الجوي يعني الذرات الموجودة في الجو بحالة غازية، وهذه الذرات تمتصُّها سطوح الكواكب الكبيرة، أما الكواكب الصغيرة فلا تكفي جاذبيتها لامتصاصها، لذلك تنطلق هذه الغازات مبتعدة إلى الفضاء؛ أي إنه لا يمكن أن يكون للكوكب غلاف جوي، وإلى هذه الحقيقة أشار قول الله سبحانه وتعالى:



﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٦٧٧)

فلا بد من التوازن بين حركة هروب الجزيئات وقوة الجاذبية كَي يتكوَّن الغلاف الجوي، ولا بد من الانسجام بين حرارة الغلاف الجوي وقوة الجاذبية، ويجب ألا تفسد الطاقات المختلفة في الفضاء لهذا التوازن والانسجام. لكن هذا الأمر عسير حتى إنه من المحال تحقُّقه في الكواكب الأخرى، وقد تكون هذه الفرصة بالنسبة لها واحدًا بالمليار. لقد وضع الله تعالى- بأمر خاص منه- توازنًا يستحيل تعريفه كي يحيا الإنسان في هذه الأرض، ومنَحَ عباده حياة رائعة.

ج. كروية الأرض ودورانها

ثمة آيات كثيرة تشير إلى كروية الأرض في القرآن الكريم، منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿...يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ...﴾(٦٧٨)

فكلمة «يُكَوِّرُ» في هذه الآية تعني لفُّ الجسم الكروي، ويُقال: كوَّر العمامة على رأسه أي لفَّها وأدارها.

٦٧٧ فصلت: ١١.

٦٧٨ الزمر: ٥.

وكلمة «تكوير» تصف حقيقةً تُرَى في الأرض، فالكرة الأرضية التي تدور حول محورها يكون النهار في القسم المطلِّ منها على الشمس، لكن ضوء الشمس على هذا القسم لا يدوم لدوران الأرض، فعندما تتدور الكرة الأرضية يغيب النهار في جزء منها ليحلَّ الليل، ويغيب الليل في الجزء الآخر ليحلَّ النهار، فالليل يحل محلَّ النهار، والنهار محلَّ الليل في حركة دائمة مستمرة. وهذا ما يُثبِت أن سطح الأرض كروي الشكل، فكلمة «تكوير» في الآية تثبت أن الأرض تدور وشكلها كروي.

ويرى العلماء أن قول الله تعالى:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ...﴾ (٦٧٩)

إشارة إلى دوران الأرض.

ويرون أن الآية الكريمة تخبر بجهة دوران الأرض، فجهة دوران السحب الأم التي تكون فوق سطح الأرض مسافة ثلاثة ونصف أو أربعة كيلومترات جهةٌ ثابتةٌ لا تتغير أبدًا ولو تغيرت أحوال الطقس، وهذه الجهة من الغرب إلى الشرق، والأرض تدور بهذه الجهة.

وتشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة أخرى هي أن القارَّات التي كانت قارة واحدة عندما تكوَّنت اليابسة يبتعد بعضها عن

٦٧٩ النمل: ٨٨.



بعض مسافة تترواح بين سنتمتر وخمسة سنتمترات في جهات مختلفة. وقد اكتشف هذه الحقيقة العالم ألفرد فينجر في أوائل قرن العشرين، لكن هذا الاكتشاف لم يُؤخَذ على محمل الجد في البداية، غير أنه بعد ثمانينيات القرن الماضي صار حقيقة أثبتها علم طبقات الأرض.(٦٨٠)

أما في ما يتعلق بالشمس والقمر، فيقول الله سبحانه وتعالى في سورة يس:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٦٨١)

كان من المحال في القرن السابع الميلادي أن يعلم الناس أن الشمس والقمر يتحركان في مسار خاص بهما حركةً دائريةً، بل كانت تنتشر أفكار باطلة حول حركتهما. إذ لمَّا انكسفت الشمس يومَ مات إبراهيم ولدُ رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال الناس: انكسفت لموت إبراهيم.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

٦٨٠ قوة الطبيعة، مجلة ناشونال جيوغرافيك، واشنطن، ١٩٧٨، ص١٢ – ١٣.

٦٨١ يس: ٣٨ – ٤٠.



«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما، فادعوا الله وصَلُّوا[٦٨٢] حتى ينجلي».[٦٨٣]

د. بُنية الشمس والقمر

يبيِّن القرآن الكريم أن الشمس والقمر أجسام مختلفة:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[٦٨٤]

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[٦٨٥]

تصف الآيات الكريمة القمرَ بأنه «نور»، أما الشمس فقد وصفه بأنه سراج «مضيء» وهَّاج مثل المصباح.

وهنا لا بد أن ننتبه إلى الأمر التالي:

---

٦٨٢ إن صلاة الكسوف والخسوف من سنن النبي ﷺ، لأن الكسوف والخسوف من مظاهر عظمة الله تعالى في كونه، ودليلان على أن الشمس والقمر يسيران بأمر من الله تعالى. وصلاة الكسوف والخسوف دليل على الالتجاء إلى الله تعالى وشكره؛ فعلينا أن نتفكَّر في أنه لولا الشمس والقمر لبقينا في الظلام في الليل والنهار، ولما استفدنا من نِعَمِ الله في الأرض.

٦٨٣ البخاري، الكسوف، ١٥/ ١٠٦٠.

٦٨٤ نوح: ١٥- ١٦.

٦٨٥ النبأ: ١٢- ١٣.

وصفت التوراة المحرَّفة الشمس والقمر على أنهما «نُورَان»، أحدهما «كبير» والآخر «صغير». أما القرآن الكريم فقد بيَّن أن لكل منهما صفات مختلفة وخصائص مميزة، وأوضحَ أن نور كل منهما يختلف عن الآخر من حيث ماهيَّته.

والعلم اليوم يسمِّي الأجسام التي تصدر الضوء والحرارة «نجومًا»، أما التي تعكس الحرارة والضوء من النجوم المرتبطة بها فيسمِّيها «كواكبَ»؛ فالشمس نجمٌ له مكان في مجرة درب التبَّانة، والأرض كوكب في النظام الشمسي، والقمر جسم يدور حول الأرض. فالشمس مصدر الحرارة والضوء للأرض والقمر، وهما ليسا إلا أجسامًا عاكسة.

وقد جعل الله تعالى القمرَ ليستفيد الإنسان من حركته في تحديد الوقت:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ...﴾ [٦٨٦]

هـ. الثقوب السوداء

لم يكن الناس قبل ١٤٠٠ سنة يستفيدون من النجوم سوى في تكهُّن الحظوظ ومعرفة الطرق في السفر. لكن الله تعالى بيَّن عظمته

---

٦٨٦ يونس: ٥.



وأظهرَ تجليات قدرته في الآيتين الخامسة والسبعين والسادسة والسبعين من سورة الواقعة حينما قال:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

فالآية الكريمة تلفت الانتباه إلى مواقع النجوم بِقَسَم عظيم، ويرى علماء الفيزياء والفيزياء الفلكية أن «مواقع النجوم» تعني «الثقوب البيضاء» التي تلد منها و «الثقوب السوداء» التي تموت فيها.

إن الثقوب البيضاء مخزن طاقة لا يدركه العقل، ففيها طاقة تستطيع أن تُخرِج مليارات النجوم، وكأنها بذور المجرَّات.

أما الثقوب السوداء فهي مقبرة النجوم الغامضة المليئة بالأسرار، إذ لا يبقى في عالمها المجهول زمان أو مكان.

واكتُشِفَت الثقوب السوداء بعد خمسينيات القرن الماضي، وهذا المصطلح يُطلَق على تقلُّص النجم الذي نفدت طاقته نحو الداخل، ليصير حجمه صفرًا، ويكون له كثافة لا حدَّ لها، فيُكوِّن منطقةً لها جاذبية قوية.

ولهذه الثقوب الغامضة جاذبية قوية بحيث لا يفلت منها ضوء ولا مادة ولا أي شيء. لذلك لا تُرى بالمِقرَاب «التلسكوب» بل تظهر نقطةً سوداءَ، ولا يمكن معرفة وجودها إلا بتأثيرها على ما حولها.



وكما أشارت الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [٦٨٧] فإن الثقب الأسود ليس نجمًا بل موقع النجم الذي طُمِسَ، فتُظهِر هذه الحقيقة لنا دقَّة اختيار الكلمات في القرآن الكريم.

ومن الأمور التي تلفت الانتباه في الثقوب السوداء أنها تكون سببًا في تقلُّص النجوم الأخرى ذات الكتل الكبيرة وثقْبِهَا الفضاء، وتشير الآيات التالية إلى هذه الحقيقة:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [٦٨٨]

نفهم من هذه الآيات وأمثالها قدرةَ الله تعالى المطلقة، فالعلم اليوم لا يستطيع قياس المسافات في الفضاء إلا بالسنوات الضوئية، وهذه مسألة تفوق إدراك البشر؛ ذلك أننا لن نستطيع أن نعبِّر عن المسافات بين النجوم حتى لو وضعنا بجانب الرقم واحد أصفارًا لا نهاية لها، فيُظهِر هذا الجانب الإعجازي للقرآن الكريم تجليات عظمة الله وقدرته وحكمته في الفضاء.

إن هذا الموضوع الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز في سورة الواقعة بِقَسَم عظيم لم يُفهَم على ضوء العلوم في عصرنا إلا بهذا القدر، ولا ريبَ أن الآية الكريمة فيها من الحِكَم العظيمة الكثير الذي لم يتَّضح لنا بعد.

---

٦٨٧ المرسلات: ٨.

٦٨٨ الطارق: ١- ٣.



و. هداية النجوم الناسَ في السفر

من حِكم تزيين السماء بالنجوم أن تكون دليلًا للناس:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨٩)

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٦٩٠)

ومثال ذلك نجم القطب الذي يدلُّ على جهة الشمال دائمًا.

إن في جميع الأجسام في الكون نظامًا وإبداعًا إلهيًّا، لذلك لا يكون بينها تصادم إلا إن شاء الله. ولا يمكن لأي منها أن تتأخر في حركتها أو تُسرِع قيدَ أنملة، فكلها تسير بأمر الله تعالى في توازن وانسجام، ولن نجد عاقلًا يقول وهو في حيرة من أمره:

«هل ستتأخر النجوم في ظهورها اليوم أو ستختفي مبكِّرًا؟». وذلك تجلٍّ آخر من تجليات عظمة الله تعالى المشار إليها في الآية الكريمة.

ز. نسبية الزمن

إن خلقَ هذا النظام العظيم لم يكن عسيرًا على خالقنا ذي العظمة والقدرة المطلقة والجلال، القائل في كتابه العزيز:

---

٦٨٩ الأنعام: ٩٧.

٦٩٠ النحل: ١٦.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [٦٩١]

ويرى بعض المفسرين أن المقصود من الأيام الستة هنا المراحل الستة الممتدة على ستة آماد، وقد أقرَّ العلم الحديث اليوم بما ورد في القرآن الكريم.

أما في التوراة المحرَّفة فيرون أن هذه الأيام الستة كأيامنا- التي نعرفها- المقسَّمة إلى أربع وعشرين ساعة، ويقولون إن الله «استراح في اليوم السابع». [٦٩٢]

وهذا النوع من الإيضاح يُظهِر درجة بُعدِ التوراة المحرَّفة اليوم عن حقائق العلم، ويضع أمام العيون عِظَمَ معجزة القرآن الكريم بكل آياته في كل زمان ومكان.

فاليوم المذكور هنا يعني مدة زمنية خاصة، ويجب ألا يُفهَم على أنه الزمان الذي يعرفه البشر، فلا يعلم أحدٌ مُدَّته إلا الله تعالى القائل في كتابه العزيز:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٦٩٣]

---

٦٩١ ق: ٣٨.

٦٩٢ التكوين، فصل ١: ٣١.

٦٩٣ السجدة: ٥.



﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٦٩٤)

إن الوقت المتعلق بتدبير الكون في الآية الخامسة من سورة السجدة يختلف عن الوقت الذي تعرج فيه للملائكة وجبريل عليه السلام في الآية الرابعة من سورة المعارج؛ أي إن كلا الزمانَين يختلف موضوعهما لكن لا تناقض بينهما.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن مفهوم الوقت عند الله تعالى يختلف كثيرًا عمَّا يفهمه البشر من هذه الكلمة. ويرى بعض المفسرين أن المدة في الآيتَين كناية عن طولها، لكن هذه المدة تنطبق على المخلوقات، أما الله تعالى فلا ينطبق عليه مفهوم الزمان أبدًا. فالله تعالى إنما هو الذي ألبسَ البشر لباس الزمان، وهو سبحانه وتعالى صاحب القدرة المطلقة التي لا يحيط بها إدراك البشر ولا خيالهم، وهو الخالق المنزَّه عن قيود الزمان والمكان، الذي أكرمَ نبيَّه الحبيب بالمعراج في زمن أقل من ثانية؛ تلك الحادثة التي لا تستوعبها مليارات الأزمنة.

وقد وجد العلماء في هاتَين الآيتَين إشارة إلى موضوع «نسبية الزمن» الذي اكتُشِف في السنوات الأخيرة.

فنسبية الزمن ثابتة بما يلي:

---

٦٩٤ المعارج: ٤.

«إن الأرض تدور حول محورها دورةً في كل أربع وعشرين ساعة فيكون اليوم، أما القمر فيدور حول محوره في تسع وعشرين أو ثلاثين يومًا، فالنهار فيه أربعة عشر أو خمسة عشر يومًا، والليل أربعة عشر أو خمسة عشر يومًا، وعندما ينظر الإنسان إلى القمر من الأرض يرى جهة القمر نفسها دائمًا، وكذلك يختلف دوران الأجسام الأخرى في الفضاء حول محورها فيختلف مفهوم اليوم فيها».

ح. توسُّع الكون

يقول المولى ﷻ:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٦٩٥)

لمَّا نزلت هذه الآية الكريمة لم يكن لدى الناس أي علم صحيح بالأرض والشمس والكون، وقد صار فهمها أيسر مع تقدم العلم في عصرنا.

وكلمة «السماء» في الآية الكريمة ذُكِرت لتعني الفضاء الخارجي، والحرف «لام» في بداية كلمة «لَمُوسِعُونَ» أداة تدل على الكثرة. وقد وصلت الاكتشافات العلمية منذ بداية قرن العشرين إلى حقيقة توسع الكون بسرعة كبيرة.(٦٩٦)

٦٩٥ الذاريات: ٤٧.

٦٩٦ انظر للاستزادة: وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ترجمة جهاد رشاد، إسطنبول ١٩٩٦، ص٥٧.



وعندما تبلغ كتلة الكون- الذي يتوسع بسرعة كبيرة منذ أول يوم خُلِق فيه- حدًّا معيَّنًا، سيتوقف لِقوَّةِ جاذبيَّته، ويبدأ بالتقلص والانهيار نحو داخله. ويقول أستاذَا الفيزياء في جامعة ستانفورد ريناتا كالوش وأدري ليند:

«إن الكون متَّجه نحو الصغر والفناء. والأجسام جميعًا سواء تلك التي نراها أو التي لا نراها سيصغر حجمها لتكون أصغر من البروتون، وكأنها داخل ثقب أسود...»

وهذه النتيجة التي وصلت إليها الاكتشافات العلمية حديثًا أشار إليها القرآن قبل أربعة عشر قرن في قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٦٩٧)

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٩٨)

ط. التفكر في عظمة الله سبحانه وتعالى

إن القرآن الكريم ينبِّئنا - إضافة لما أوضحناه - بأخبار كثيرة عن خلق الكون، منها: أن السموات والأرض كانت في البداية

---

٦٩٧ الأنبياء: ١٠٤.

٦٩٨ الزمر: ٦٧.

ملتصقتان ثم انفصلتا[٦٩٩]، وأن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام[٧٠٠]، ورفعُ السموات بغير عَمَدٍ نراها وارتباطها بقانون الجاذبية[٧٠١]، وخلقُ السموات سبعًا متطابقات[٧٠٢]، ودورانُ الشمس والقمر والنجوم في مسارات خاصة بها[٧٠٣]، وانخفاضُ ضغط الهواء وقلة الأكسجين عند الاتفاع عن سطح الأرض[٧٠٤]. وجميع الاكتشافات العلمية في هذه الموضوعات تثبت ما ذُكِرَ في القرآن الكريم.

والله سبحانه وتعالى يأمر عباده في كثير من الآيات بالتفكر والتدبر.

إننا نعيش في عالَم نعرف قليله ونجهل أكثره، فانظروا مثلًا إلى الذرة، تجدون الإلكترونات والنواة؛ الإلكترونات تدور حول النواة بسرعة عظيمة تصل إلى ٢٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وتصادمها مُحال. ولا نتنبه إلى كل ذلك، بل نقرأ عنه فحسب، ونعجز عن معرفة هذه الحقائق الواقعة في كل ذرة، ولا نستطيع أن نعلم

---

٦٩٩ انظر: الأنبياء: ٣٠.

٧٠٠ انظر: هود: ٧.

٧٠١ انظر: الرعد: ٢؛ لقمان: ١٠؛ الحج: ٦٥.

٧٠٢ انظر: البقرة: ٢٩؛ الإسراء: ٤٤؛ الملك: ٣.

٧٠٣ انظر: يس: ٣٨- ٤٠.

٧٠٤ انظر: الأنعام: ١٢٥.



بالفيزياء إلا جزءًا من القواعد التي وضعها الله سبحانه وتعالى؛ وذلك كله يعني أنه علينا أن نتقرَّب إلى الله تعالى بالمعرفة والعلوم المعنوية ونرى الحِكَمَ الأزلية الأبدية.

وعندما نُكبِّر صورة الذرة إلى ما لا نهاية له نقف أمام فضاء لا نهاية له، مليارات النجوم؛ كلها تدور وتسبح في الفضاء ولا تتصادم على كثرة عددها[٧٠٥]، ولكل منها مهمة... وكذلك إن صغَّرتم الفضاء ستجدون ذرةً أمامكم، وكأن الله ﷻ يخاطب عقولنا ووجداننا بهذا الإبداع الإلهي والصنعة الربَّانية، فيقول:

﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾، ويرشد قلوبنا وعقولنا بِحِكَمه. وكل شيء في الكون من الذرات الصغيرة إلى المجرات الكبيرة يخاطبنا بلسان حاله، وحسبنا أن تفهم قلوبنا ما ينطقه هذا الكون بلسان الحكمة! لذلك علينا أن نتجرد عن الغفلة، فالإنسان عندما يقع في الغفلة يمسي أسير أهواء نفسه، ويحيا حياة حيوانية بجسمه، فيغدو كالأنعام أو أضَلَّ منها.



سُئِل رئيسُ مركز أبحاث الفضاء «ناسا» الأستاذ الدكتور آرمس ثاوم يومًا: «هل ثمة فراغ في الغلاف الجوي؟» فأجاب:

٧٠٥ إن جميع الأجسام في فضاء هذا الكون تتحرك وتدور بعكس عقارب الساعة، ولا يتصادم أحد منها بآخر لأن لكل منها مسار ومدة دوران.



«كلا، لا يمكن أن يكون هناك فراغ في الغلاف الجوي، ولو كان فيه فراغ لاختلَّ توازن الكون، واختلطت موازين الفضاء كلها، فرأيتم كثيرًا من حالات الاصطدام في الفضاء».

فعُرضت عليه الآية التالية:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [٧٠٦]

فدُهِش الأستاذ لمَّا سمع هذه الآية التي أُنزِلَت لتفتح عيون القلوب وليعتبرَ الناس بها. ووجَّهوا له سؤالًا آخر:

«أَوصلتُم إلى حافة الكون؟»

فأجاب وقد بدَت عليه علامات الإحباط:

«إننا نسعى لذلك منذ وقت طويل، لكن لم تكفِنا المَقَارِب[٧٠٧] التي بين أيدينا. فدائمًا ما يظهر أمامنا طبقات شتَّى كطبقات الضباب. فطوَّرنا مِقرابًا نتحكم به عن بعد، وأرسلناه إلى الفضاء، لكن النتيجة كانت نفسها... وأظن أننا لن نصل إلى حافة الكون، لأنني مقتنع تمامًا أن لا نهاية له...»

فذُكِرَت له الآيتان الكريمتان اللتان تتحدثان عن هذه الحقيقة:

---

٧٠٦ ق: ٦.

٧٠٧ جمع مِقرَاب: تلسكوب.



﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[708]

وأمام هذه الحقائق التي لا تدع مجالًا لأقل اعتراض من أرباب العلم المنصفين قال الأستاذ الدكتور آرمس ثاوم في حال من التسليم التام:

«كنت أرى منذ البداية أنه من العسير إدراك قيمة القرآن! إنني مندهش حقًّا! كيف لكتاب يعود تاريخه لقرون طويلة أن يقدِّم معلومات صحيحة كاملة عن الفلك تجذب الانتباه، حتى إنها تجعل الإنسان يدرك عجزه!. ليس لدي علم بِطاقةِ الإنسان قبل ١٤٠٠ سنة، لكن هذه المعلومات معلومات قيمة استثنائية تستحق أن نسجلها».

وبعد أن فكَّر الأستاذ الذي كان يعلم أن جميع كتب البشر إنما هي من التجربة أو الخيال وأنه لا بد أن يكون فيها نقص، قال:

«إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون تجربة بشرية أبدًا، ونفهم أننا داخلون في عصر جديد يتصالح فيه العلم والدين. وإنني لَأشعرُ أننا في زمان تتوافق فيه المعلومات التي يقدمها العلم والدين».

---

٧٠٨ الملك: ٣- ٤.

ولا جرمَ أن هذا العلم إنما هو العلمُ الحقيقي، وهذا الدين إنما هو الإسلام الذي لا شك أنه من عند الله سبحانه وتعالى.



٦. علم الأرض

أ. وظيفة الجبال

اكتشفَ علمُ الأرض في عصرنا الحالي أن لكل جبل أساسًا تحت الأرض بمقدار ما يعلو فوقها.

يقول الله تعالى مشبِّهًا الجبال بالأوتاد:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧٠٩)

وعلينا أن نعلم أن وتد الخيمة يُغرَز نصفه تقريبًا في الأرض، وقد ذكرَ الله تعالى أن الجبال غُرِزت في الأرض في قوله:

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (٧١٠).(٧١١)

وقد وجد علم الأرض اليوم أن الجزء الباطن من الجبال يشبه الوتد، وكأن للجبال جذرًا يثبتها.

---

٧٠٩ النبأ: ٦-٧.

٧١٠ النازعات: ٣٢.

٧١١ أَرْسَى الوتد في الأرض: ضربه فيها. [المعجم الوسيط].



والأرض لها ثلاث طبقات كطبقات البيضة: الصَّفَار، والبياض، والقشرة. فتقسيم الأرض من الداخل إلى الخارج: اللُّب، ثم الغلاف، ثم القشرة. والقشرة قاسية مثل قشرة البيضة، والطبقة التي تحتها هي الصُّهارة «الماغما» التي تكون حارةً منصهرةً، وسُمْكُ القشرة يكون رقيقًا في المحيطات «٨- ١٠ كيلومترات» أما في مناطق وجود الجبال الشاهقة فيكون ثخينًا «٣٠- ٤٠ كيلومترًا».

ولم يعرف الإنسان أهمية الجبال في توازن القارات التي تسبح فوق الصُّهارة «الماغما» إلا في عصرنا هذا، لكن القرآن الكريم قد ذكرَ هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرن في كثير من الآيات منها:

﴿...وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ...﴾[٧١٢]

ويوجد في علم فيزياء الأرض كتلُ جبلية ضخمة تُسمَّى «النقاط الساخنة» يصل عددها إلى مئة وعشر كتلة، وهي كتلٌ ضخمة من الصُّهارة «الماغما» تمنع حركة قشرة الأرض، وترتفع من الأعماق، وبعد أن تثقب القشرة تتصلب في سطح الأرض وتأخذ شكل البرشام، فتثبت القشرة وتضمن التوازن.

وثمة توافق بين ما ذُكِرَ في الآيات الكريمة وما وصل إليه العلم اليوم.

---

٧١٢ لقمان: ١٠.



ب. تكوُّن الفحم والنفط

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٧١٣).

ويقول المفسِّر محمد حمدي يازر في تفسير هذه الآية:

«لقد خلق الله تعالى أشجارًا شتَّى في المراعي والسهول والغابات في الماضي، ثم جعلها سمادًا وفحمًا شديد السواد». (٧١٤)

إن كلمة «أحوى» تُطلَق على الألوان الداكنة السمراء والشديدة الخضرة والدخانية. وقد فُسِّرت هنا بمعنى السواد والسمرة والخضرة. (٧١٥)

ويذكر العلماء أن سطح الأرض كان مغطًّى بغطاء نباتي في العصور الأولى، وقد بقيت الأشجار الضخمة الشاهقة التي نمت في أقليم- مقارنةً بأيامنا الحالية- أشدَّ حرارة وأكثر مطرًا تحت التراب نتيجة حركة الأرض وصارت من المستحاثات، وكوَّنت ما يُسمى اليوم «مناجم الفحم».

ولا بد أن نعلم أن الآية الكريمة أشارت إلى ظهور النفط، فالآية تخبر أن النباتات جُعِلَت كماء السيل الكالح السواد والشديد

---

٧١٣ الأعلى: ٤ – ٥.

٧١٤ ألماليلي، تفسير، جـ٨، ص٥٧٤٧

٧١٥ انظر: ألماليلي، تفسير، جـ٨، ص٥٧٤٨.



الخضرة. وقد أثبتت الأبحاث العلمية على مدى سنوات أن النفط يجري كالجداول بين طبقات الأرض. وينبغي ألا ننسى أن الآية الكريمة قد أشارت- إضافة إلى تكوُّن الفحم والنفط- إلى حادثة يسميِّها العلماء «هجرة النفط».



٧. الجغرافيا

الجغرافيا علمٌ يتناول علاقة الإنسان بالوسط الطبيعي الذي يحيطه به، ويوضِّح أسباب نشوء أحداث الطبيعية وتفكُّكِها وتأثير ذلك في الإنسان.

وتذكُر سورة الرعد جزءًا من موضوعات علم الجغرافيا، وتُذكِّر الإنسانَ بلطف الله تعالى عليه وتسخيره كل شيء له:

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ



وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٧١٦)

فهذه الآيات الكريمات تضع أمام أعيننا عظمة الله في كونه، وتطلب منَّا أن نعتبر ببدائع الخلق حولنا. ولقد سخَّر المولى ﷻ لعباده النِّعَم العظيمة سواء التي ذُكِرت هنا أم التي لم تُذكَر، وهو القائل في كتابه العزيز:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٧١٧)

وتذكُرُ الآية الكريمة التالية بعض الموضوعات التي لها صلة بالجغرافيا السياسية:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٧١٨)

فإذا اعتقدنا أنَّ الكتابَ في الآية الكريمة العلمُ، وأنَّ الميزانَ العدلُ، وأنَّ الحديدَ التقنياتُ؛ سنجد عندئذ أن الأمةَ التي تملك

---

٧١٦ الرعد: ٢- ٤.

٧١٧ الجاثية: ١٣.

٧١٨ الحديد: ٢٥.



العلم والعدل والتقنيات سيكون لها القوة والنفوذ وستحكم الناس؛ أي إن الآية الكريمة تبيِّن للمسلمين طرق الرقي والسيادة في هذه الأرض.

أ. أدنى نقطة في الأرض

أثبتت الأبحاث الأخيرة أن أدنى نقطة في اليابسة تحت مستوى سطح البحر إنما هي المذكورة في الآية التالية:

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [٧١٩]

وهذه الأرض بحيرةُ لوط «البحر الميت» حيث حلَّ العذاب بقريتَي سدوم وعمورة لسوء أخلاق الناس فيها، وهي أدنى من مستوى سطح البحر قرابة ٤٠٠ متر، وأعمق نقطة فيها ٣٠٠ متر تقريبًا؛ فقاع البحيرة أدنى من مستوى البحر ب٧٠٠ متر تقريبًا.

فمن معجزات القرآن الكريم وصفُ هذا المكان بأنه «أدنى الأرض» قبل أربعة عشر قرن، حين لم يكن يعرف الناس فيه جغرافيا الأرض بصورة كاملة.

ولمَّا سمِع خبير علم الأرض الأستاذ الدكتور «بالمار» هذه الآية الكريمة في إحدى الندوات العلمية من الباحث عبد المجيد

---

٧١٩ الروم: ١- ٣.



الزنداني، اعترض على ما قاله، لكنه عندما أجرى بعد الأبحاث العلمية قال:

«يا للغرابة! يا للدهشة! إنَّ هذا الكتاب يخبر عن الماضي والحاضر والمستقبل! ولا طاقة لأي بشر في ذلك!».

ثم قدَّم هذا الأستاذ محاضرةً في مصر بعنوان «إعجاز القرآن في علم الأرض»، وقال في نهاية حديثه:

«إنني لا أعلم مستوى الحياة في العصر الذي عاش فيه النبي محمد! لكنني أعلم أنه كان يعيش حياة بسيطة! فعندما أنظر إلى القرآن وما فيه من علوم، أُدرِك أنه من الخطأ الظنُّ أن القرآن أَثَرٌ من آثار ثقافة ذلك العصر! إن هذا الكتاب كتابٌ سماوي!».

فنستخلص مما ذكرنا أن العقل السليم حينما يتحد مع العلم لا يجد مناصًا من قبول الحقائق الإلهية، لذلك ثمة حاجة لمرآة العلم الجليَّة التي تعكس للعقول تلك الحقائق. ولا ريب أنه سيكون هناك كثير من الاكتشافات إلى قيام الساعة، وأن معجزات القرآن ستدهش العلماء وتحيِّرهم.

ب. تغيرات المناخ

ذكَرَ الأستاذ الدكتور كاونر في أحد المؤتمرات العلمية المتعلقة بعلم الأرض أن شبه الجزيرة العربية كانت في الماضي منطقة خضراء، وستعود كذلك بفضل التغيرات المناخية الكبيرة



التي ستطرأ عليها في المستقبل، فذكرَ الأستاذ الدكتور عبد المجيد الزنداني- الذي كان أحد الحاضرين- الحديث الشريف التالي:

«**لا تقوم الساعة... حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**».[720]

فدُهِش الأستاذ الدكتور كاونر مدةً، ثم قال:

«إن هذا الكلام قيل للنبي محمد بقدرة إلهية». فاعترف أن النبي محمد ﷺ حق، وقال مبيِّنًا:

«أعتقد أنني التقيت بقدرةٍ تُسلِّط الضوءَ على جميع ما أثبته العلم. وأؤمن أن هذه المعلومات من الله تعالى قبل ١٤٠٠ سنة، إذ لا يمكن لإنسان أميٍّ أن ينطق بمثل هذا في عصر ليس فيه علم أو تقنيات».

ويرى العلماء أن المناخ في الحقبة الأولى من الحِقَب «الجيولوجية»- أي حِقَب تكوُّن الأرض- كان أشد حرارة وأغزر مطرًا، لذلك نمت أشجار ضخمة شاهقة، وبعد أن صارت مستحاثات تكوَّنت مناجم الفحم التي نعرفها اليوم. وكان العصر الجليدي في أوائل الحقبة «الجيولوجية» الرابعة، وكانت مستويات البحار والمحياطات آنذاك أعلى بمئة متر مما هي عليه اليوم؛ فنفهم من ذلك كله أن المناخ قد يتغير في المستقبل.

---

٧٢٠ مسلم، الزكاة، ٦٠/ ١٥٧؛ أحمد، جـ٢، ص٣٧٠، ٤١٧.



ج. ظلمات البحار

إن تصوير القرآن الكريم الأمورَ التي لم يستطع الإنسان أن يعلمها أو علمها أهلُ الاختصاص فقط- مثلما تصوِّر العين التي ترى يقينًا- يُظهِر أن هذا القرآن فيه كلمات عظيمة خاصة بالله تعالى. والشاهد على هذا ما يلي:

ذكَرَ غاري ميلر أن أحد المسلمين قبل بضع سنين أهدى نسخةً مترجمة للقرآن الكريم لرجل أمضى حياته في البحار، وكان يعمل بالتجارة في ميناء بمدينة تورنتو. ولم يكن هذا البحَّار يعلم شيئًا عن تاريخ الإسلام، غير أنه لمَّا قرأ القرآن الكريم تركَ فيه أثرًا عظيمًا، فسأل المسلمَ الذي أهداه القرآن:

«أَكانَ محمد بحَّارًا؟»، فقد تأثَّر الرجلُ بتصوير القرآن، لأنه عاش لحظات العواصف في البحر. وكان يعتقد أن مَن كتبَ عن هذه العواصف في البحر لا بد أنه عاش تلك اللحظات، فالتصوير في الآية التالية لا يمكن أن يأتي به رجل من ذهنه دون أن يرى العواصف:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٧٢١)

---

٧٢١ النور: ٤٠.



لذلك لمَّا قيل له: «إن محمدًا أمضى حياته كلها في الصحراء» زادت حيرته، فهذا التصوير للعواصف الذي لا يمكن أن يأتي به من لم يمضِ عمره في البحار قد ذُكِرَت في القرآن على أجمل صورة، فلا بد أن يكون القرآن وحيًا من عند صاحب القدرة الذي يعلم كل شيء، وسارَعَ ذلك الرجل إلى اعتناق الإسلام.[٧٢٢]



٨. التاريخ

أ. في أي عصر عاش هامان؟

إن القرآن الكريم كلام الله الأزلي الأبدي، لذلك فإن المعلومات التاريخية التي يعرضها إنما هي الحقيقة عينها، وأما الكتب التي حرَّفها البشر ففيها كثير من الأخطاء، ومثال ذلك العصر الذي عاش فيه «هامان».

يذكرُ القرآن الكريم اسم هامان مع فرعون، وقد وردَ اسمه في ستة مواضع وأنه كان من المقرَّبين إلى فرعون. أما في الكتاب المقدس لدى اليهود «العهد القديم» فيَرِد اسمه في قسم «الأنبياء» في سِفر «أستير-الأبواب ٣- ٤»، ويُذكَر أنه كان من أعوان ملك

٧٢٢ غاري ميلر، القرآن المعجِز، ص ٢٢ – ٢٣.



فارس يُسيءُ إلى بني إسرائيل. فهامان في العهد القديم عاش بعد عصر سيدنا موسى عليه السلام.(٧٢٣)

وقد ادَّعى المستشرقون وجود خطأ في القرآن استنادًا لما ذُكِر في العهد القديم، لكن هذا الادعاء بطُلَ لمَّا حُلَّت رموز الكتابة الهيلوغريفية التي كانت لغة مصر القديمة، فوجدوا اسم «هامان» في الكتب المكتوبة بتلك اللغة.

ولم يستطع أحد قراءة الكتب التي كتِبت بالهيروغليفية حتى القرن الثامن عشر، لأنه مع انتشار النصرانية في المنطقة نسيَ الناس عقيدة مصر القديمة ولغتها. وآخر كتاب كُتِب بالهيروغليفية يعود تاريخه إلى سنة ٣٩٤م، وظلَّت هذه اللغة منسيَّة حتى عام ١٧٩٩م. وقد حُلَّ لغز الكتابة باكتشاف «حجر رشيد» يرجع تاريخه إلى سنة ١٩٦ قبل الميلاد أُطلِق عليه اسم «حجر روسيتا». وميزة هذا الحجر أنه كُتِبَ بثلاث كتابات مختلفة: الهيروغليفية، والديموطيقية «الكتابة اليدوية للهيروغليفية» واليونانية. واستطاع الفرنسي جان فرانسوا شامبليون أن يحلَّ لغز الهيروغليفية استنادًا للنص المكتوب باليونانية في ذلك الحجر.

٧٢٣ يتألف العهد القديم الذي هو الكتاب المقدس المكتوب لليهود من ثلاثة أقسام: القسم الأول: التوراة التي تذكر الأحداث من الخلق إلى وفاة سيدنا موسى؛ والقسم الثاني: الأنبياء؛ والقسم الثالث: الكتب. والقسمان الأخيران يذكرنان الأحداث وتاريخ بني إسرائيل بعد وفاة سيدنا موسى.



ومع حل لغز الهيروغليفية وصلنا إلى معلومة أعظم أهمية، وهي أن: اسم «هامان» ذُكِر في الكتب المصرية في عصر سيدنا موسى عليه السلام. وقد ذُكِر اسمه أيضًا في كتاب تاريخي في متحف هوف بمدينة فيينا، ويركِّز الكتاب على قرب هامان من فرعون.(٧٢٤)

أما في قاموس (شخصيات المملكة الجديدة) الذي أُعِدَّ استنادًا إلى الكتب التي سبقها، فقد ذُكِرَ أن هامان كان «رئيس العمال في مقالع الحجر».(٧٢٥)

وهذه الدلائل الأثرية تتطابق مع ما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(٧٢٦)

فاكتشاف اسم هامان في الكتب المصرية القديمة يُبطِل ما افتُرِيَ على القرآن الكريم، ويثبت مرة أخرى أنه كلام الله سبحانه

---

٧٢٤ ولتر فريسنسكي، مخطوطات مصرية من متحف هوف في فيينا، ١٩٠٦، مكتبة J. C. Hinrich'che

٧٢٥ Hermann Ranke' Die Ägyptischen Personennaman. Verz – ichnis der Namen. Verlag Von J. J. Augustin in Glückstadt. Band I' 1935' Band II' 1952

٧٢٦ القصص: ٣٨.

وتعالى، فالقرآن يقدِّم لنا- بطريقة إعجازية- معلومةً تاريخيةً لا يمكن الوصول إليها، ولا حلُّها في العصر الذي أُنزِل فيها.

ب. مدينة إرَم

يذكر القرآن الكريم بلدةَ «إرم» التي اشتُهِرَت بأعمدتها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (٧٢٧)

ولم يكن المؤرِّخون يعلمون بوجود هذه المدينة. وقد وردَت معلومة لافتة للانتباه في مُلحَق مجلة «ناشونال جيوغرافيك» في عددها الصادر شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٧٨، إذ ذُكِرَ أنه في سنة ١٩٧٣ اكتُشِفَت مدينة كاملة أثناء عمليات التنقيب في منطقة «إبلا» في سوريا، واكتُشِف أن هذه المدينة يرجع تاريخها إلى ثلاثة وأربعين قرنًا. لكن المثير في الأمر أن الباحثين وجدوا في مكتبة مدينة «إبلا» تدوينًا يذكر جميع المدن التي تاجرت معها مدينة «إبلا»، وكانت مدينة «إرَم» إحدى تلك المدن. نعم، لقد كان سكَّان «إرَم» يتاجرون مع سكَّان «إبلا». (٧٢٨)



---

٧٢٧ الفجر: ٦- ٨.

٧٢٨ غاري ميلار، القرآن المعجِز، ص٨٠.



٩. الفيزياء

أ. انخفاض الضغط الجوي كلما ارتفعنا

تثبت التجارب أن ضغط الغلاف الجوي الطبيعي ١٠١٣ ميليبار، لكن عندما نرتفع من سطح البحر يكون متوسط انخفاض الضغط ١ ميليبار في كل ١٠,٥ متر، أما الحرارة فتنخفض نصف درجة في كل ١٠٠ متر. وكلما ارتفعنا انخفضَ مستوى الغبار وكثافة الغلاف الجوي، وانخفضت معها كثافة الأوكسجين، لذلك يعاني الإنسان كلما ارتفع في الهواء من ضيق التنفس والإغماء وصعوبة النطق والرؤية.

وإذا لم يستخدم أجهزة خاصة حينما يتجاوز العشرين ألف متر، فقد يموت لتعذر التنفس، لذلك تُستخدَم أنابيب الأوكسجين في الارتفاعات الشاهقة.

وهذه الحقيقة التي تعد من الاكتشافات الحديثة أشارَ إليها القرآن الكريم قبل أربعة عشر عصر:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...﴾ [٧٢٩]

---

٧٢٩ الأنعام: ١٢٥.



ب. الحجاب بين البحرين

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٧٣٠)

إن الحقيقة الظاهرة في هاتَين الآيتَين معجزة قرآنية أدركناها في عصرنا الحالي. فقد اكتُشِف أنه لا تختلط المياه في مكان التقاء بحرَين، وكأنه ثمة سدٌّ بينهما أو حاجز غير مرئي. لذلك لا يختلط ماء البحر الأبيض المتوسط بماء المحيط الأطلسي، فيحفظ كلٌّ منهما خصائصه، وكأنَّه ثمة حاجز مُعجِز في مضيق بجبل طارق يُظهِر قدرة الله تعالى وعظمته.

وكذلك الأمر في الأنهار الغزيرة مثل المسيسيبي ويانغتسي، إذ لا تختلط مياهها العذبة عندما تصب في مياه البحر المالحة بعد أن تقطع مسافات بعيدة في البحر، وذلك تجلٍّ للقدرة الإلهية ومعجزة عظيمة لم يعرفها الإنسان إلا من عهد قريب.

ويمكن أن نذكر هنا مجرى الماء ذو الجهتَين في مضيقَي البوسفور والدردنيل مثالًا لما نتحدث عنه. فماء البحر الأبيض المتوسط الأكثر كثافة وملوحة «٣٦ بالألف» يجري نحو البحر الأسود آخذًا المجرى السفلي؛ أما ماء البحر الأسود الأقل ملوحة «١٨ بالألف» فيجري نحو البحر الأبيض المتوسط آخذًا المجرى العلوي.

٧٣٠ الرحمن: ١٩- ٢٠.



فهل كان ذلك المجتمع الجاهلي البعيد عن الحضارة وذلك الإنسان الأمِّي في ذلك المجتمع قادرًا على أن يعلم هذه الحقائق؟

وقد وصلَ الأستاذ الدكتور هاي الخبير الأمريكي في البحار إلى الحقائق التالية بعد أبحاث علمية على مدى طويل:

ثمة حاجز بين المياه يُظهِر القدرة الإلهية، وهذا الحاجز يمنع اختلاط البحرَين؛ أي إن هذا الحاجز كالمِصفاة ذات وجهَين يسمح بمرور ما يجب أن يمر ويمنع ما يجب منعه، لأن خصائص مياه البحار والمحيطات مختلفة، فكل منها عالَم مختلف من حيث درجة حرارته وملوحته والكائنات الحية التي تعيش فيه.

ولمَّا عُرِض على الأستاذ الدكتور هاي ما ذكرَه القرآن في هذا الشأن، دُهِشَ كغيره من العلماء المنصِفين، وقال:

«لقد دُهِشتُ حقًّا عندما رأيت هذه المعلومات في القرآن، وأثِق أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام بشر. إن هذه المعلومات قد أخبرَ اللهُ بها لا محالة!».

وبعد ذلك بحث الأستاذ في القرآن والحديث بدقَّة، ولمَّا رأى في القرآن كثيرًا من المعجزات إلى جانب أنه وحي من الله تعالى، ذكَرَ تحقق الحقيقة في الحديث الشريف التالي معجزةً من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام:



قال رسول الله ﷺ:

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله أومن، أو آمن، عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة». [٧٣١]

ويقول علماء الفيزياء ممن سعوا لفهم القرآن:

«إن أسس الفيزياء المهمة كلها موجودة في القرآن كاملة، ولا شك أن الناس بعدنا سيعلمون حِكَمًا كثيرة من هذا الكون».



١٠. علم الوراثة

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [٧٣٢]

تلفت هذه الآية الانتباه إلى مورِّثات «جينات» الإنسان، فالعلم اليوم يبيِّن أن المورِّثات، أي الخلايا التي تنقل الصفات الموروثة والتي هي ككُتيِّب يحتوي حياة الإنسان بأكملها، إنما هي كدفتر

---

٧٣١ البخاري، الاعتصام، ١؛ فضائل القرآن، / ٧٢٧٤١؛ مسلم، الإيمان، ٢٧٩.

٧٣٢ الأعراف: ١٧٢.



السجلَّات، ويوضِّح أن خصائص الإنسان كلها مفهرسة في تلك المورِّثات وهو لا يزال في حال خلايا في الأصلاب، وهذا ما يسمَّى بالحمض النووي. ويشير إلى أن هذه المورِّثات التي تحافظ على سجل ثلاثة مليارات إنسان وتحتوي خصائصهم كلها، لا يزيد حجمها على سنتمتر مكعَّب.

فأي عاقل يقبل أن إنسانًا أميًّا أشار إلى هذه الحقيقة العلمية من عنده قبل أربعة عشر قرن؛ أي إلى الحمض النووي الذي كأنه حاسوب مُعجِز؟



١١. حفظ الصحَّة

يلفت القرآن الكريم إلى موضوعات مهمة تتعلق بحفظ الصحة منها: التستُّر، ونظافة الثياب، وأخذ الراحة بالقدر الكافي، والتغذية بصورة جيدة معتدلة، وتجنب الطعام السيء والفاسد.

ويذكر القرآنُ الطعام النباتي وفوائده، ويبيِّن الطعام الجيد والرديء، ويحرِّم المُسكِر. ومن الموضوعات التي ذكرها القرآن الكريم العلاج بالتغذية، ودفن الموتى الذي يعد من القواعد الصحية العامة.[٧٣٣]

وقد كان رسول الله ﷺ يهتم بموضوع دفن الموتى الذي أشار القرآن الكريم إليه، فعن يعلى بن مُرَّة رضي الله عنه قال:

٧٣٣ انظر: المائدة: ٣١.



«سافرت مع النبي ﷺ غير مرة فما رأيته مرَّ بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل أمسلم هو، أم كافر».[٧٣٤]

وفي غزوة بدر وأُحُد ترك المشركون قتلاهم دون أن يدفنوهم، فأمَرَ رسول الله ﷺ أصحابه بدفنهم .

ومَثَّل المشركون بجثث شهداء المسلمين في أُحُد، فلمَّا أراد الصحابة الكرام التمثيلَ بجثث المشركين، نهاهم عن ذلك وأمرَهم بالصبر.[٧٣٥]

والقرآن الكريم يأمر بالابتعاد عن الإفراط والتفريط في الأكل والشرب أي الاعتدال فيهما[٧٣٦]، فبذلك لخَّص نصف ما جاء به الطِّبُّ، وعندما حرَّم الزنا، حدَّ من الأمراض التناسلية، وتكفَّل بِصَون الأجيال بصورة جيدة ماديًّا ومعنويًّا.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا».[٧٣٧]

---

٧٣٤ الحاكم، جـ١، ٥٢٦/ ١٣٧٤.

٧٣٥ انظر: الواقدي، جـ١، ص٢٩٠.

٧٣٦ انظر: الأعراف: ٣١.

٧٣٧ ابن ماجة، الفتن، ٢٢/ ٤٠١٩؛ الحاكم، جـ٤، ٥٨٣/ ٨٦٢٣.



وقد أثَّر هذا الحديث الشريف في الأستاذ الدكتور هاي، فبحث في هذا الموضوع طويلًا، وكان مما قاله:

«لقد وصل العلم اليوم إلى هذه النقطة في نهاية المطاف، فالإيدز نتيجة الخيانات والشذوذ الجنسي... والحق أن أوربا لمَّا أعلنَت الحرية في موضوع الجنس، أحاطت بالناس أمراض معدية كثيرة، واجتاحت الجراثيم المتنوعة التي ما عُرِفَت حتى أسماؤها، ودهمَتهم مصائب كثيرة أعجزت الناس. ولا ريب أن ذلك مظهر من مظاهر ارتباط الفحش بالمرض كما بيَّن الحديث الشريف.

ولا أستطيع بعد هذا اليوم أن أدَّعي أنَّ ما قاله رسول الله وما تنبَّأ به من أحداث ظهرت بعد قرون طويلة ليس إلا مصادفة! وإذا وضعنا في الحسبان أنه كان رجلًا أمِّيًّا، فلا يمكننا البتة أن نعتقد أن ما ذكرَه كان من عند نفسه! وإني أرى كما يرى صديقي الأستاذ كيث، وأؤمن أن هذه المعلومات من مصدر إلهي! فهذه الحقائق الكبرى واليقينيات العظمى لا يمكن أن تكون خلاصة جهد بشري! وإني أسعى وأبذل جهدًا منذ سنوات طويلة، لكن ما وصلت إليه ها هوَ ذا بين أيديكم... كل ما وصلت إليه لا شيء أمام هذه الحقائق العظيمة!».



وقد حرَّم القرآن الكريم أكل الميتة والدم والخنزير، ولا يحتاج هذا الموضوع إلى إيضاح طبي بعد اليوم، ولا يمكن إنكار فوائد طهارة الجسم والوضوء والصلاة والصيام للجسم والروح سواء.



وما ذكرناه ليس إلا أمثلة قليلة، ففي القرآن الكريم مئات الآيات التي تلقي الضوء على موضوعات مليئة بالأسرار، وستُعلَم معانيها- ولو جزئيًّا- مع تطور العلوم بمرور الوقت، ولذلك قيل: «الزمان أعظم مفسِّر للقرآن».

ولا يمكن لأي عاقل لبيب أن يدَّعي أن هذا الكتاب جاء به إنسان أميٌّ تربَّى في مجتمع جاهلي، هذا الكتاب الأعظم في بلاغته وفصاحته، الذي لن تجد فيه أي تناقض أو شُبهات، والذي يُخبِر عن كثير من الحقائق ستقع إلى يوم القيامة، والذي لم يستطع أحد من الإنس ولا من الجن أن يأتي بسورة من مثله لا بل بأصغر سورة من مثله ولن يستطيع.

إن القرآن والسنة يسبقان العلم في كل عصر، فالعلم يرى بعض الأشياء التي أخبر بها القرآن والسنة بصورة قطعية، «احتمالًا» لأنه لم يصل إلى مرتبتهما، وتظهَر عظمة القرآن عندما تتحول تلك الاحتمالات إلى حقائق أمام الأبصار. وإذ ضربنا أمثلة من القرآن فيما سبق، دعونا نضرب مثالًا من الحديث الشريف هنا:

يقول رسول الله ﷺ:

«إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء».[٧٣٨]

---

٧٣٨ البخاري، بدء الخلق، ١٦، الطب ٥٨/ ٣٣٢٠؛ أبو داود، الأطعمة، ٤٨-٤٩/ ٣٨٤٤؛ ابن ماجه، الطب، ٣١؛ أحمد، جـ٢، ص٢٢٩، ٢٤٦.



فرسول الله ﷺ أوصى بعدم إضاعة الطعام والشراب في الإناء وقت الضرورة، وبالاستفادة مما فيه. وقد كانت الفكرة السائدة حتى وقت قريب أن الذباب حشرة تحمل الجراثيم، ولم يكن أحد يعلم أن فيه مضادًا للسموم، غير أن الحقيقة اليوم تجلَّت معجزةً من معجزات النبي ﷺ.

وقد اكتشفَ العلماء في أستراليا سنة ٢٠٠٢ أنهم أنتجوا مضادات حيوية من الذباب وحشرات أخرى، ووضعَ فريق الباحثين الذي يقوده الأستاذ «أندي بيتِّي» من جامعة ماكواري في سدني بحثًا مُلفتًا للانتباه.

وقال العلماء الذين تنبَّهوا إلى أن الذباب والحشرات كلها تقاوم اللحم الفاسد وكل أنواع القذارات حتى الروث:

«إن هذه الأنواع من الأحياء يفترض أن يكون لها مقاومة قوية للعدوى، وإلا هلكَت. وقد أعطت تجارب استخلاص المضادات الحيوية منها نتائج إيجابية حتى هذه اللحظة».

وليس عند المسلمين أي شبهة في صحة هذا الحديث الشريف لأنه مذكور في كتب الحديث المهمة وفي مقدمتها صحيح البخاري، أما الذين يسعون لإيضاح كل شيء بالعقل والعلوم التجريبية فإنهم يهرِفون بما لا يعرفون حول هذا الحديث وراويه سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. غير أن الاكتشافات العلمية أثبتَت مرة أخرى صحةَ ما جاء به رسول الله ﷺ وما آمنَ به المؤمنون بيقينٍ تام.

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب، أن يغسله سبع مرات أولاهُنَّ بالتراب».[739]

ويبيِّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث نجاسة فم الكلب، وأهمية التراب في الطهارة من هذه النجاسة.

وقد أخبرَتِ السنة الشريفة قبل ألف وأربعمئة عام بهذه الحقائق التي أثتبها العلم من عهد قريب.

إن الموسوعات العلمية تُصدِر كل سنة نسخة ملحقة تنشر فيها الحقائق العلمية المتغيِّرة فتصحِّح بذلك ما نشرته قديمًا. أما في القرآن والسنة فلم يكن ثمة حاجة لتصحيح ولو حرفٍ واحدٍ فيها منذ ألف وأربعمئة عام، وستظل الحال كذلك إلى قيام الساعة. يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[740]



---

٧٣٩ مسلم، الطهارة، ٩١/ ٢٧٩؛ البخاري، الوضوء، ٣٣.

٧٤٠ فصلت: ٤١- ٤٢.



١٢. تجليات الانسجام والقدرة الإلهية في الكون

يقول المولى ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٧٤١]

وفي التاريخ أحداث ووقائع كثيرة تُصدِّق هذه الآية الكريمة، منها ما رواه العالِم الهندي الدكتور عناية الله المشرقي، يقول:

كان ذلك يوم أحد، من أيام سنة ١٩٠٩، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز- الأستاذ بجامعة كامبردج- ذاهبًا إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوتُ منه، وسلَّمت عليه، فلم يرد عليَّ، فسلَّمت عليه مرة أخرى، فسألني: «ماذا تريد مني؟»، فقلت له: «أمرَين يا سيدي! الأول: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر!» فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له: «وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلًا ذائع الصيت في العالم- مثلك- أن يتوجه إلى الكنيسة؟»، وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً، ثم قال: «عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي». وعندما وصلت إلى داره في

٧٤١ فصلت: ٥٣.



المساء، خرجت «ليدي جيمس» في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكًا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: «ماذا كان سؤالك؟» ودون أن ينتظر ردِّي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنواره المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله. وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائمًا، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله. وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول: «يا عناية الله! عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: (إنك لعظيم!) أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء. وأشعر بسكون وسعادة عظيمَين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت يا عناية الله خان لماذا أذهب إلى الكنيسة؟».

ويضيف العلامة عناية الله قائلًا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانًا في عقلي، وقلت له: «يا سيدي، لقد تأثرت جدًّا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدَّس، فلو سمحتم لي أن أقرأها عليكم»، فهزَّ رأسه قائلًا: «بكل سرور»، فقرأت عليه الآية التالية:



﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ (٧٤٢)

فصرخ السير جيمس قائلًا: ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ؟! مدهش! وغريب، وعجيب جدًّا! إن الأمر الذي كشفتُ عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقةً؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتُبْ شهادةً مني أن القرآن كتاب مُوحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلًا:

«لقد كان محمد أُميًّا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن (الله) هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش..! وغريب وعجيب جدًّا!». (٧٤٣)



ويريد ربنا ﷻ منَّا أن نتفكَّر في عالَم المخلوقات الذي خلقه، فكلُّ شيء في هذا العالَم من أصغر ذرَّة إلى أكبر مجرَّة إنما هو من بدائع الله وعجائب صنعته... وكل مكان كأنه متحفٌ يعرض لنا آثار قدرة الله تعالى وإبداعه... وكل شيء أعجوبةٌ فنيَّة إلهيَّة... فيريد ربُّنا أن تتدبر عقولنا هذا المعرض الإلهي، وتغوص في بحر التفكر، ويقول واصفًا المؤمنين ذوي الألباب:

---

٧٤٢ فاطر: ٢٧- ٢٨.

٧٤٣ وحيد الدين خان، القرآن يتحدى، ص ٢٠٣- ٢٠٥.



﴿...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (744)

فلنتفكَّر في سطح هذه الأرض؛ طبقةٌ رقيقةٌ من التراب تغذِّي مليارات المخلوقات من نبات وحيوان وإنسان، وكل مخلوق يأكل ما ينفعه، ويُعرِض عمَّا يضرُّه.

فمن المخلوقات ما يتغذَّى على العشب، ومنها ما يقتات اللحوم، ومنها ما يجد ضالَّته في الجيَف. وما يكون سُمًّا لأحدها يكون شفاءً لآخر، ولكلٍّ مائدةٌ ربَّانية مُعدَّة، يقول ربنا جلَّ وعلا:

﴿...لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (745)

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (746)

وحتى الطائر السليم يحمل رزق الطائر المريض...

فما أعظم هذا النظام!

وما أجمل هذا الإعداد الربَّاني!

توازن بيئي ليس فيه عيب أو نقص...

وكل شيء في هذا التوازن...

---

744 آل عمران: 191.

745 طه: 132.

746 العنكبوت: 60.



ولو أن الفيلة من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى قيام الساعة قد خُلِقَت في وقت واحد، لامتلأت الأرض بالفيلة، ولو أن الحيتان خُلِقَت في وقت واحد، لفاضت البحار بها، ولو أن الزواحف السامَّة خُلِقَت في وقت واحد، لما وجدنا مكانًا نمشي فيه، ولما استطعنا العيش في هذه الأرض.

وكذلك الأمر لو خُلِقَ الناس كلهم من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى آخر إنسان في وقت واحد، لما وجدنا في الأرض مكانًا تطؤه أقدامنا. غير أن المولى جلَّ وعلا جعل المخلوقات كلها تأتي إلى الدنيا بانتظام في توازن كامل عظيم، فكان كل شيء في الأرض يكمِّل غيره.

ولننظر إلى الغابات، نجد أن أعظم الحيوانات ألفةً وأشدُّها توحُّشًا تتشارك مكانًا واحدًا، ولا ينقرض نسل أيٍّ منها.

والحوت- على سبيل المثال- يأكل طنًّا من الأسماك كل يوم، ومع ذلك لا ينقرض نسل تلك الأسماك.

وثمة حيوانات في المنطقة الاستوائية لو حملتها إلى المناطق القطبية لمَاتَت، وكذلك ثمة حيوانات في المناطق القطبية لو أخذتها إلى المناطق الاستوائية لما عاشَت هناك.

ولنتأمَّل في التراب الذي نمشي عليه، هذا التراب الذي حلَّ جثث مليارات الناس من عهد آدم عليه السلام إلى هذا اليوم، وجعلها في



تركيبه. فلا ننخدعنَّ بالأهواء النفسانية فوق التراب، ولنتفكر في الذِّلة والخِسَّة تحته...

وصفوة الكلام أن كل شيء في الكون يعرِض لنا قدرة الله تعالى وعظمته التي لا يحدها حد، وتُعلِّم تجلياتُ الحِكَم الكثيرة العبادَ الذين يتقرَّبون إلى الله تعالى، عظمَتَه كل حين؛ لذلك كان التفكر عبادة عظيمة.

يقول المولى ﷻ:

﴿...وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ...﴾ (٧٤٧)

فالحقُّ أن الله تعالى يُكرِم عباده الأتقياء بالفوز بمعرفته سبحانه، ويجعلهم يألَفُون الحِكَم والعِبَر والأسرار في هذا الكون الفسيح.

أ. التوازن الدقيق

يزداد المرءُ فهمًا مع كل يوم يعيشه دِقَّةَ الانسجام والتوازن في هذا الكون بنجومه وكواكبه كلها؛ حتى إن أصغر تغيير في موازين الكون ونِسَبَه لا يكفي لمحو الأرض فحسب، بل الحياة برُمَّتها. فحجم الكرة الأرضية وكتلتها، وبُعدَها عن الشمس وكتلتها، ودرجة حراراتها، وميل محور الكرة الأرضية بدقة، وسرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس، وبُعْدُ القمر عن الأرض وحجمه وكتلته،

٧٤٧ البقرة: ٢٨٢.



وتوزُّع القارات والبحار في الأرض، وآلاف المعايير والنسب الأخرى، كلها تُظهِر بوضوح وجود نظام وتوازن عظيمان وضعهما الله تعالى في هذا الكون.

يقول المولى ﷻ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٧٤٨]

﴿...وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [٧٤٩]

إن نسبة الأوكسجين في الهواء ٢١ بالمئة ولو أن هذه النسبة زادت قليلًا، لاحترق كل شيء في الكون بِشَرَارة واحدة. ولو أن المسافة بين الأرض والشمس زادت قليلًا أو نقصت، لماتَ كل شيء حيٍّ تجمُّدًا أو احتراقًا.

ولو نزلت قطرة المطر من السحاب الذي يبعد عن سطح الأرض ١٥٠٠-٣٠٠٠ مترًا، لكان نزولها شديدًا. لكنَّ قطرة المطر يكبر حجمها بتجمع ذرات صغيرة بدءًا من السحاب، وعندما تقترب من الأرض تنزل بسرعة قريبة من قوة رفع الهواء، وكأنها قبل وصولها الأرض تفتح مظلة تخفِّف من شدة نزولها.

ولو كانت قوة الجاذبية أكثر بمليون مليون، لصار الكون أصغر وقصرت الأعمار، ولصارَ متوسط كتلة النجم أصغر بمليون مليون

---

٧٤٨ القمر: ٤٩.

٧٤٩ الرعد: ٨.

مرة من كتلة الشمس، وصار عمر الإنسان سنة واحدة. ولو أن قوة الجاذبية ضعفت قليلًا، لما تشكَّل نجم ولا حتى مجرة أبدًا.

وكذلك الأمر في جميع القوى الأخرى، يحكمها توازن دقيق في غاية الدِّقَّة.

ولو قلَّت سرعة دوران الأرض حول نفسها، لصار الفرق في درجة الحرارة بين الليل والنهار كبيرًا. ولو أن سرعتها زادت، لزادت سرعة رياح الغلاف الجوي زيادة شديدة، ولجعلت الأعاصير والفيضانات الحياة مستحيلة على سطحها.

ولو أن قشرة الأرض- أي طبقة التراب- كانت أثخن مما هي الآن، لما وُجِد الأوكسجين اللازم لحياة الأحياء، لأن طبقة التراب الثخينة كانت ستمتص الأوكسجين كله.

ولو كانت البحار أعمق مما هي عليه اليوم، لسحبت المياة الزائدة ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين، ولما كانت هناك حياة على وجه الأرض، ولا نمَت حتى النباتات.

ولو رقَّت طبقة الهواء حول الأرض قليلًا، لثقَبَت النيازك قشرة الأرض كل يوم، وأحرقت ما عليها.

إن حياة الكائنات الحية تعتمد على التركيب المتناسق بين الأوكسجين، والهيدروجين، وثاني أوكسيد الكربون، وغازات الكربون الأخرى بمختلف أنواعها. ولو أردنا أن تكون هذه الغازات



في كوكب ما مصادفة بالنِّسَب التي نريدها، وبالخصائص التي تجعل الحياة ممكنة، لما كان احتمال ذلك ولا حتى واحدًا بالمليون.

وكلما احتك الرعد في الفضاء مزج شيئًا من الأوكسجين في النتروجين، ويصل هذا النتروجين المركب إلى الحقول عن طريق الأمطار التي تلي العملية، والكمية التي تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة كل سنة، هي ما يقرب من خمسة أرطال لكل «ايكر» من الأرض، وهي تساوي ثلاثمئة رطل من نترات الصوديوم.(٧٥٠)

وحينما ندقِّق في خصائص الماء الذي نشربه نرى أنه خُلِق رزقًا خاصًّا للإنسان. وللماء خصائص تلفت الانتباه من حيث أنه مادة كيميائية، ومن هذه الخصائص:

أ. إن كبريتيد الهيدروجين «H^2S»- التركيب الأقرب لتركيب الماء- يصبح غازًا في درجة حرارة الغرفة مع أنه أثقل من الماء ضعفَين، وهو غاز سام ذو رائحة كريهة. أما الماء فليس مثله مع تشابههما.

ب. إن أكثر أحوال الماء كثافةً لا يكون جامدًا كما هو الحال في التراكيب الكيميائية المشابهة، أي ليست حالة التجمد، بل الحالة السائلة من الدرجة الرابعة. فبذلك لا يتجمد الماء في

٧٥٠ وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص٨٢. وثمة أمثلة كثيرة في هذا الشأن تجعل الإنسان يقف حيرانًا أمامها. انظر: وحيد خان، الإسلام يتحدى، ص١١٣- ١٣٨.

البحار والبحيرات والأنهار من الأسفل إلى الأعلى، بل من الأعلى إلى الأسفل، فيضمن ذلك حماية الكائنات الحية التي تعيش في الماء من تجمد طبقاتها العليا.

ج. إن درجة تجمد الماء وغليانها أنسب درجة للأحياء العضوية.

د. إن للماء خاصية حلِّ المواد العضوية وغير العضوية بسهولة وذلك بقطبيَّتها.

وللماء خصائص أخرى كثيرة غير التي ذكرناها هنا، وكلها تدعونا لنوقن أن الماء كأنه مادة قد أُعدَّت من قبل لحياة الإنسان.

وبعد أن ذكَرَ الله ﷻ الماءَ وخلْقَ السموات والأرض في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾ (٧٥١)

قال في الآية نفسها: ﴿...لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾.

فكان ذلك تبيانًا لنا أن خلق كل هذه المخلوقات إنما كان لأجل خلق الإنسان.(٧٥٢)

وصفوة الكلام أن كلَّ شيء في الكون وُضِع بمقاييس دقيقة، فلو زادت هذه المقاييس أو نقصت، لفسد هذا النظام والانسجام اللذان نراهما.

---

٧٥١ هود: ٧.

٧٥٢ انظر: شاكر كوجاباش، الخلق في القرآن، ص١٥٧.



وقد جعل الله تعالى هذا النظام الكوني لخدمة الإنسان، فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٧٥٣)

فنفهم من الآية الكريمة أن كل شيء في السموات والأرض قد سُخِّر للإنسان، وجميع الأبحاث التي أجريت في السنوات الأخيرة في إطار «مبدأ إنتروبيا» في علم الكون أثبتَت هذا الحكم؛ أي إن وجود الكون بهذا الحجم الكبير والعمر الطويل بكل ما عليه من نجوم ومجرات كان ضروريًا لظهور مخلوق عاقل مثل الإنسان وحياته في نظام مثل النظام الشمسي، وفي كوكب مثل كوكب الأرض. (٧٥٤)

والحق أننا عندما ننظر إلى ما حولنا نجد أن الإنسان ينتفع من جميع المخلوقات الحية والجامدة، فحتى البكتريا تُستَخدم اليوم في إنتاج الدواء، وكأنها مفاعل كيميائي عضوي. (٧٥٥)

٧٥٣ الجاثية: ١٣؛ انظر أيضًا: لقمان: ٢٠.

٧٥٤ شاكر كوجاباش، الخلق في القرآن، ص١٠٤.
انظر: Barrow. J.D. ve Tipler F. The Anthropic Cosmological Principle. Oxford University Pres. 1996. s. 5

٧٥٥ شاكر كوجاباش، الخلق في القرآن، ص١٤٩.

فهذا الانسجام الرائع والغائية في الكون من بدائع خلق الله ﷻ الذي خَلَقَ كل شيء بدقة، ولا يمكن أن يكون مصادفة.

يقول الأستاذ أيدوين كونكلين:

«إن القول بأن الحياة وُجِدَت مصادفةً كأن نتوقع إعداد معجم ضخم بعد انفجار وَقَعَ في مطبعة».[٧٥٦]

لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة، ثم وضعتها في جيبك، وخلطتها جيدًا، ثم حاولت أن تخرجها من الأول إلى العاشر بالترتيب العددي، بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى.. فإمكان أن تتناول الدرهم المكتوب عليه «١» في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة؛ وإمكان أن تتناول الدرهمين «١، ٢» بالترتيب واحد في المئة، وإمكان أن تُخرِج الدراهم «١، ٢، ٣، ٤» بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف.. حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات!».

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير كريسي موريسن، ثم استطرد قائلًا:

«إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه، ليس إلا أن نوضِّح كيف تتعقد الوقائع بنسبة كبيرة جدًا في مقابل الصدفة».[٧٥٧]

٧٥٦ وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص٨٥.

٧٥٧ وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص٨٦.



إن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن «صدفة» يتطلب مادة يزيد مقدارها مليار مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون، حتى يمكن تحريكها وضخها، وأما المادة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من ٢٤٣/ ١٠ سنة؛ أي مئتان وثلاثة وأربعون صفرًا أمام عشر سنين.

ولا بد أن يكون واضحًا للقارئ أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعني أنه لا بد من وقوع الحادث الذي ننتظره بعد تمام العمليات السابق ذكرها في تلك المدة السحيقة؛ وإنما معناه أن حدوثه في أثناء تلك المدة محتمل، لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد!

ولنتأمل الآن، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح، تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى مجرد إمكان لحدوث «جزيء بروتيني» فيه بالصدفة! فكيف إذن جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات، وأكثر من ٢٠٠ ألف نوع من النبات؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض في كل مكان؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه «الإنسان»؟[٧٥٨]

٧٥٨ انظر: وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص٨٧– ٨٨، ٩١.



ولا يحتاج الله تعالى للوقت كي يخلق أكملَ مخلوق، فهو سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٧٥٩] لكنه خَلَقَ المخلوقات في أوقات محدَّدة ليُظهِر لعباده قانون التدرُّج الذي وضعه في كونه.



وحتى أكثر الآلات تطورًا التي صنعها الإنسان وأعقد الأنظمة التي صمَّمها ليست لها أي أهمية أمام النظام المدهش في الكون. لذلك فإن تقليد هذا الإبداع العظيم الموجود في الطبيعة منذ عهد طويل، مهَّد الظهور لفرع جديد للعلم اسمه «البَيُونيكا» أي تطبيق الصفات البيولوجية على التقنيات الحديثة.

وإذا أردنا ضرب مثال للآلات التي تُقلِّد روائع الإبداع الإلهي، فلنا أن نذكر آلة التصوير؛ فهذه الآلة ليست إلا تقليدًا لميكانيكية عين الإنسان، ذلك أن عدسة الكاميرا كعدسة العين في عملها، ومِغلَاقُها مثل قزحية العين، أما الفيلم الذي يتأثر بالضوء فهو مثل شبكية العين فيها خلايا عصوية ومخروطية تنعكس صورة الأشياء عليها.

وفي الوقت الذي لا يجرؤ أحدٌ فيه أن يقول أن آلة التصوير قد ظهرت من تلقاء نفسها، نجد بعضًا ممن يدَّعون العلم من ذوي الغايات الخسيسة والأغراض الدنيئة يعتقدون أن العين ناتج صدفة.

٧٥٩ انظر: البقرة: ١١٧؛ آل عمران: ٤٧؛ النحل: ٧٧؛ يس: ٥٣.



وثمة آلات وأدوات كثيرة اخترعها الإنسان بتقليده روائع الإبداع الإلهي.(٧٦٠)



١٣. القرآن يقود العلم

إن اعتراف الأستاذ الأمريكي الدكتور جولي سينتون اعتراف مهم جدًّا. فقد ابتعد سينتون عن الدِّين لِمَا وجده من هراء في كتاب النصارى المحرَّف، ولم يعبأ بما ورد في القرآن في بداية الأمر لأنه كان يرى واقع الدِّين في الغرب، لكنه عندما وجد نفسه أمام حقائق جليَّة لا ينكرها عاقل، قال باندهاش شديد:

«إن هذا الدين [الإسلام] يمكن له أن يقود العلم ويوصله إلى نتائج ناجحة! وقد يؤدي إلى انقلاب علمي!».

يقول الله تعالى مبيِّنًا كثرة المعاني التي يحتويها القرآن الكريم الذي هو منبع المعجزات التي لا تنضب:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (٧٦١)

٧٦٠ انظر: وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص١١١- ١١٢.

٧٦١ الكهف: ١٠٩.



﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٦٢)

ويقول الشاعر ضياء باشا معبِّرًا عن دهشته وحيرته أمام الإبداع الإلهي سواء الكوني أم الكلامي:

لا ينفع العقل في إدراك المعالي

فميزانه لا يحمل مثل تلك الأثقال

وينزِّه الله تعالى مدركًا عجزه وتقصيره قائلًا:

سبحان مَن تحيَّر في صُنعه العقولُ

سبحان مَن بِقُدرته يعجزُ الفحولُ



٧٦٢ لقمان: ٢٧.



د. الإعجاز التشريعي

لقد كان رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء الذي به انتهت رسالات التبليغ، فكانت الأحكام في كل زمان ومكان بعده قائمة على رسالته، لذلك كان من الضروري أن يحتوي القرآن الكريم الذي أُنزِل عليه، قواعدَ وأسسًا تصلح لكل مصلحة أو ضرورة قد تظهر إلى قيام الساعة. ومن أحد الجوانب الإعجازية للقرآن الكريم عظمته في التشريع.

وفي القرآن الكريم أصول وضع القوانين الثابتة التي لا يستغني عنها الحقوقيون، والأحكام المهمة الضرورية لمصالح الناس. وقد استمرت هذه الميزة في القرآن منذ عهود طويلة وقويت وستظل كذلك.

ويتجلى إعجاز التشريع القرآني في أنه يحتوي – على عكس القوانيين البشرية – أحكامًا تلبي حاجات البشر في كل عصر مهما تقلَّب الزمان، وأنه يخلو من أي عيب أو نقص يستطيع أهل الإنصاف نقده فيه، وأنه يحلُّ بسهولة أعقدَ المسائل التي تعجز أمامها القوانين الوضعية، وأن أحكامه تحتوي حِكَمًا عظيمة، وأنه قد جعل النظام الرائع الذي وضعه في ذروة الأنظمة الأخرى في وقت قصير.

ويقدِّم الإسلام بنظام الحقوق الذي جاء به القرآن أجوبة لكل سؤال قد يرد في ذهن الإنسان أو خياله، ويضعها بأسلوب منظَّم متناسق في تسلسل منطقي دون الوقوع في التناقض.



وقد أقرَّ القرآن الكريم نظامًا حقوقيًّا يخاطب العصور كلها إلى قيام الساعة، وثبَّت أُسُسَه في وقت قصير. مع أن القانون في حياة المجتمعات لا ينضج نضجًا كاملًا في بداياته؛ إذ لا يستطيع أي مجتمع أن يؤسِّس نظامًا حقوقيًّا متطورًا في مراحله الأولى، ثم يتقدم ليصل إلى مستوى الحضارة. وكلما تقدم مستوى الثقافة والحضارة رويدًا رويدًا، بدأ النظام القانوني للمجتمع بالثبات والتطور، وقد اتفق علماء الاجتماع والحقوقيون في هذا الموضوع. غير أن الحال في الجزيرة العربية كانت عكس هذه الرؤية تمامًا، فلقد ظهرَ نظام كامل تامٌّ فجأةً من بين قوم جاهلين ليس لهم حظ من العلم والحضارة والثقافة، ووُضِعَت الحقوق المدنية، والأحوال الشخصية، والعلاقات بين الدول، وأحكام الحرب والسلم وغيرها على أجمل نظام وأحسن صورة.

من أجل هذا اللغز الذي لا يُحَلُّ إلا باليقين بأن هذا القرآن كلام الله، ذهب الباحثون المستشرقون ومن لفَّ لفَّهم يمينًا ويسارًا، في البحث عن تحليل مقبول لقصة هذا التشريع الذي ظهر فجأة في الجزيرة العربية، فمرَّة فرضوا أنه مقتبس عن القانون الروماني، ولما رأوا أنه لا توجد أيُّ جسور واصلة ما بين هذه الفرضية وواقع الجزيرة العربية آنذاك، تحولوا عن هذا القول إلى فرض أنه مقتبس عن الشرائع اليهودية... ولما أعوزهم الدليل على هذا الزعم



العجيب، قالوا فلعلَّه مقتبس عن شريعة حمورابي. كل هذا فرارًا من لغز عجيب يلزمهم- إن هم لم يقبلوا وجهًا من هذه الوجوه- بالقول بأن هذا التشريع ظهر هكذا في جو الجزيرة العربية دون أن ينبع من أرضها لأنه غير معقول أو أن ينزل من سمائها، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام.(٧٦٣)

فاليهودية صارت دِينًا عرقيًّا، إذ كان اليهود لا يقبلون في الشريعة الموسوية من لم يكن من بني إسرائيل. فاليهودية من هذا الجانب لا تستيطع أن تضع حقوق الإسلام الكاملة.

وحينما نتكلم عن حمورابي وغيره من الحقوقيِّن المشهورين، فإنهم لم يبلغوا أدنى ما بلَغَه فقهاء الإسلام العِظام الذين ربَّاهم الإسلام مثل الإمام الأعظم أبي حنيفة.

والحق أن القرآن الكريم قد وضع أسس العدالة والحضارة التي لم يستطع أي دِينٍ أو مجتمع أن يأتي بها حتى ذلك التاريخ. ولا شكَّ أن ظهور حضارة عظيمة مثل حضارة الإسلام في وسط بدوي بدائي في وقت قصير لَهوَ معجزة عظيمة، والأعظم من ذلك أن هذه الحضارة الرائعة ظهرت على يد رجل أمِّيٍّ لم يدرس أي علم. ويقول المفسِّر القاسمي مبيِّنًا هذا الجانب الإعجازي في القرآن الكريم:

٧٦٣ البوطي، روائع، ص١٥٥.



«الخالق تعالى ربَّى الأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية لا تتم لغيرها- بواسطة العوامل الاجتماعية- إلا في قرون عديدة». (٧٦٤)

وتجلَّى إعجاز القرآن أيضًا في رفع الأفراد والمجتمعات إلى درجة حضارة الفضائل في وقت قصير لا يتجاوز ثلاثًا وعشرين سنة.

ولو كانت الأحكام في القرآن الكريم من وضع بشر، لضعُفَت مثلما تضعف النظم البشرية الأخرى، وتكوَّنت في وقت طويل، ثم صارت غير كافية بعد مدة وخرجت من حياة الناس. لكن القرآن الكريم لم يتدخَّل فيه رسول الله ﷺ البتة، يقول الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٦٥)

أما سنة رسول الله ﷺ وأحاديثه فتشرح آيات القرآن الكريم وتوضِّحها.

وقد بنى رسول الله ﷺ- بأحكام القرآن- مجتمعًا فاضلًا صارت الألسنة تتناقل الحديث عنه.

---

٧٦٤ محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، القاهرة، دون تاريخ، جـ٢، ص٢١٦.

٧٦٥ يونس: ١٥.



مجتمع عصر السعادة [766]

لقد كان للأخلاق الكريمة التي جاء بها رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم تأثيرٌ عظيمٌ، فذلك المجتمع الجاهلي الذي كان أفراده يتصفون بالظلم والوحشية ولا يعرفون شيئًا عن الإنسانية، بنى حضارة مليئة بالفضائل في وقت قصير بوجود «الصحابة» الذين يغبطهم الناس إلى يومنا هذا، إذ صار الجاهل متعلِّمًا، والوحشي متحضِّرًا، والمجرم تقيًّا؛ أي صار كل واحد من أصحاب الصلاح والرقَّة القلبية العظيمة يعيش بين الخوف من الله تعالى ورجاء رحمته.

وتأمَّلوا ذلك الإنسان الفظ الذي تحجَّر قلبه حتى استطاع أن يئد ابنته... وذلك الذي عنده عبد يراه كما يرى أي شيء مادي يملكه، ويدَّعي أن له الحق في معاملته معاملة تخلو من إنسانية! فهذا الإنسان الفظ وذلك الجاهل لمَّا اهتدوا ودخلوا الإسلام، جاؤوا بحضارة بلغت ذروة العلم والأخلاق والأدب والإنسانية. وهذا الإنسان الذي كان يعيش في حضيض الإنسانية والحضارة في العصر الجاهلي، صار في قمة القمم ما إن بدأ يطبِّق أحكام الإسلام.

واستطاع ذلك المجتمع الجاهلي الذي لم يخرج منه رجل ذو قيمة على مدى عصور أن يُربِّي- بإرشاد النبي ﷺ وروحانيَّته- كثيرًا

٧٦٦ المقصود بعصر السعادة: عصُر رسول الله ﷺ.

من الناس الذين تحلَّوا بأفضل الأوصاف وأسمى الخصال وكانوا خير قدوة للبشر. واستطاعوا أن يجعلوا فيوضات القرآن والسنة مشاعلَ إيمان وعلم وعرفان يحملونها إلى أرجاء الأرض وينيرون بها كل رابية. وبذلك النور الذي نزل في الصحراء انتشرَ الحق والرحمة والعدل بين الناس.

وتربى الناس في عصر السعادة بين يدي الأسوة الحسنة سيدنا رسول الله ﷺ، فكانوا مجتمع معرفة، إذ كان ذلك العصر عصر التفكر والتدبر، عصر معرفة الله تعالى ورسوله من قرب.

لقد زرع الصحابة الكرام عقيدة التوحيد في الفكر، وأفلحوا في إزالة المغريات الدنيوية والرغبات النفسانية، وقضوا على تأليه الهوى المستقر في القلب، وصار المال والنفس واسطة بعد أن كانتا غاية، وذاق الناس لذة الإيمان، وعمَّت الرحمة، وصارت الخدمة نمط حياة، وعُرِضَت شخصية الإسلام بالمجاهَدَات والتضحيات، وكان الصحابي يسير شهرًا كاملًا ليأخذ حديثًا ثم يرجع إلى قومه.

كان الصحابة الكرام كرمَاء رحماء من أهل الخدمة والإيثار، يضحُّون بما عندهم، ويتوقون لأداء العبادات...

وقد تغير مفهوم الإله والكون والنفس عند الصحابة الكرام بقدوم الإسلام، وصارت غايتهم أن يكون حالهم كحال النبي ﷺ، كمثل الشمس التي تعكس نورها على المرآة الصغيرة، وبذلك اتضح في حياتهم الخير والحق بكل جماله، والشر والباطل بكل قبحه.



وامتُحِن الصحابة الكرام في إيمانهم بمكة، لكن لم يمنعهم شيء عن ثباتهم على الإيمان، فضحوا تارة بأموالهم وتارة أخرى بأنفسهم، ولمَّا تجذَّر الإيمان في قلوبهم في مكة المكرمة، كان أساسًا لإنشائهم حضارة فاضلة فريدة في المدينة المنورة.

واستطاع ذلك التجمع الإسلامي الصغير في المدينة المنورة المؤلَّف من قرابة أربعمئة أسرة أن يقيم دولة تصل حدودها إلى الشام والعراق في عشر سنين، وعندما توفي النبي ﷺ كان المسلمون في حرب مع الروم والفرس. لكن لم يتغير أي شيء في أحوال الصحابة الكرام التي كانوا عليها قبل عشر سنين، ولا تبدَّل سلوكهم ولا نمط معيشتهم ولا مستوى رفاهيَّتهم ولا أشكال بيوتهم، بل ظلوا يحيون حياة السعي والمجاهدة، فما كان في مجتمع الصحابة الاستهلاك الفائض والجشع والتفاخر والفخفخة، لأنهم كانوا يدركون دائمًا أن «مستقرُّ هذه النفس القبرُ غدًا». لذلك كانوا يتجنبون وضع رقابهم تحت نير النِعم الدنيوية، أو استعمال تلك النِّعَم بما يزيد على حاجتهم، بل جعلوها- بِلذَّة الإيمان- وسيلةً لهداية البشر وسعادتهم، وجعلوا بوصلة حياتهم نيل رضا الله سبحانه وتعالى.

والحق أن من أهم أسباب انتشار الإسلام بين المظلومين والمضطهدين والمستَبعدين كانتشار ضوء الصباح في سرعته ولمعانه، أن الصحابة الكرام كانوا يمثِّلون الإسلام أجمل تمثيل في كل مكان وصلوا إليه. فأولئك الصحابة الكرام الذين كانوا



طلبة بين يدي رسول الله ﷺ إنما هم المؤمنون الاستثنائيون الذين كانوا ينظرون إلى عباد الله تعالى بنظر الرحمة والرأفة التي أمر بها الخالق، وأصحابُ القلوب المليئة بالإيثار والاستقامة والعدل والغنى ونور الرسالة.

لقد جعل الصحابةُ الكرام مرضاة اللهَ ورسوله أساس حياتهم، وبذلك ارتقى ذلك المجتمع الذي لا يعرف القراءة والكتابة إلى ذروة الحضارة. وكانوا يسألون أنفسهم دائمًا: «ماذا يريد الله منَّا؟ كيف يريد رسول الله أن يرانا؟».

وتخلَّص الصحابة الكرام من شرِّ النفس الأمارة، وصاروا مؤمنين يحاسبون نفوسهم، وقضوا على رغباتها وغوائلها. وجعلوا ذلك الاستعداد المركوز في فطرتهم ينضج، فاقتربوا بذلك من الوصول إلى مرضاة الله تعالى. وصارت حال الأعرابي كحال الملائكة، وغدا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان فظًّا قبل الإسلام رقيقَ القلب بعد إسلامه.

وغدا ذلك الإنسان المتوحِّش الذي كان يأخذ ابنته من بين يدي أمها ويئدها قبل الإسلام رقيقَ القلب سخيَّ الدمع بعد الإسلام، ووجدت الصدور المتعبة الطمأنينة والسلوى، وصارت القلوب ملجأ للأرامل واليتامى والمساكين.

ولمَّا انعكست أنوار قلب رسول الله ﷺ على ذلك الإنسان الظلوم الجهول، تَسامَى حتى بلغَ أعلى درجات الحق والعدالة،



والإحساس بالفضيلة، والرأفة والرحمة بالمخلوقات من أجل الخالق.

كان كلُّ واحد من الصحابة الكرام مثالًا حيًّا لمعجزة القرآن، فقد كانوا يمثِّلون الفراسةَ والدراية والقيم الإنسانية، وكانوا ذروة الفضيلة البشرية.

واستعمل المؤمن آنذاك عقله وقلبه في انسجام عظيم ليصل بهما إلى الكمال، وتعمَّق في التفكر دون أن يُغفلَ العشق والوجد في قلبه، فعاش الناس مدركين أنهم في هذه الدنيا في امتحان، وصارت قلوبهم لا تغيب عنها رؤية العظمة والقدرة الإلهية، فلم يتعبوا ولم يملوا حتى إنهم وصلوا إلى الصين وسمرقند يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فالصحابي أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه اشترك في محاولة فتح القسطنطينية «إسطنبول» مرتين وكان عمره يزيد على الثمانين، رغبةً منه في أن يكون وسيلة للهداية، وحذرًا من التراخي في واجب الخدمة في سبيل الله، فالتحذير الربَّاني الشديد في قوله تعالى:

﴿...وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [٧٦٧]

كان دائمًا ما يجعل فرائصه ترتعد. وقد شارك أمثاله ممن جاؤوا بعده في هداية الناس حتى وصلوا الأندلس.

---

٧٦٧ البقرة: ١٩٥.



وانتقلت أحوال أفراد ذلك المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش في ظلام حالك إلى أحوال «العارفين حقًّا» بإرشاد النبي ﷺ. وتعمَّقوا في التفكر؛ التفكر في خلق الإنسان من ماء، والطائر من بيضة بسيطة، والأشجار الباسقات من بذور صغيرة لا تكاد تُرى، وازدادوا تدبرًا في حوادث أخرى مشابهة مليئة بالحِكَم... وصار مؤشِّر الحياة عندهم رضا الله سبحانه وتعالى، وعمَّ الحق والرحمة والرأفة.

لقد مثَّلَ الصحابة الكرام الإسلامَ خير تمثيل، وكانوا يسعون لرضا الله سبحانه وتعالى مع كلِّ نفَس وحركة دون أن يبخلوا بالتضحيات، وارتقوا درجات الكمال فكانوا يوصون بالخير والاستقامة والصلاح والجمال، ويحذِّرون من المنكرات والقبائح والأخلاق السيئة. وكانت أعظم أوقات الحياة وألذها عندهم عندما كانوا يبلِّغون رسالة التوحيد للناس، حتى إن أحد الصحابة الكرام عندما أمهَله الكافرون بضع دقائق قبل صلبِه، شكرهم ووجدَ في تلك اللحظات فرصة لتبليغ الدين.

فنستخلص من ذلك أن الصحابة الكرام قد عاشوا مع القرآن وبالقرآن ونذروا حياتهم في سبيله، وكانت لهم مساعٍ وخدماتٌ لم يُرَ مثلها في التاريخ، وتعرضوا للتعذيب والاضطهاد والظلم، لكنهم لم يتنازلوا البتة عن القيم التي آمنوا بها، وتركوا أموالهم وبيوتهم وهاجروا كي يعيشوا الآيات التي أنزلها الله تعالى، وضحُّوا بكل ما



لديهم في سبيل ذلك، وسعوا بكلِّ طاقتهم لتعلُّم كل آية والحياة بها كما يجب، ولم يهجروا القرآن حتى في أشد اللحظات خطرًا.

وقد جعل رسول الله ﷺ الصحابي عبَّاد بن بشر رضي الله عنه يحرس المسلمين في إحدى الغزوات. فقام عباد يصلي، وأقبل عدو الله يطلب غِرَّةً وقد سكنت الريح، فلما رأى سواده من قريب قال: يعلم الله إن هذا لربيئة(٧٦٨) القوم! ففوق(٧٦٩) له سهمًا فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه، ثم رماه بآخر فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه، ثم رماه الثالث فوضعه فيه، فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اجلس فقد أُتيتُ! فجلس عمار، فلما رأى الأعرابي [العدو] أن عمارًا قد قام علم أنهم قد نذروا به. فقال عمار: أي أخي، ما منعك أن توقظني به في أول سهم رمى به؟ قال: كنت في سورة أقرأها وهي سورة الكهف، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أني خشيت أن أضيع ثغرًا أمرني به رسول الله ﷺ ما انصرفت ولو أُتِيَ على نفسي.(٧٧٠)

لقد كان الصحابة الكرام يحيون بآيات القرآن الكريم، ويجدون في كل ركن من أركان الدين لذَّةً لا تنقطع، ويرون كلَّ آية تنزل

٧٦٨ الربيئة: الذي يحرس القوم.

٧٦٩ فَوَّقَ السَّهمَ: جعل له فُوقًا، والفُوقُ من السَّهم: حيث يُثَبَّتُ الوترُ منه.

٧٧٠ أبو داود، الطهارة، ٧٨/١٩٨؛ أحمد، جـ٣، ص٣٤٤؛ ابن هشام، جـ٣، ص٢١٩؛ الواقدي، جـ١، ص٣٩٧.

كالمائدة التي تنزل من السماء، وكان كل سعيهم أن يتعلموا القرآن الكريم ويحيوه ويكونوا خير قدوة.

وما طَلَبُ إحدى نساء الصحابة أن يكون مهرها أن يعلِّمها زوجها ما يعلم من القرآن الكريم إلا دليل عظيم ومثال جميل يُظهِر ما كان عند الصحابة الكرام من عقيدة وإيمان.[٧٧١]

لقد فضَّل أولئك الصحابة قيام الليل وتلاوة القرآن وقراءة الأوراد والأذكار في الأسحار على النوم في فُرُشهم. حتى إن المارَّ ببيوتهم في ظلمة الليل كان يسمع دويًّا كدَويِّ النحل. وكان النبي ﷺ يعلِّمهم القرآن الكريم حتى في أصعب الظروف.

وقد أقبل أبو طلحة رضي الله عنه يومًا، فإذا النبي ﷺ قائم يُقرِئُ أصحابَ الصفة على بطنه فصيل من حجر يُقيمُ به صلبه من الجوع.[٧٧٢]

فلقد كان شغلهم الشاغل فهم كتاب الله تعالى، وتعلُّمه، ونيل تجليات حِكَمه، والعمل بمقتضاه.

وكانوا يرون لذة الحياة في الإكثار من تلاوة القرآن والإنصات إليه وعيش آياته.

واقتدى الصحابة الكرام برسول الله ﷺ، وامتلأت المدينة المنورة بالعلماء وحفظة كتاب الله في نهاية المطاف.

---

٧٧١ انظر: البخاري، النكاح، ٦، ٣٢، ٣٥؛ فضائل القرآن، ٢١، ٢٢؛ مسلم، النكاح، ٧٦.

٧٧٢ أبو نعيم، حلية، جـ١، ص٣٤٢.



فما هي العوامل التي وجَّهَت الصحابة الكرام إلى القرآن الكريم؟

- لقد كان أغلب الصحابة أُميِّين لم يخضعوا لتأثير أي ثقافة، ثم وجَّهوا قواهم الذهنية والقلبية إلى القرآن الكريم، فظهرت ثقافة عالية رفضت الظلم والجور، واعترفت بِحَقِّ المخلوقات كلها بحياة هادئة مطمئنة.
- إن نزول القرآن الكريم مُنجَّمًا سهَّل حفظه وتطبيقه، فكان تعليمه تعليمًا تدريجيًّا.
- إن الضرورة في قراءة القرآن في الصلاة جعلتهم يتعلمون القرآن دائمًا، فأنِسُوا به.
- اعتبر الصحابة الكرام من قصص القرآن كي تكون أحكامهم صحيحة وأعمالهم مقبولة.

فعلى هذا النحو كان عصر السعادة الذي كان ثمرة من ثمار نزول القرآن الكريم، فشاهَدَ العالَمُ كله ذلك المجتمع الرائع بِحيرة ودهشة، وما زال يُظهِر حيرته إلى يومنا هذا.

والسؤال الذي نودُّ أن نسأله هنا:

هل يستطيع علماء النفس والاجتماع والتربية والفلاسفة وغيرهم من العلماء في هذا العصر إذا اجتمعوا أن يربُّوا بضعًا من الناس تربيةً تصل إلى مرتبة أولئك الذين عاشوا في مجتمع عصر السعادة وتزويدهم بكل الخصال الحميدة؟



يقول شهاب الدين القرافي المتوفى سنة ٦٨٤هـ والذي يُعدُّ من المشهورين في وضع منهجية للحقوق في الإسلام:

«لو لم تكن لرسول الله ﷺ معجزة لكفاه في إثبات نبوته الصحابة الكرام الذين ربَّاهم».

إن القرآن الكريم الذي جاء بِعصر السعادة ما زال يحافظ على تأثيره إلى هذا اليوم. فالمجتمعات التي تتمسك بالقرآن الكريم يعلو ذكرها كل حين، أما التي تهجره فتنزل إلى الحضيض. يقول الفيلسوف لافاييت «توفي سنة ١٨٣٤م» الذي بحث في مبادئ العدالة والحرية في القرآن مبيِّنًا إعجابه بالنبي ﷺ:

«يا محمد، لم يبلغ أحدٌ الدرجةَ التي وصلْتَ إليها في نشرك العدل!».[٧٧٣]

أما الأفكار– الإيجابية أو السلبية– التي وضعها الفلاسفة الذين لم تتربَّ عقولهم بالوحي، في سبيل السكينة والأمن الاجتماعي والأخلاق، فقد بقي أغلبها حبيس كتب تآكلت على رفوف المكتبات، وأما التي وجدت سبيلًا لها إلى الحياة، فعاشَت مدة قصيرة. ذلك أن هؤلاء الفلاسفة لم يستطيعوا أن يمثِّلوا ما يدعونه في حياتهم ولا في حياة من يتبعونهم، وبقيت أفكارهم محض نظريات لا أقل ولا أكثر.

---

٧٧٣ ميراس، ترجمة التجريد الصحيح، جـ٩، ص٢٨٩.



ومثال ذلك أننا لن نجد أحدًا في هذه الحياة قد آمن بفلسفة أرسطو وطبَّقها ثم وصل إلى السعادة- مع أنه أولُّ من وضع أسس قواعد فلسفة الأخلاق- وذلك لبعدِ تلك الفلسفة عن الوحي الإلهي. وكذلك الأمر عند الفاربي الذي لم يجد كتابه «المدينة الفاضلة» الذي يعد أعظم مؤلفاته، أيَّ أساس في الواقع، بل ظلَّ كتابًا خياليًّا فيه أفكار تتعلق بـ«المدينة الجميلة والمجتمع المثالي». ولم تخرج تلك الأفكار من سطور الكتاب، فلم تصلح إلا طعامًا للعث. وكل ذلك لأن هذي المؤلفات لم تكن حقائق كُتِبت من أرض الواقع ولا استندت إلى مصدر إلهي، فكان مصيرها الإهمال وساء ذلك مصيرًا.





هـ . معجزته بالنسبة لزمان نزوله

نفهم أكثر في عصر العلم والتكنولوجيا الذي نعيش فيه اليوم أن من أعظم معجزات القرآن أن الزمان الذي أُنزِل فيه كان أنسبَ زمان.

فلو نزل القرآن الكريم وبُعِث النبي ﷺ في زمان قبل ذلك الزمان، لما أدركت العقول آي القرآن ولا استوعبتها. ولو أنه نزلَ بعد ذلك الزمان، لكان الانطباع في الأذهان أن معجزاته قد أُخِذَت من كتاب بشري، أو لقَّنها مجموعة من العلماء، وحاشا للقرآن أن يكون كذلك. لكن الله تعالى العليم الحكيم أنزل القرآن في أنسب وقت بعلمه وقدرته المطلقة، وجعل تلك المعجزات هدية للبشر، لذلك فإن القرآن الكريم معجزة دائمة إلى قيام الساعة.

فقد كان القرآن الكريم يطمئن الأعرابي قبل ١٤٠٠ سنة بإعطائه ما يبحث عنه، وينظِّم حياته على أفضل صورة. والقرآن اليوم يخضع له أعظم أرباب العلم بعد أن يدهشهم بالمعلومات التي يقدمها عندما يحين الوقت المناسب، لأنه مليء بالعلوم الكاملة المكملة التي تقود التقدم العلمي الذي كان والذي سيكون إلى قيام الساعة؛ لذلك فإننا سنجد دائمًا في القرآن الكريم إشارات إلى الاكتشافات العلمية كلها.

حتى إن القدرة على الاطلاع أكثر على المعلومات الإعجازية في القرآن الكريم بالاكتشافات العلمية وعدٌ من الله تعالى بيَّنتها كثير من الآيات، يقول الله سبحانه وتعالى:



﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٧٧٤)

ويمكن أن نفهم كلمة «الآفاق» في الآية أنها العالَم الخارجي المحيط بالإنسان، وكلمة «أنفسهم» بُنية الإنسان الحيوية والروحية، فتعني الآية:

«سنبيِّن للإنسان الدلائل التي تثبت وجودنا وكمال قدرتنا سواء الموجودة في العالَم الخارجي الذي يحيط به، أو حتى في بنيته الجسمية والروحية!».

وقد قيل عن الكون الذي هو التجلي الفعلي للأسماء الإلهية: «العالم الأكبر»، وعن الإنسان المخلوق البديع الذي اجتمع فيه تجليات الأسماء: «العالم الأصغر». وأظهرَت علوم الظاهر والباطن المتعلقة بهذَين العالَمين والتي تُعجِز العقول والأذهان تجليَّ حقيقة «مَن عرفَ نفسه فقد عرفَ ربَّه» بجعل الإنسان يُدرِك عجزه.

وما أجمل قول الشاعر يونس أمْرَه:

«بداية العلم ومنتهاه معرفتُك نفسَك!».

ومن أوضح مظاهر الإبداع الإلهي أن لكل مفصل وجزء وعضو في جسم الإنسان عملٌ مختلفٌ، ولكنها جميعًا تعمل بانسجام رائع

---

٧٧٤ فصلت: ٥٣.

فيما بينها. ولو تُرِك عملها لإرادتنا، فكم من أعطال كانت ستصيبها كل يوم وكل لحظة؟! وحتى لو نجحنا في هذا الأمر إلى حدٍّ ما، لكنَّا فقدنا حياتنا عندما يغلبنا النعاس.

يقول المولى ﷻ:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٧٥)

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٧٧٦)

إن شعور الإنسان بعجزه وضعفه أمام عظمة الله تعالى وقدرته لا بد أن يفتح له أفقًا إلى معرفة الله تعالى، ويوجِّهه نحو الوصال معه سبحانه وتعالى.

وعلينا أن لا ننسى أن حقائق القرآن تظهر واحدة تلو الأخرى أمام عيون الناس مع مرور الوقت وتُحيِّر العقول، وكذلك فإن الأخبار الموجودة في القرآن عما يتعلق بالحياة بعد الموت لا بد أن تقع، فلا ريب أن أحوال الآخرة مثل الحشر والمحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار والأحوال الأخرى حقٌّ وحقيقةٌ.

---

٧٧٥ العنكبوت: ٥٠ – ٥١.

٧٧٦ محمد: ٢٤.

فطوبى لمن أغنى قلبه بفيوضات القرآن والسنة بأخذه العبر من هذا العالَم الفاني كما ينبغي...

وطوبى لمن أستعدَّ لحياة الآخرة بأفضل صورة ووقف في حضرة الله بقلب سليم!





من الطبيعي أن يأتي الإسلامُ بقواعد تنظِّم السلوك البشري وتتعلق بالعلوم كلها مثل الحقوق والأخلاق والاقتصاد، لأن هذا الدين رؤية شاملة للكون كله. ولا بد لهذه القواعد أن تحتوي جميع الموضوعات المادية والمجرَّدة وجميع المسائل من أبسطها إلى أعقدها، فبعض هذه المسائل بسيطة دنيوية تخص كل إنسان، وبعضها حقائق سامية غيبية تُعجِز أعظم العقول. ولا يخفى على أحد الصعوبة في توضيح مثل هذه المسائل والتدقيق فيها، وتشتد الصعوبة إذا كان التوضيح بتأليف كتاب يقرأه قرَّاء مجهولون.

إن القبول بخوض غمار هذا العمل يعني قبول الصعوبات التي يجدها ذلك الذي يتسلق أعلى القمم. ولا ريب أنه حتى لو كان السعيُ لوضع هذه الحقائق المعقدة المجردة بقدرات العقل والعلم واللغة شغلَ كثير من الناس، فإنه لا يمكن تحقيق النجاح في هذا الأمر بصورة كاملة.

ولأن هذه المسائل تفوق طاقة البشر، فإنه لا بد أن ننطلق من القاعدة الإسلامية: «ما لا يُدرَك كله لا يُترَك كله»، فنرجو من قرَّائنا



الأعزَّاء أن يغضوا الطرْف عمَّا عجزنا عن إدراكه وإيضاحه في صفحات هذا الكتاب.

ولنا أن نذكر هنا أن إدراك البشر ومحاكماتهم العقلية تكون بالانطباعات التي يأخذونها من هذا العالَم، لذلك فإنه من المحال الخلو من الخطأ في توضيح الحقائق المجردة التي لا يمكن مشاهدتها. وكذلك لا يمكن الاطلاع- بِطَاقةِ البشر- على أسرار حقيقة سيدنا محمد، الذي يعد بديعًا في الخَلْق، والقرآن الكريم الذي جاء به معجزةً عظيمة ستدوم إلى قيام الساعة، وإيضاحها بصورة كاملة.

فتصوير الجنة والنار وأمثالهما من الأحوال التي لا يعلم أحد هيئتها إلا الله تعالى، ليس إلا على حسب إدراكنا. وتقييم الحقائق الغيبية كلها بالعقل والقلب السليم صحيح لكنه ناقص: صحيح؛ لأن إيضاحه وإدراكه لا يكون إلا بهذا الحد بالانطباعات التي نأخذها من العالَم، وناقص؛ لأن الفرق بين الهيئات المشابهة التي نراها في الدنيا والهيئات التي نظن أننا أدركناها باستخدام قاعدة المقايسة فرق عظيم لا حدَّ له. ولمثل هذه الحقائق ثمة حاجة لوسائل أخرى تناسب الإدراك والقدرة والطاقة، ومثال ذلك «رؤية جمال الله»... ألا ترون أن التعبير عن هذه الهيئة التي ستكون للمؤمنين في الآخرة بكلمة «رؤية» شيء ناقص؟ بالطبع ناقص، لكن إيضاحها بهذه الكلمة ضروري كي يدركها البشر.



لذلك لمَّا كانت الحقيقة مثل البحر في سعته، فإن الإنسان لا يمكن أن ينال منها شيئًا أكثرمن حجم الوعاء الذي استعمله! كما أنه من المستحيل أن نجعل البحر كله في وعاء... واللسانُ وعاءٌ، والدماغُ وعاءٌ، والعينُ وعاءٌ... وكلها تقف عاجزة أمام إدراك عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته!

ويصوِّر الله تعالى لنا عظمته التي لا يمكن إدراكها بالعقل البشري في قوله:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧٧٧]

فعلينا أن نسأل أنفسنا ونتفكر: كم حجم وعاء البشر أمام بحر عظمة الله وسلطانه؟

وكيف للعقل البشري أن يضع حدودًا للحقائق المطلقة؟

فليس لنا مناص هنا إلا رفع رايات الاستسلام أمام موضوع استيعاب تلك الحقائق.

ولا ملجأ للعاجزين أمثالنا سوى الله سبحانه تعالى.

ولا حيلة لنا إلا الالتجاء إلى روحانية سيدنا محمد ﷺ!

فالمددَ المددَ يا رب!

---

٧٧٧ لقمان: ٢٧.



فهرس









المراجع

- القرآن الكريم
- إبراهيم جانان، موسوعة الحديث، جـ١-١٨، إسطنبول، بدون تاريخ.
- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله، موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا، بيروت، ١٩٩٣.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، المصنف، جـ١-٩، تحقيق: سعيد محمد اللحام، بيروت، ١٩٨٩.
- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار، سيرة ابن إسحاق (كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي)، قونيا، ١٩٨١.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، جـ١-١٣، بيروت، ١٩٧٩-١٩٨٢؛ أسد الغابة، جـ١-٧، القاهرة، ١٩٧٠.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، صفة الصفوة، جـ١-٤، بيروت، ١٩٧٩؛ الوفا، ترجمة: تاج الدين أوزون، قونيا، ١٩٩٢.
- ابن حبان، أبو حاتم البستي، صحيح ابن حبان، جـ١-٨١، بيروت، ١٩٩٣.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، ١٣٧٩هـ؛ المنبهات، إسطنبول، ١٩٦٠.
- ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق، صحيح ابن خزيمة، جـ١-٤، بيروت، ١٩٧٠.
- ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، جـ١-٩، بيروت، دار الصادر.



- ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، جـ١-٢، بيروت، ١٩٩٢.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ١-٤، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن حسن، تاريخ دمشق، بدون تاريخ.
- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت، ١٤١٣هـ، جـ١، ص٥٢.
- ابن قيم الجوزية، محمد أبي بكر، زاد المعاد، جـ١-٦، الكويت، ١٩٩١.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، جـ١-٤، بيروت، ١٩٨٨؛ البداية والنهاية، جـ١-٥١، القاهرة ١٩٩٣.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، جـ١-٢، إسطنبول، ١٩٩٢.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، جـ١-١٥، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام، سيرة النبي، جـ١-٤، بيروت، ١٩٣٧، دار الفكر.
- أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم، جـ١-٩، بيروت، بدون تاريخ، درا إحياء التراث العربي.
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، جـ١-٨، ١٩٨٣، دار الفكر.
- أبو داود، سليمان بن أشعث السجستاني، سنن أبي داود، جـ١-٥، إسطنبول، ١٩٩٢.
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، جـ١-١٠، بيروت، ١٩٦٧.



- أحمد بن المبارك، الإبريز، بيروت، ٢٠٠٤.
- أحمد بن حنبل، مسند، جـ١-٦، إسطنبول ١٩٩٢؛ الزهد، بدون تاريخ؛ فضائل الصحابة، بيروت، ١٩٨٣.
- أحمد جودة باشا، قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، إسطنبول، ١٩٧٦.
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح، المستطرف في كل فنٍّ مستظرف، جـ١-٢، بيروت، ١٩٨٦.
- الأصفهاني، الأمثال في الحديث النبوي، بومباي، ١٩٨٧.
- الإمام مالك بن أنس، موطأ، جـ١-٢، إسطنبول، ١٩٩٢.
- ألمالّي محمد حمدي يازر، الدين الحق ولغة القرآن، جـ١-١٠، إسطنبول، ١٩٧١.
- بابان زاده أحمد نعيم- كامل ميراث، مختصر صحيح البخاري ترجمة تجريد الصريح وشرحه، جـ١-٨، أنقرة، ١٩٩٣.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، جـ١-٨، إسطنبول، ١٩٩٢؛ الأدب المفرد، بيروت، ١٩٨٩.
- البلاذُري، أبو العباس أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، مصر، ١٩٥٩.
- البورصوي، إسماعيل حقي، روح البيان، إسطنبول ١٩٦٩.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، جـ١-١٠، دار الفكر، بدون تاريخ؛ شعب الإيمان، جـ١-٩، بيروت، ١٩٩٠؛ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، جـ١-٧، تعليق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، ١٩٨٥؛ الزهد الكبير، الكويت، ١٩٨٣.
- الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى، الترمذي، جـ١-٥، إسطنبول، ١٩٩٢.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، جـ١-٥، بيروت، ١٩٩٠.



- الحلبي، أبو الفرج علي بن إبراهيم، إنسان العيون، جـ١-٣، مصر، ١٩٦٤.
- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، السنن، جـ١-٤، بيروت، ١٩٨٦.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، جـ١-٢، إسطنبول ١٩٩٢.
- الدياربكري، حسين بن محمد، تاريخ الخميس، جـ١-٢، بيروت، بدون تاريخ.
- الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت، ١٩٨٦.
- الرمَّاني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الناشر: محمد خلف الله محمد زغلول سلَّام) القاهرة، بدون تاريخ، ص٦٩-١٠٤.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر بن محمد، تفسير الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جـ١-٦، تحقيق: محمد مرسي عامر، القاهرة، ١٩٨٨.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، الجامع الصغير، مصر، ١٣٠٦؛ تاريخ الخلفاء، مصر، ١٩٦٩؛ لباب النقول، بيروت، ٢٠٠٦؛ الخصائص الكبرى، ترجمة: نعيم أردوغان، إسطنبول، ٢٠٠٣؛ الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ١-٤، ١٣٢٧هـ.
- شاكر كوجاباش، الخلق في القرآن، إسطنبول، ٢٠٠٤.
- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، إسطنبول، بدون تاريخ، دار السعادة.
- طاشكوبرولو زاده أحمد أفندي، موضوعات العلوم، إسطنبول، ١٩٧٥.



- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، جـ١-٢٥، ١٩٨٣؛ المعجم الأوسط، جـ١-١٠، القاهرة، ١٤١٥.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، جـ١-٣٠، بيروت، ١٩٩٥؛ تاريخ، جـ١-٩، مصر، بدون تاريخ.
- عباس محمود العقاد، موسوعة، بيروت، بدون تاريخ.
- عبد الرزاق بن همام، مصنف، جـ١-١١، بيروت،١٩٧٠.
- عبد القادر عطا، عظمة القرآن، بيروت، ١٩٨٤.
- عبد الله بن المبارك، كتاب الزهد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، بدون تاريخ، دار الكتب العلمية.
- عبد المجيد الزنداني، المعجزات العملية في القرآن، ترجمة: رسول طوسون، إسطنبول، ١٩٩٥، دار كايهان للنشر.
- علي القاري، أبو الحسن نور الدين علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ١-٦، بيروت ١٩٩٢، دار الفكر.
- علي المتقي، كنز العمال، جـ١-١٦، بيروت، ١٩٨٥.
- العيني، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، جـ١-٢٥، بيروت، إدارة الطباعة المنيرة، بدون تاريخ.
- غاري ميلر (عبد الأحد عمر)، القرآن المعجز، (ترجمة: د. أردوغان باش)، إسطنبول، ٢٠٠٧.
- الغزالي، أبو حامد محمد، إحياء علوم الدين، جـ١-٦، بيروت، ١٩٩٠؛ المنقذ من الضلال، إسطنبول، ١٩٩٤.
- فاضل صالح السامرائي، من أساليب القرآن، بيروت، ١٩٨٧؛ التعبير القرآني، عمان، ٢٠٠٢؛ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، عمان، ٢٠٠٣.



- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، جـ١-٣٢، بيروت، ١٩٩٠.
- فريدون نافذ أوزلاك، التقرير، إسطنبول، ١٩٩٦، دار سبيل للنشر.
- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، إسطنبول، ١٢٩٠هـ، (مطبعة خليل أفندي).
- القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، المواهب اللدنية، جـ١-٢، مصر، ١٢٨١هـ.
- القشيري، الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، جـ١-٢٠، بيروت، ١٩٨٥.
- الكتاني، محمد عبد الحي، نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية)، بيروت، ١٩٩٦.
- المباركفوري، أبو العلا عبد الرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، القاهرة، بدون تاريخ.
- محمد حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، إسطنبول، ١٩٩٣.
- محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، بيروت، ١٩٩٦.
- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، جـ١-٢، بدون تاريخ، مطبعة عيسى البابي.
- محمد عبد الله دراز، النبي العظيم، بدون تاريخ، دار القلم.
- محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة ٤، إسطنبول، ١٩٨٥.
- مسلم، أبو الحسين بن حجاج القشيري، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، جـ١-٣، إسطنبول، ١٩٩٢.



- مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، بيروت، ٢٠٠٣؛ وحي القلم، الكويت، بدون تاريخ.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، جـ١-٦، بيروت، ١٩٩٤.
- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن، ترجمة: محمد علي سونماز، أنقرة، ١٩٩٨؛ موسى وفرعون، ترجمة: عائشة ميرال، إسطنبول، ٢٠٠٢.
- النسائي، أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب، سنن النسائي، جـ١-٨، إسطنبول، ١٩٩٢.
- نور الدين الصابوني، عقائد الماتريدية، ترجمة: بكر طوبال أوغلو، دمشق، ١٩٧٩.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، جـ١-١٨، مصر، ١٩٨١.
- الواحدي، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بيسوني زغلول، بيروت، ١٩٩٠.
- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، المغازي، جـ١-٣، بيروت، ١٩٨٩؛ مصر، ١٩٤٨.
- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، إسطنبول، ١٩٩٦.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، جـ١-١٠، بيروت، ١٩٨٨.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، جـ١-٢، بيروت، ١٩٩٢.

